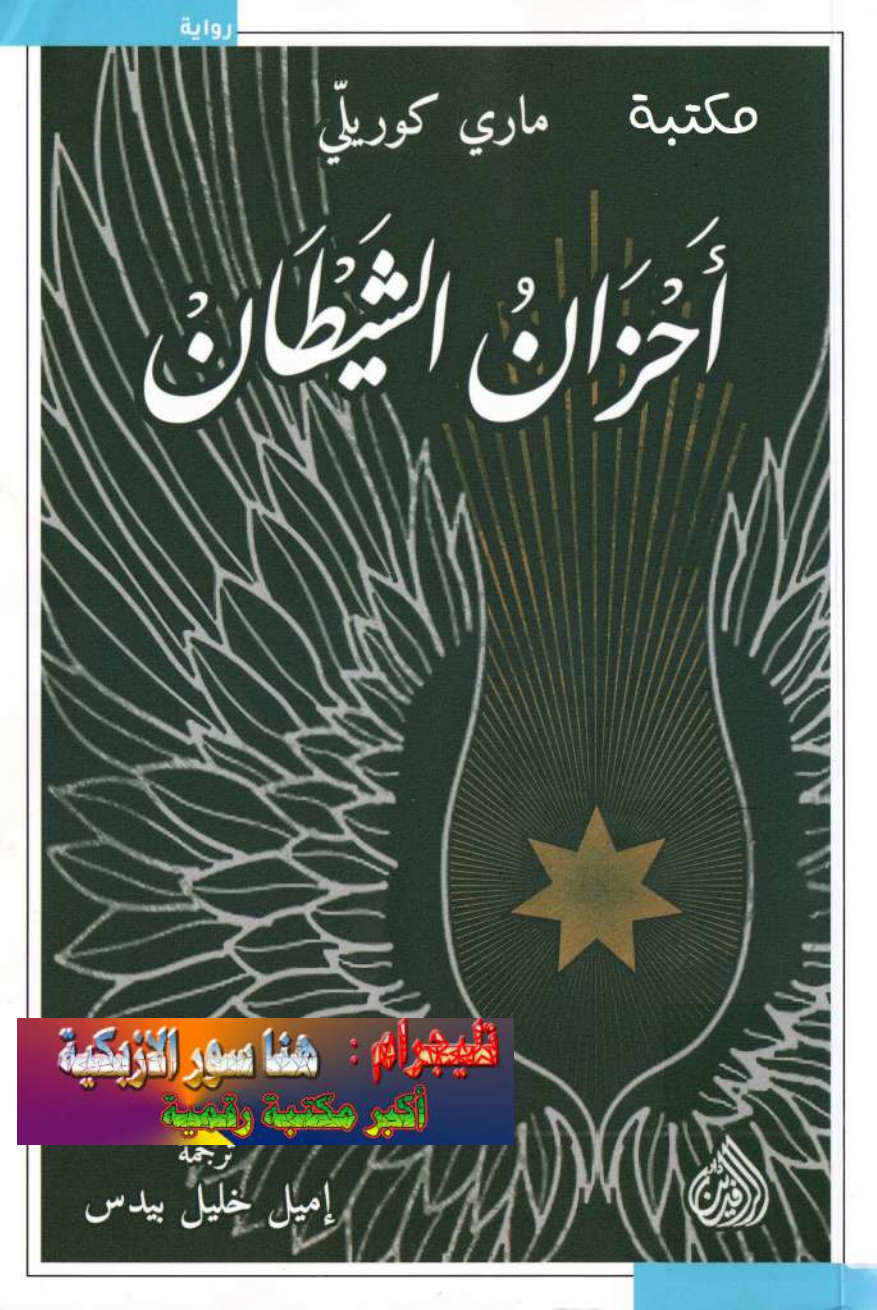

رواية
مكتبة ماري كوريلّي
أَحْزَانُ الشَّيْطَانِ
تليجرام : هنا سور الأزبكية
أكبر مكتبة رقمية
ترجمة
إميل خليل بيدس


تليجرام
هنا سور الازبكية
غواص في بحر الكتب
باحثون
محمد خطاب

أحزان الشيطان

ماري كوريلّي

ترجمة: إميل خليل بيدس

The Sorrows of Satan

By Marie Corelli

Translated by Emile Khalil Beidas

الطبعة الأولى: مارس - آذار، 2022 (1000 نسخة)





بغداد - العراق / شارع المتنبي عمارة الكاهجي

تلفون: 9647714440520+ / 9647811005860+

www.daralrafidain.com
info@daralrafidain.com
daralrafidain@yahoo.com
Dar ALRafidain دار الرافدين
daralrafidain
dar.alrafidain
dar_alrafidain
daralrafidain دار الرافدين

ISBN: 978 - 9922 - 643 - 21 - 2

ماري كوريلّي

أحزان الشيطان

ترجمة

إميل خليل بيدس



www.daralrafidain.com

الفهرس


تليجرام
هنا
سور الأزبكية

١ ـ الفقر

هل تدري ما هو الفقر؟

لا الفقر العزيز المتكبر الذي يشكو منه بعض الناس ممن يزيد إيرادهم على خمسة آلاف جنية في السنة، ومع ذلك يقسمون أغلظ الأيمان على أنهم أعجز من أن يعيشوا مكتفين قانعين!

بل الفقر الحقيقي...

الفقر المدقع، القاسي، الذي يشل الحركة، ويسلب الإرادة، ويحسم البؤس.

الفقر الذي يرغمك على ارتداء بزة واحدة في كل عام، حتى ترثّ وتتمزق.

الفقر الذي لا تملك معه إلا مضغ ريقك، وإهدار كرامتك، وافتقاد الشعور بالاعتزاز، والاندفاع إلى قارعة الطريق وأنت محني الصعدة، مطأطئ الهامة!

هذا هو الفقر المريع الذي أعنيه

هذا هو اللعنة الطاحنة الذي يذل الوحي ويمرغ الإلهام في الثرى!

هذا هو السرطان الأدبي الذي ينهش قلب امرئ، كان من المنتظر لو

نجا منه أن يصبح مخلوقاً له مكانته واعتباره، ولكنه أحال منه شيئاً حقيراً، حسوداً، حقوداً، لا يتورع عن ارتكاب الإثم واجتراح المعصية.

هذا المخلوق التاعس ساعة يقع بصره على امرأة من المجتمع متلفعة بأثواب من الدمقس، تمر به وهي تبتسم وتميس وتحلم بالسؤدد والجاه، وقد انطبعت على وجهها آثار الشره والشهوة والانغماس في المتعة... وساعة يرى الرجل الأخرق الهوائي المنفتح الجيب وهو يدخن لفائفه الفاخرة ويقضي ساعاته في تكاسل واسترخاء، وكأن جميع الدنيا ومن يقطنها من ملايين المخلصين الكادحين لم تخلق ولم يخلقوا إلا اتماماً لنعمته، وسعادته، وبُلهنيته ـ عند ذلك تستحيل دماء هذا العاثر الخاثر إلى سموم. وتتمرد روحه المتألمة، وتضرى، ثم تتململ في محبسها وتصرخ:

«لماذا بحق السماء يسود الدنيا مثل هذا الظلم؟ لماذا تمتلئ جيوب تافه حقير بالذهب لمجرد تألق نجمعه وظفره بميراث كبير، بينما أنا، أنا الكادح من باكورة الصباح إلى آخر ساعات النهار، لا أستطيع أن أتبلغ بلقمة هنية إلا بشق النفس؟».

لماذا؟ أجل لماذا؟ لماذا يزهر من ضؤل إحساسه وصغر عقله، كما تزهر شجرة الآس؟

ما أكثر ما راودتني مثل هذه الأفكار الممرضة، أما الآن فأعتقد عن يقين بأني في مركز يمكنني من إجابة نفسي بنفسي على تساؤلها، بعد أن بلوت التجربة وخبرت ما تغص به الدنيا من عجائب وغرائب!

ولكن... هذه التجربة! ترى منذا يصدقها؟ منذا يصدق أن مثل هذه الأمور الخارقة المريعة قد حدثت لإنسان من لحم ودم؟

لا أحد! ومع ذلك فإنها حقيقة واقعة ـ حقيقة دامغة... حقيقة أكثر صدقاً من الحقيقة!

ومهما يكن الأمر، فأنا أعلم جيداً أن الكثيرين من الرجال يمرون بمثل ما مررت به، ويتعرضون لمثل ما تعرضت له. ولعلّهم يشعرون بأنهم يتخبطون بين ألسنة مندلعة من نيران الخطيئة، ولكنهم أضعف من الانصلات من تلك الشبكة المضطرمة التي أصبحوا سجناء فيها عن رغبة وإذعان واستسلام...

فهل يتعلمون الدرس الذي تعلمت؟ وفي نفس المدرسة المخوفة؟ ومن قبل ذلك المعلم العجيب؟

وهل يلمسون كما لمست أن بعد أن تلمظت بالعلقم، السر الدفين العظيم ـ والدافع لكل عمل، العامل باستمرار وبصمت. ذلك الإشعاع السرمدي والذي ندعوه بحق، ربنا وخالقنا وصانعنا؟

لو صح هذا لاتضح لنا جميعاً دون استثناء، كل غامض وكل مستبهم على الفهم...

لو صح هذا لهانت المشكلات، ولذلك المعضلات، ولما بقي للظلم مرتع بيننا. ولسادت العدالة، وتربع الحق على عرشه قوياً مظفراً مرفوع الجبين.

إلا أنني لا أكتب عن رغبة في حثّ بني الإنسان على تلمس ما تلمسته، ولا أكتب لأنير طريقه وأفتح بصيرته، فأنا عليم بعناد الإنسان، لأني ميزان للإنسان، جبلت من تراب، ونشأت من طباع، وترعرعت موزعاً بين الفضيلة والرذيلة...

أجل إنني إنسان فحسب. وإن أنس لا أنس اعتدادي بنفسي، وثقتي بكفاءتي، ونفوري من كل سلطة إنسانية، واشمئزازي من أي طغيان على إرادتي، وتفكيري، وتصرفاتي.

وغيري من الناس كثيرون، بل أكثر من أن يحصى عديدهم

ولهذا أزمعت أن أسرد ما دهمني وحاق بي وأصابني... وأن أترك لمن هم أرجح عقلاً مني وألمع فكراً استشفاف أحجيات الإنسان وما يعتري حياته من ألغاز ومآس وآلام!

في سنة من السنين، والشتاء زمهرير، والثلج يسقط كثيفاً عنيداً، اجتاحت سواحل بريطانيا عاصفة هائلة أشبه ما تكون بزلزال مقوض مدمر. وكنت أنا جيوفري تمبست أعيش في لندن وحيداً شريداً، أتضور من الجوع.

والرجل الطاوي الساغب قلما يلقي الرأفة والحنان من إخوانه في الإنسانية؛ فهو منبوذ ممتهن، يتخلى عن الناس ويبخلون عليه بثقتهم، ويكذبون أنينه، ويسخرون من موته البطيء!

وممتلئو البطون ممن اكتظت معدهم بالأطعمة الدسمة يبتسمون في تهكم كلما شعروا بوجود جائع مسكين.

ولا ينعدم رفيق الشعور، فإذا قيل له هناك إنسان يكاد يقضي من كثرة الجوع هتف متوجعاً:

«هذا سريع!»

فالجوع حقيقة ممتهنة مستهجنة لا يليق بالمجتمع الراقي أن يخوض في بحثها، لأن هذا المجتمع يلتهم من الطعام أكثر من حاجته!

وأنا... أنا الذي غدوت رجلاً يحسدني الناس، عضني الجوع مرة بنابه الحاد المسنون، فعرفت معنى الألم الذي ينهش الأمعاء. عرفت الدوار الذي يحطم الرأس من شدة الهزال... عرفت اللهفة المجنونة الحيوانية لكل شيء يؤكل...

وعرفت أشياء أخرى كثيرة، مما عرفها غيري، ومما يخثر النفس لدى التفكير بها كل يوم، كما يفكر الفقير المدقع...

* * *

عملت عملاً متواصلاً. ومنذ الدقيقة التي لفظ فيها أبي أنفاسه الأخيرة، وتركني لأكتشف أن كل درهم ملكه، التهمه الدائنون والمرابون، طفقت أكدُّ وأكدح وأعمل بصبر وجلد. وكنت أميل إلى الأدب، وخيّل إليَّ الوهم أن الكتابة تدرّ عليّ ما يكفيني ويقيني.. وشرعت أطرق الأبواب، وأسعى للانضمام إلى تحرير صحيفة يومية أو مجلة أسبوعية. وعملت إبّان ذلك أعمالاً متفرقة، وربحت المال القليل، ولكني أخفقت في مسعاي ورفضني أصحاب هذه الصحح والمجلات.

وكل باحث عن رزقه بعقله وقلمه فقط، يعامل في مستهل محاولته كطفيلي كريه ممجوج. وهو مهما بذل من جهد ضمن عليه بالتشجيع وأعرض عنه الجميع، واعتبره المجتمع أحقر من قاتل ـ فالقاتل يجد الطعام والشراب على الأقل... القاتل يزوره في سجنه قس محترم... بيد أن الرجل الموهوب الذي تراوده آراء وأفكار، ويتسنى له أن يعرب عمّا يختلجه، يستحيل في رأي ذوي المقام والسلطان إلى مجرم آشر!

وهذا ما أصابني ـ وتقبلت المهانة والمذلة والمتربة بنفس وادعة مؤمنة،

ثم بنفاد صبر.. ولكني لم أفكر في الانتحار ـ ليس لأني أحب الحياة، بل لأني أرى فيه جبناً ومعرة

كنت صغير السن، أصغر من أن أفقد الأمل ـ ومجرد شعوري بأني صغير لن ألبث حتى أفوز وأنجح وأن عجلة الحظ التي لا تنفك تدور، سوف تدهمني يوماً ما لترفعني، وتزيل ما كان يلازمني من نحس الطالع، كان يعينني على الاحتمال، ويدرأ عني عادية اليأس والقنوط.

وظفرت أخيراً بالعمل لمدة ستة شهور مع صحيفة واسعة الانتشار. وكان عليَّ أن أطالع ثلاثين قصة في الأسبوع كي أبدي فيها رأيي، فاستخلص منها مواطن الضعف والركة لأكتب نقدي. وكنت أكتفي بقراءة خمس قصص منها أو ست، ثم أشن عليها هجوماً ساحقاً لا هوادة فيه، مستعملاً كل لفظ جارح بذيء.

وأكتشف أن هذه الطريقة تلقى قبولاً حسناً من مدير الصحيفة. وقد سرني رضا رئيسي عني، ولم أتذمر من المبلغ الزهيد الذي أتقاضاه، وهو لا يتجاوز الجنيه الواحد في الأسبوع. على أني ما كدت يوماً أتجرأ فأقرظ قصة جديرة بالإطراء، حتى طردني هذا الرئيس شر طردة.

وهكذا رجعت إلى بطالتي وعاد الحرمان ينهش فيَّ بأسنانه ويوسعني تعذيباً، حتى وجدت نفسي في ذلك الشتاء القاسي صفر اليدين معدماً لا أملك قيمة إيجار غرفتي الحقيرة الواقعة في مكان قريب من المتحف البريطاني.

وكنت في ذلك اليوم الذي هر أني قرة حتى دنفني، أبحث في كل مكان عن أي عمل أكسب منه دراهم معدودة، وقد سدت في وجهي الأبواب

كلها، ولم يشفق أحد على كاتب في منتهى البؤس كما أن أحداً من الناس لم يحفل قصتي الكبيرة التي ألفتها منذ سنة وحاولت دون جدوى أن أبيعها في ذلك اليوم بأبخس ثمن.

وكنت أجهل من قبل أن القصاص المتعاقد مع صحيفة ما، يرهب جانب المزاحمين ويدفعهم دفعاً عن مكان عمله. ولهذا كنت ألقي في كل مكان رجلاً يناصبني العداء لأنه يتوسم فيّ ذلك المزاحم والمنافس!

والرجل الأخير الذي قابلت في ذلك اليوم كان إنساناً لطيفاً دمثاً أمسك بقصتي، وكأنه يزنها، ثم صعّد من أطماري نظرة مشفقة وما عتّم أن قال:

«يا لأسفي! إنني أعجز عن مدّ يد العون لك، فكتابك جيد موزون، وما قرّاء اليوم إلا حفنة من أشخاص لا يرغبون في قراءة الغث التافه المملوء بحوادث الحب والغرام».

ولما تساءلت مستفهماً منه عما إذا كان يؤمن برأيه في أن ذوق الجمهور منحط إلى هذه الدرجة، أفتر ثغره عن ابتسامة واثقة وأجاب:

«إنني مضطر بحكم عملي أن أسبر غور الذوق، ولهذا تراني الآن ماهر في حدث اتجاه الجمهور بميوله وأذواقه. إنني لا أرغب إليك أن تكتب قصة تحشوها بالمواقف التي يندى لها الجبين، ولكني في نفس الوقت أؤكد لك أن قصتك المثالية لن تجد لها رواجاً، وأول من يعترض عليها هم النقاد. ومتى نقر الناقد من كتاب صرف عن القراء، لأن الجمهور ساذج له بالناقد ثقة عمياء».

ونكست رأسي وأنا أشعر بالغصة تستقر في حلقي. ولم ألبث أن اغتصبت ابتسامة مفتعلة وأجبت:

«إذا كان ما تزعمه حقيقة واقعة، فلا مندوحة لي من طرح القلم والبحث عن مهنة أخرى، فأنا والحق يقال رجعيّ في تفكيري أرى في الأدب صناعة رفيعة سامية وأوثر أن لا أكون من ضمن أولئك الذين يزدرونه ويستخفون به!».

واختلس الرجل إليَّ نظرة خاطفة وقال وصوته يشي بضجره: «هذا حسن، هذا حسن.. أنت مثالي أكثر مما ينبغي، وستفيء يوماً إلى نفسك لتجد أن المثالية لا تقي من متربة..»

ثم دعاني إلى تناول الطعام معه، فرفضت الدعوة رغم شدة جوعي، وقفلت راجعاً أتعثر بقدومي وأحمل في يدي قصتي!

وجبهتي صاحبة المنزل بالتهديد والوعيد، ولكن الاشفاق كان يسيل من أمائرها المتجهمة.. فربّ عبوس يشي بطيبة صاحبه، ورب قسوة تنضج رقة!

وكان لعاطفتها النبيلة هذه، كما كان لشعور الرجل، ردّ فعل معاكس في نفسي، فابتدرتها مقطباً:

«أنا أطوع لك من بنانك يا سيدتي، وسوف أدفع في الغداة ما هو مترتب علي!»

ولم أفكر في تلك الفينة بإفلاسي وخلو وفاضي، بل سارعت بقطع الوعد على نفسي ثم هرولت داخلاً، فطوحت بالكتاب على الأرض وتهالكت على كرسي وأنا أشتم ناقماً متمرداً

وأنعشت الشتيمة نفسي، وبدت لي أمراً طبيعياً ـ فرغم انهيار عزيمتي، إلا أني لم أفقد كل قوتي حتى أستعيض عن الشتيمة بالبكاء ـ ولا شك أن كلمة مقذعة هي أفضل ألف مرة من عاصفة بكاء تجتاح الإنسان في ساعة يأس واستسلام.

وبقدر ما كنت عاجزاً عن البكاء كنت عاجزاً عن الابتهال إلى الله، فقد نأيت عن خالقي في تلك الأيام.. كنت مسيحياً نصرانياً، إلا أن المذهب هذا أضحى لا نفع له في رأيي ساعة اكتشفت عجز القساوسة ورجال الدين عن حل طلسمات الحياة

وروحي كانت تعمه في فوضى لا نهائية

وعقلي كان يتعثر بعقبات الفكر والعمل

وجسدي كان يضعف ويهن بحكم الحاجة والجوع.

وكنت في حالة يأس ـ كنت اليأس بالذات

ومع ذلك، وعلى الرغم مما أصابني، شعرت أني بذلت وسعي ولم أقصر في حق نفسي. ولكن أخواني في الإنسانية شنوا عليَّ الحرب وقهروني وأكرهوني على الانزواء.. بل قيدوني ورموني في ركن مظلم من الحياة! وقاومت، وجاهدت، وبذلت ما في الطوق، وعملت بشرف واصطبار ـ ولكن دون جدوى!

أعرف صعاليك كسبوا المال الكثير، أعرف شذاذ آفاق تراكمت لديهم الثروات الضخمة. وعرفت في تلك الليلة التي تجاوز فيها قنوطي كل حد محتمل، أن غناهم زائف، ولكني أيقنت كذلك أن هذا الجاه يثبت أن الشرف ليس خير طريق يسلكه المرء.

فماذا أصنع إذن؟ وكيف أبدأ في غرس بذور الشر، حتى ينبت الشر خيراً لي وغنى ومالاً؟

هكذا فكرت إن صحت التسمية، وهل مثل هذه الأفكار خليقة بأن نطلق عليها اسماً مشتقاً من اللب المتقد بنار أبدية؟

كان البرد قارساً والليلة مثلوجة. وارتعشت، واصطكت أسناني، وحاولت أن أعيد الدفء إلى يدي، ثم نهضت من مكاني وأنشأت أذرع الغرفة جيئة وذهاباً.

وحانت مني التفاتة، فرأيت ثلاث ظروف على المائدة ـ أحدها مستطيل أزرق وكأنه تبليغ من دار العدل، أو قصة معادة ـ والثاني يحمل خاتم بريد ملبورن في أستراليا ـ والظرف الثالث جميل أنيق مذهب الأطراف.

وأمسكت بالكتاب المرسل من ملبورن وفضضته وأنا أتساءل عما يريده كاتبه ـ وكنت أعرفه ـ فأنا منذ بضعة شهور كتبت إلى صديق قديم زاملته في الجامعة، ثم نزح عن البلاد بعد فراغه من التعليم إلى أستراليا، شارحاً له حالتي وطالباً إليه أن يقرضني خمسين جنيهاً حتى أتدبر بها أمري.. ولا شك أنه بعث إلي بكتب اعتذار واستغفار!

وقلت أخاطب نفسي بصوت أجش.

«أجل إنه يرفض بأدب وتهذيب، ومهما كان الصديق مخلصاً فهو متى طولب بمدّ يد المساعدة صعّر خده للصداقة، ورد بالاعتذار، سارداً من الحجج أوهاها وأتفهها.. سوف يعرف صديقي في هذا الكتاب عن ضيق ذات يده، وأنني أدرى من الغير بهذه الأمور، ومع ذلك، فلماذا أنتظر من هذا الخل غير ما يظهره سائر الخلق؟ وهل يتحتم عليه أن لا يكون كغيره؟ كلا، كلا.. وفوق ذلك فأنا لست بالرجل الذي يستطيع أن يملي إرادته على صديقه، أنا؟ من أنا؟ أنا فقير، مملق، بائس، فاشل، أخفق في حياته وسيلاقي عما قليل نهايته المظلمة».

وتراءت لي فجأة تلك الباحة الخضراء التي تتخللها عيون الماء في

الجامعة، حيث قضيت مع صديق الصبا أوقاتاً ممتعة.. وتنفست الصعداء من شدة الكرب.. وحلّق فكري في فضاء الخيال، ورجعت إلى الوراء، فرأيت صديقي يمشي جنباً إلى جنب معي في ظلال الأشجار. رأيته ممسكاً بيدي، ورأيتني أحدثه حديث الود والإخاء. كنا نحن الاثنين نتشابه في كثير من وجوه الحياة؛ كنا نحب الشعر، ونكلف بالخطابة، ونعشق الأدب، ونفي في إلياذة هومر..

إلا أن زوال تلك الأيام الغرة جعلتنا نبتعد عن بعضنا بأجسامنا وأفكارنا وعواطفنا. وهكذا لم تكد أيام الدراسة تولي، حتى ولّى معها هومر، وولت معه إلياذته.. وها أنذا الآن أقاسي الأمرين من شظف العيش، وأكاد أقضي نجياً من تداعي قوتي.

سقيا لتلك الأيام الخوالي، يوم كنا نبني مستقبلنا على أسس من الأوهام ـ يوم كنا نشيد ركن هذا المستقبل على تعاليم أفلاطون، وتسامح المسيح، ورضا الفلاسفة والحكماء..

أوّاه! لقد ذهب أفلاطون، وذهب المسيح، ولم يعد لحكمتها من وجود.. إن صديقي يرفض ولا شك طلبي ويبخل علي بقوت يومي.

وارتعشت ذؤابة المصباح.. وخفقت وكأنها تخفق من الحزن

وكان شخص ما في الغرفة المجاورة لغرفتي يعزف على الكمان، كان يعزف برقة، وكانت ألحانه ناعمة تسيل عذوبة. وأنصت، وارتعشت وارتعدت، ووجب قلبي، ووددت لو كنته، وددت لو كنت هذا العازف الفنان، إذن لسموت بفكري، وعلوت... وعلوت.. فالموسيقى ترهف المشاعر.. الموسيقى ترهف حس الإنسان، وتصقل إحساسه.. الموسيقى

تنتزعك من صعيد الإنسانية المادية، لتطير بك إلى صعيد السماوات، ولتحلق معك في جو مبدع من العبقرية..

ولذعتني عقارب الجوع، فزفرت زفرة محرور ودفنت وجهي بين راحتي. وجعلت أخاطب الموسيقار الحزين بقولي:

«أي صديقي! أتعزف ألحانك وفي جوارك مدنف يتضور؟ أنت من البائسين، أنت مثلي، وإلا لما تحركت يدك بهذا اللحن الباكي؟ أنت قانط، وإلا لخرجت إلى الشارع، إلى الطريق، لتعزف وتكسب وتقتات لتعيش كما يعيش غيرك من الناس الذين يأكلون!..»

ورقت الأنغام، حتى لكأنها تذوب.. وتشبّع جو غرفتي بتلك الأنغام التي تهتز بها أوتار رجل لا أعرفه.. فهل هو كما تكهنت بأس طاوٍ؟ أم هو كما لم أحدس، رجل امتلأ وفاضة حتى فاض، ولم يجد خيراً من الموسيقى يزجي على نغماتها وقته؟

وزفر الريح من الخارج، واهتزت المدخنة، وشعرت بقشعريرة البرد، وبقبضة الموت.. شعرت بنصل حاد يخنق مهجتي. وارتعشت، وملت على المصباح وأنا أحاول أن أقرأ كتاب صاحبي. وما كدت أفض الظرف حتى سقطت منه ورقة الخمسين جنيهاً. وخفق قلبي خفقة الجذل، وقفزت من مكاني وأنا أهتف:

«جاك! أيها الصديق المخلص! لقد أسأت فيك الظن، مع أن لك قلباً ذهبياً! فسقياً لك أيها الخل الوفي!».

ثم أكببت على كتابه وطفقت أقرأ كلماته بشغف ومرح وسرور.

قال:

«عزيزي جيوف»

«إنني جدّ محزون لما حلَّ بك من الهوان، وحالتك الشديدة هذه أثبتت لي أن الناس في لندن معتوهون لا يقدرون للرجال قيمهم. فمتى عجز رجل يحوز ما حزته أنت من الكفاءة عن تحصيل الرزق، فقل إن الناس مجانين. أنا لا اشك قط في أن الماديات تغلبت على المعنويات في هذا العصر. إن المال أضحى وياللأسف كل شيء.»

«ها أنذا أرسل لك يا صديقي ما طلبت، فلا تعجل في رد المبلغ؛ فهو تافه لا يؤبه له، وسوف أصنع ما يسرك ويقلب حياتك من الشقاء إلى الرخاء. ها أَنذا أوجه إليك أحد الأصدقاء وهو يحمل رسالة مني. وأصارحك يا صاح أنك تفيد منه كثيراً متى أدركت كيف تصادقه وتكتسب مودته وثقته. إنه يعرف كل إنسان، وهو ملم بأفانين الكتابة والكلام، لا تغيب عنه شاردة أو واردة مما يرد في الكتب والتراجم. إنه يسيج وحده بعاداته وطبعه. وهو يعرف رجال الدين ولا يبالي الدين. هو يعرف رجال القلم ولا يخشاهم. هو أغنى من وجد من الأغنياء، حتى أنه لا يدري كيف يبعثر المال، فماله أكثر من أن يتبدد.. ماله كثير، كثير.. والأعجب أنه يرغب دوماً في الإنصاف، وكيف؟ أنه ينفق متى رأى إنساناً يحتاج إلى المساعدة، ولا يحجم عن عمل الخير، ويعيش من أجل الإنسانية؛ ولقد مدَّ لي يد المساعدة ـ وكنت في ذلك الحين مهدداً بالويل ـ فلما أدرك إني على شفا الإفلاس هرع إليَّ بماله وسلطانه، فأقال عثرتي ورد إليَّ اعتباري.»

«وعندما استلمت كتابك حزنت وذرفت الدمع وتذكرت تلك الأيام

الجميلة التي زجيناها سوياً، وما عتمت حتى أفضيت إليه بحقيقة حالك، ووضعت له ذكاءك وطول باعك في الأدب والشعر. فعاهدني على أن يلمّ بك فور وصوله إلى لندن، وأنا من جهتي أثق أنه سيبر بوعده ويأتيك بنفسه ليمدّ لك يده الرحبة.»

«إنه أسطورة، فهو على كل شيء قدير، هو يعمل ولا يفشل، ومتى عقد العزم أدرك وطره دون أن تعيقه عن ذلك عقبة من العقبات الكثيرة التي تتكأد سبيل الناس فتردهم على أعقابهم خاسرين، فاستعن به يا صديقي، ثم اكتب لي»

«سأقابله بعد ساعة لأمرٍ ذي بال، فإلى اللقاء في كتاب لاحق إن شاء الله!»

وضحكت عندما قرأت الإمضاء. فقد وقع اسمه بالكنية ذاتها التي كنا نطلقها عليه في أيام الدراسة. كان اسمه جون ولكننا جميعاً كنا ندعو «بوفلز، وبقي اسمه بوفلز طيلة سنوات الدراسة وها هو الآن يوقع بهذا الاسم الحبيب

وأرجعت النقود والكتاب إلى الظرف ثم استغرقت أفكر بالرجل الغامض الذي ذكره لي صاحبي ووصفه بأنه أغنى أهل الأرض قاطبة

وتذكرت الكتابين الآخرين وأنا أشعر شعور المطمئن إلى غدي، ففضضت الظرف الأزرق المستطيل وحملقت بعيني مشدوهاً. وأخذت الحروف الدقيقة تتراقص أمام ناظري ـ فما هذه الألغاز؟ وطفقت أقرأ تلك الكلمات، وأعدت تلاوة الكتاب والدهشة مستحوذة عليّ. وألمّ بي خاطر فهتفت:

وضرب من المحال، بل في الخيال!»

إنه وهم! وإلا فكيف للحظ أن يلم بامرئ بمثل هذه السرعة؟ كلا.. إنها مزحة، إنها دعابة، وهناك ولا جرم شخص تطيب له الفكاهة.. ومع ذلك، لو كان ما أرى الآن مزحة فإن صاحبها ما هو إلا ماكر لا يشق له غبار.

يا عجباً! والدنيا كلها عجب! وقد يكون ما أرى حقيقة، وقد يكون وهماً وخزعبلاً والاقاً خلباً!

2 ـ الفتى

ركزت تفكيري على ما أمامي، وأنشأت أقرأ الكتاب كلمة إثر كلمة بتمعن وروية. وزاد ذهولي، وتراءى لي أني نائم أحلك بالمنى، وبالنعيم، وبالسعادة العارمة.

وهل تتحقق الأحلام يا ترى؟ ولو كان ما أرى هو الحقيقة.. فبحق السماء ـ أواه! إني أشعر بالدوار

وبذلت جهدي لأملك نفسي، بذلك وسعي لأضبط مشاعري ـ فلو كان هذا الكتاب حقيقة ملموسة فأنا الآن غني موسر، أنا الآن غيري منذ نصف ساعة.. أنا الآن أشبه بملك وقد كنت أدنى من صعلوك.. أنا الآن كل ما اشتهيت أن أكون ـ أنا غني.. غني..

هذا الكتاب العجيب حمل في ذيله وفي أعلاه اسم مكتب لجماعة من رجال القانون المشهورين. جاء فيه أن رجلاً تشجه بأبي أواصر القرابة قد مات بغتة في أميركا الجنوبية مخلفاً لي كل ما كان يملكه من مال وعقار.

جاء فيه:

«إن تركة قريبك إلى رحمة ربه في أميركا الجنوبية، تقدر بنحو خمسة ملايين من الجنيهات! ويسرنا غاية السرور لو قدمت إلى مكاتبنا في غضون أسبوع حتى تمكننا من إجراء اللازم بصدد هذه التركة. وأعلم أن الجانب

الأكبر من الثروة النقدية مودع في بنك إنكلترا. وإن قسماً آخر تحتفظ به حكومة فرنسا كأمانة للمتوفى أو من يرثه. فالرجاء أن تعرج علينا بأسرع ما يمكن لنبحث ملياً بصدد هذه التركة!»

خمسة ملايين! أنا، البائس المتضرر من الجوع.. الرجل الذي انقضَّ من حوله الأصدقاء.. القانط الباحث عن لقمة! أنا، مالك خمسة ملايين! وحملقت بعيني، وخيل إلي أنني أقرأ ما هو غير مكتوب، وإن هذا سراب صوره لي الخيال أو الجنون!

ولكني قهقهت بصوت دوى دوياً مرعباً، وصحت:

«أيها القدر! أأنت مجنون حتى تسبغ عليّ ثروة لا يحلم بها المجانين؟ من ذا يصدق؟ يا إلهي! أنا.. أنا من دون الناس أجمعين يختارني القدر على حين غرة؟ ياللسماوات! لو صحَّ ذلك لأكوننَّ محور المجتمع! لأتبوأنَّ الذروة! لأصبحنَّ أعظم رجل في هذه البلاد!»

وأغربت ثانية في ضحكة مجلجلة.. ضحكت بصخب كما زمجرت منذ يسير شاتماً

وتناهت إلى سمعي قهقة.. وخيل إليّ أن صاحبها يجيبني على ضحكتي.. فارتعدت فرائصي وأصخت وأصغيت..

وانهمر المطر في الخارج وصاتت العاصفة، وزأرت كعجوز مضيعة العقل ـ وكان الكمان في الغرفة المجاورة لا يزال يصدح مزدداً أنغامه الشجية.

وسمعت صوتاً ثالثاً.. سمعت تلك الضحكة المروعة.. وتردد صداها فتلقفته الجدران..

وغمغمت واجف الفؤاد:

«هذا خيال، إنني في أضغاث الصحو، وأعصابي متوترة.. ولا يضيرني ذلك فستهدأ غداً عندما تفرش الأرض تحت قدميه بالذهب!»

«أي صديقي الكريم، سترجع لك نقودك مضاعفة.. أما صاحبك الثري فقد يكون كما وصفت، ولكنه سيجد نفسه في غير موضعه، سيجد في انتظاره رجلاً يملك الملايين ـ رجلاً يبذه بالغنى والجاه، سيجد من يسبقه في الانفاق والتبذير والتبديد! سيجد رجلاً يغدق عليه الألقاب، أو بالأحرى يشتريها بماله ـ سيجد رجلاً في متناول يده كل ما يبغيه من محبة، وصداقة، ومرتبة!»

«إن هذا جميعاً يشرى ويباع، إن العصر عصر مادة، والذي يدفع أكثر ينال الأكثر.»

«ياللقادم المسكين! سوف يجرر وراءه أذيال الخيبة ساعة يرى جاهه يتضاءل أمام جاهي.. وهل يعقل أن يكون صديق صديقي صاحب خمسة ملايين؟»

«والآن أيها المليونير الجديد، هيا إلى أفخم فندق، هيا لتأكل أشهى طعام، هيا لتحسو أفخر خمر، هيا.. هيا..»

وتحفز للنهوض، ولكني فوجئت بعاصفة من الهواء تهبُّ على وجهي. ثم تحرك شيء في المدخنة وسقط كتلة واحدة في الموقد، فنظرت فزعاً فوجدت قصتي ملوثة ملطخة.. فالتقطتها وضممتها إليَّ وأنا مسرور ـ فقد آن الأوان لطبعها ونشرها.. وستشتهر القصة، وسيشتهر كاتبها!

وافتر ثغري عن ابتسامة شيطانية ـ وراودتني نفسي على الانتقام ـ

فكرت بهؤلاء الأشخاص الذين ردوني خائباً مقهوراً مغلوباً على أمري.. فكرت فيهم، وقلت مهدداً:

«الويل لهم من أرذال! سيذوقون الوبال، سأجعلهم يتمرغون في الأوحال!»

العقل والمال قوتان هائلتان متى اندمجا ـ العقل والمال يهزان الكون، ويطبقان السماء على الأرض!

وحلقت عاطفتي في فضاء لا نهائي.. وتناهى إليَّ صوت الكمان وكان أدنى بصوت النحيب.. كانت الحانة باكية تصرخ متألمة متعذبة..

وتذكرت على حين غرة أنني لم أفض بعد الظرف الثالث ـ الظرف المتوج بالزهرة القرمزية الذهبية

وعبثت أناملي بالظرف الأنيق ثم تناولت من داخله ورقة معطرة متوجة تعلوها هي الأخرى زهرة، وقرأت:

«سيدي الوزير

«كاتب هذه الأسطر هو صديق صديقك نزيل أستراليا. وقد حباني بلطفه فأرسلني إليك بعد أن اطلعني على سيرتك. سأعرج عليك الليلة فيما بين الثامنة والتاسعة، عسى أن أجدك في انتظاري. إني أرفق لك يا سيدي بطاقتي وعنواني، ودم للمخلص».

(لوسيو)

وسقطت البطاقة الصغيرة من يدي واستقرت تحت المصباح، فاستطعت أن أقرأ فيها:

الأمير لوسيو ريمانيز

غراند أوتيل

وقيد نظري خط الرجل، فهو يختلف كل الاختلاف عن خط سواء من الناس. يا عجباً! ما هذه الريح الصرصر التي تزأر في الخارج! ما هذه الأنغام الشجية التي تنبعث من الكمان! ودار رأسي؛ وزاغ طرفي، وشعرت بثقل شديد يضغط على قلبي

وخيّل إليَّ أن نقر المطر على النافذة من الخارج ما هو إلا خطوات جاسوس يتربص بي ويترصد حركاتي.

وثارت نفسي، وتأثرت مشاعري، وأضاء أمام ناظري قبس خاطف لم يعتم أن تلاشى ـ ولعله الضمير ـ الضمير الذي أظلم الآن بعد انتقالي من العوز إلى البسطة!

ثم اجتاحتني موجة من الخبل، وفزعت فزعاً سريعاً. خفت أن يقع نظر الأمير على غرفتي الحقيرة ـ غرفة إنسان يملك الملايين

ومع أني لم أستولِ حتى تلك الساعة على ثروتي الهائلة، إلا أن حب الظهور لطخني بغروره قبل الأوان!

وهكذا عزمت وأنا كاره، على الزعم بأني كنت أبياً غنياً، إلا أن المكاره ألمت بي من حيث لا أدري فغبنتني ومغثت في صدري.. ولكني أنشأت أخاطب نفسي بقولي:

«لست مضطراً الليلة إلى مقابلته، سأبرح المكان وأترك له كلمة. لا، لا، بل إني أوثر أن أذهب دون أن أظهر علمي بمقدمه!»

وارتعشت ذؤابة المصباح بغتة، وهبت عليها نسمة لا أدري من أين أتت، وسبحت الغرفة في ظلام دامس

وتحسست طريقي عسى أن أعثر على الثقاب، ولكني جمدت في مكاني وأرهفت سمعي، ووعيت ما كان يجري خارجاً

وعينت لغطاً. كان هناك رجل يجاذب امرأة حديثاً مقتضبا.. لا شك أنه الأمير الموعود يتبادل الحديث مع صاحبة المنزل

ولم يلبث الخطوات أن أخذت ترقى درجات السلم ـ فلعنت الأمير في سري ألف لعنة..

3 ـ الأمير

فتح الباب، ومن خلال الظلمة الدامسة الحالكة، استطعت أن ألمح شبحاً مديداً يقف منتصباً على عتبة غرفتي ولن أنسى أبداً ما اعتراني في تلك اللحظة... فالرجل المجهول كان مارداً في طوله، وانتصابته كانت رهيبة، حتى أني ظننته ـ إلهاً، بل تراءى لي أنه أسطورة مجسمة! وقد أخذتني من رؤيته دهشة شديدة شغلتني عن الإنصات إلى الكلمات التي فاهت بها صاحبة المنزل وهي تقول دون أن تراني:

«أين أنت؟ إن سيداً مبجلاً يروم محادثتك»

إلا أنها قاطعت نفسها وكأنها تتدارك خطأ وقعت فيه:

«أواه! الأرجح أنه غائب، وإلا لأشغل المصباح ولما احتمل الظلام.. ولكن ما بالي لا آتي بمصباحي؟»

وهرولت المرأة نازلة.. ومع أني شعرت بضرورة إشعار القادم بوجودي إلا أن حافزاً غامضاً جعلني ألوذ بالصمت

وتقدم الغريب داخلاً، ثم تريث وتكلم وكأنه يرى في الظلام ما لا يرى:

«أي جيوفري تمبست.. أأنت هنا؟»

ماذا ألجم لساني؟ ولماذا أشعر بشيء لا عهد لي بمثله؟ وهل يشل لساني دون سبب، فأعجز عن النطق بكلمة ترحيب واحدة؟

وتقدم الغريب خطوة أخرى إلى الداخل، حتى خيل إليَّ أني أتضاءل أمام جسده المفرط الطول

وابتدرني الرجل مرة ثانية يقول:

«أي جيوفري تمبست.. هل أنت هنا؟»

واستولى عليَّ خجل عظيم، وما لبثت أن تقدمت نحوه وأنا أجيب:

«أجل، أنا هنا، ولأني هنا أنفت من استقبالك في هذه الغرفة الحقيرة. إنني أكاد أذوب خجلاً لاضطراري إلى مقابلة رجل عظيم القدر في هذا المكان الزري. أنت هو الأمير ريمانيز، ومنذ هنيهة قرأت رسالتك، ولكني أحببت أن لا ألاقيك هنا، أتلمس صراحتي؟ أتعجب بها؟»

وتجاهل الضيف لهجة التحدي التي قابلته بها، وأجاب:

«أنت صريح كل الصراحة، أنت صريح إلى درجة تصبح معها صراحتك أكثر غموضاً من الغامض! وإن شئت رأيي فخذه، أنت تمج محضري، وتتمنى لو لم آت زائراً»

واضطربت ظهراً لبطن، وأجفلني اتهامه لي، فسارعت أقول:

«أناشدك اللّٰه أن لا تسيء بي الظن، واعلم أني قرأت كتابك منذ دقائق، وقبل أن أتخذ الترتيبات اللازمة لاستقبالك انطفأ المصباح لأجد نفسي في حالة مربكة لا أغبط عليها، أما ترى؟ أما ترى أننا لا نرى بعضنا البعض؟ أما ترى أني محتار في أمري لا أستطيع أن أرحب بك؟»

وتساءل الزائر بصوت رقيق مشرب بالمحبة والتسامح:

«فلنتصافح يا صاح، لنر، هذه يدي ـ فإن كنت تبادلني الود فستتلاقى اليدان وتتدانى الراحتان دون حاجة إلى الصغائر..»

ومددت يدي دون تردد، فاشتبكت في لمحة خاطفة بيده بصورة جعلتني أؤمن بأنه أصاب كبد الحقيقة حينما زعم أن الود المتبادل كفيل بأن يهدي اليدين إلى بعضهما البعض

وجاءت صاحبة المنزل بالضوء، فوضعت المصباح على المنضدة. ولما رأتني تنفست الصعداء كمن يرى شبحاً أو جاناً!

ولكني لم أحلفها بل جعلت أحدق في وجه الزائر مأخوذاً لا أكاد أصدق أني أرى أمامي رجلاً من لحم ودم.. فهو أجمل إنسان شاهدته، وهو أروع ملاك رأيته، وهو نسيج وحده، تبعده عن سائر الناس نظرة وبسمة لا قبل لي على وصفهما

فالرأس الرائع كان ينطق بالقوة والجمال والحكمة، الرأس الرائع كان يستوي فوق منكبين عريضين ثابتين، وكأنهما منكبا هرقل والعينان سوداوان وأن يحيط بهما بياض متسع، وينبثق منهما نظرة هي مزيج من تهكم لاذع وبؤس لا يضارع

أما الفم فلعله كان أكثر الأمائر تحدثاً عن شخص صاحبه ـ فهو دقيق رقيق صغير، إلا أنه كان رغم هذا كله قوياً، أبياً، بعيداً كل البعد عن رقة أفواه النساء ـ ورأيت فيه ـ في فمه، أسىً واحتقاراً وقسوة

كل ذلك في لمحة وجيزة، في لمحة وجيزة رأيت الوجه على حقيقته. ولما سحبت يدي من يده خيّل إليَّ أني أعرف هذا الرجل منذ اليوم الأول الذي ولدتني فيه أمي!

وكنت لا أزال أحملق في ملامحه عندما ابتدرني يقول وقد أضاءت أساريره ابتسامة عريضة مشوقة:

«إنني جئت إليك في ساعة غير مناسبة. بيد أني أميل دوماً إلى إنجاز واجباتي في أوقات لا يقرها المجتمع ـ وهذا كما أثق يسبب الإزعاج للناس، لإن الإنسان مجبول على النزوع إلى الخلوة في بعض الأحيان؛ فاصفح عني، اصفح عني من أجل صاحب هذا الكتاب»

ومدَّ يده برسالة عرفت من خطها إنها من صديقي في أستراليا. وتناولتها منه ووضعتها قريباً من المصباح ثم قلت وأنا أصافحه ثانية:

«لا موجب لقراءتها، فقد أتاني من صاحبي كتاب بشأنك، وهو يطنب في إطرائك، ولكنه لا يحدثني عن حقيقتك، أي عن هيئتك ومنظرك وسنك...»

«ولقد توقعت أن ألقى أميراً هرماً طاعناً في السن، وها أنذا الآن أجد في غرفتي الحقيرة أميراً يرفل في أثواب الشباب والصحة والجمال والمجد...»

ورماني بنظرة حادة وأجاب:

«ليس هناك في عصرنا إنسان هرم! حتى أن النساء اللواتي نُفن على الخمسين يظهرن اليوم بمظهر فتيات في العشرين! إننا نتقدم، وعصرنا يتطور؛ والدنيا تفتح عيوننا كل يوم على أمور عجيبة مدهشة لم تخطر لنا على بال! والإنسان اليوم لا يتحدث عن السن في المجتمعات الراقية؛ وكل متحدث في هذا الأمر يكون مفتقداً لقواعد اللياقة والأدب! فالأمور المذمومة يتجنبها اللسان، والسن يا صديقي غدت اليوم من هذه الأمور الذميمة! ولهذا ترانا نتأبى الخوض فيما يمسها وفيما يتصل بها! قلت أنك

توقعت أن ترى شيخاً هرماً مهدماً، فاعلم أنك أصبت فيما ذهبت إليه، لأنك لن تقوى على التكهن بحقيقة سني!»

وضحكت مما سمعت، وأجبت بلطف ووداد:

«ماذا تقول؟ أنت لا محالة أصغر مني سناً!»

وهزَّ الرجل رأسه، وومضت عيناه، وقال:

«أنا كغيري من شخصيات هذا المجتمع الراقي أعيش في دعة ويسر، ولهذا تعجز الأيام عن وسمي بميسم التطور ـ أي أن وجهي يحتفظ بوسامته، وعيني تستبقان حرارتهما، وقلبي أيضاً لا يفقد قوته وعنفوانه؛ على أني أرجو منك أن تتلو كتاب صديقك.»

ولبيت طلبه فتناولت الكتاب وقرأت:

«صديقي جيوفري»

«حامل هذا الكتاب هو الأمير ريمانيز، رجل كرس حياته للعلم، ونبيل ينتمي إلى أعرق الأسر في أوربا. بل أنه كما أثق أكرم الناس محتداً، وأنقاهم أرومة. وأنت بما حباك الله به من اقتدار على العلم والاطلاع، ستعنى كثيراً بدراسة شؤون أجداده الذين قدموا منذ عصور خلت من فلسطين. وهو رجل يؤثر الصراحة في القول والعمل، ولهذا هاجر من بلاده وتكبد من جراء ذلك خسارة فادحة. إنه يثر الحل والترحال، وأخاله سيقضي العمر كله في ركوب متن الأسفار... وهو شاعر وموسيقي موهوب.. هو سيد الكل وفوق الكل، وأعظم من وجد! فصادقه ورافقه تغنم الكثير.»

وعجبت لإغفال صديقي كنيته التي أطلقناها عليه، فهو لم يوقع باسم

بوفلز، بل وقع اسمه الحقيقي. وأصابني بعض الاضطراب، وتساءلت عن السبب، كما دهشت مما لمسته في الكتاب من الألم المكتوم، وكأن صاحبي كتبه مرغماً!

ورفعت طرفي بعد قليل ورمقت الأمير بنظرة متفحصة، ثم عجلت أقول حتى لا يتسرب إليه اضطراب وشك:

«ومهما يكن الأمر يا سيدي، فأنا ما زلت ناقماً على نفسي لاضطراري إلى استقبالك في هذه الحجرة»

وأوشكت أن أميط له اللثام عن الثروة التي أسبغتها عليَّ السماء ولكنه قاطعني يقول:

«خليق بك أن تعتز بفقرك ورقة حالك، فالعبقرية كهف، واللوذعية تذوي في قصر!»

وهززت رأسي وأجبت:

«إلا أن العبقرية تود أحياناً أن تتذوق طعم الترف، وأن تنهل من ينبوع النعيم.. إن العبقرية في العادة تموت من الضنك والألبة!»

قال: «ولكنها متى ماتت بفعل الجوع شبع بسببها آلاف ـ إن شوبرت قضى جائعاً؛ فانظر الآن إلى أصحاب الملايين الذين أثروا من الاتجار بألحانه»

قلت: «أنت تفكه يا سيدي، ولا تؤمن بما يقول!»

قال: «بل أني أؤمن بكل معنى يتضمنه كلامي، وإلا فأين خبرتي وتجربتي؟ على أنه لا يخلق بالإنسان أن يصارح صاحبه برأيه الخالص..

فأنا هنا لأدعم صداقة جديدة، ولأبعد الكلفة القائمة بيننا، فهل ترافقني إلى الفندق حتى نتناول طعامنا سوياً؟»

* * *

شعرت أننا سنكون صديقين متقاربين. فسرّي عني وقرت عيني وزابلني ما أربكني وأقلقني. وما أبطأت أن أجبت:

«لشد ما يسعدني قربك! أنه لمن دواعي السرور والجذل لنفسي أن أشاركك طعام العشاء؛ ولكن ذرني أشرح لك أمراً: لا ريب في أنك سمعت الكثير عني من صديقي جون، وقد أعلمني في رسالته أنك قادم إليَّ بدافع من إنسانيتك، وإني لشاكر لك هذه الرغبة الطيبة... جئت يا سيدي وأنت متأكد من اجتماعك إلى أديب عثر به جده فأمسى فقيراً مملقاً متربأً..

ولو ألممت بي منذ ساعة لصدق حدسك، إلا أنه وقع في هذه الساعة ما لم يكن في الحسبان ـ فقد جاءتني أخبار مباغتة، أخبار مذهلة...»

فقاطعني متعجباً:

«فما هي؟ ما هي؟ لقد أثرت فضولي!»

فابتسمت وهززت رأسي وأنا أقول:

«إقرأ.. إقرأ..»

ومددت له يدي بكتاب المحامي. فقرأه بتمعن، وارتسمت على أمائره علامات الذهول والاستغراب. وطوى الرسالة كما كانت ثم أرجعها إليَّ وهو ينحني باحترام ويقول:

«لا ندحة لي من تهنئتك على ما حزته وأحرزته، مع أني على يقين من

أن هذا الغنى الذي شدهك لكثرته، ما هو إلا مال زهيد تستطيع أن طاب لك أن تبدده في بضع سنين! فالمرء لكي يكون غنياً لا بدّ له من الظفر بدخل لا يقل عن مليون جنيه، ومتى اطمأن إلى هذا الإيراد أمن العثار، وضمن دوام الجاه!»

وقهقه ضاحكاً.. وحملقت فيه مخبولاً أكاد أحكم عليه بالجنون ـ فهو يستهين بهذه الثروة الطائلة، ولا يتورع عن وصفها بأنها مال زهيد!

واستتلى وكأنه لا يرى ما طرأ على ملامحي فقال:

«لا يمكن وضع حد لجشع الإنسان.. وهذا الجشع متشعب الأطراف.. فقد يميل قلبك إلى مغازلة النساء، ولا يبعد أن تخضع لسحر بعضهنَّ، ولا يبعد أن تخضع ملايينك الخمسة لسحرهنّ أيضاً، فتخلع عليهنّ من الجواهر ما يستنزف هذه الملايين وتصحبهن إلى حلبة سباق الخيل، فتخسر ولا تبرح نخسر حتى تنتهي إلى لا شيء! كلا، كلا يا صديقي، أنت لا تعتبر من الأغنياء أنت لا تزال فقيراً، وما غنمت إلا ما يقيك من التضور جوعاً! وأنا ما جئت إليك إلا طمعاً في رعايتك وإعانتك، وها أنذا أجد نفسي بلا منفعة!»

وصحت على حين غرّة، ورفع هامته، وأصاخ، ثم قال:

«ما هذا؟»

وكان العازف يلعب على أوتار كمانه، فقلت:

«إنه رجل يقطن الغرفة المجاورة، وهو يعزف لحن آفي ماريا»

«سحقاً له! إنني أمقت كل ذريعة يتوسل بها الإنسان إلى غيره سواء

أكان ذلك بالألحان أو بالرسم أو بالغناء والشعر! أما الآن فهلمّ إلى الفندق لنطعم ونشرب»

وحدجني بنظرة عميقة الغور ـ نظرة غامضة مبهمة، فيها... لا أدري... شيء عجيب، شيء جذاب كالمغناطيس.. وأحسست أنه استحوذ عليّ، واستولى على إرادتي، واسترقّني!

ولكني نظرت إلى ملابسي الرثة وحذائي البالي، فهم من نظرتي ما دار في مخيلتي، وبادرني وهو يربت كتفي:

«لا تفزع يا صاح، إن الفقير المعدم فقط يشفق على نفسه من اطماره، أما صاحب الملايين فإنه يتعمد الخروج بأسمال كأنها الخرق! إن أثوابك بالية ولكن محفظتك مفعمة! فهلمّ، وذرني أكون صرافك إلى الوقت الذي ينجز فيه محاميك الإجراءات القانونية لتحويل الثروة»

وشعرت بأني مدين للرجل، فشكرته ثم كتبت رقعة على صاحبة المنزل أنبئها فيها بأنها ستأخذ مالها في الغداة. ووضعت بعد ذلك قصتي في جيبي وأطفأت المصباح، وغادرت الغرفة الحقيرة لآخر مرة في حياتي ـ غادرتها نهائياً ولم أفكر في أنه سيمرّ عليّ وقت أشعر أن الأيام التي قضيتها في هذه الغرفة هي أفضل أيام حياتي، وإن الفقر المدقع الذي قاسيت هو بمثابة الملاك المقدس الذي كان يدلني ويهديني ويرشدني إلى الغايات السامية والمبادئ الرفيعة، وإني سأصلي بيأس وسأذرف الدمع، وسأتضرع إلى الله أن يعيدني إلى الوراء، أن يفقرني حتى ترجع إليّ طيبتي وشرفي وإنسانيتي

أواه! لم أعلم شيئاً. إني لأتساءل هل من الخير للإنسان أن لا يرى الغيب!

غادرت المنزل في تلك الليلة وأنا أطفر فرحاً وأكاد أطير خيلاء، وأتهادى من الزهو والكبر. والتفت إلى الوراء لآخر مرة فمرّ بذهني وسمعي وقلبي لحن حزين متقطع أرسله عازف الكمان في خط مستطيل على أوتاره ـ فبكي، وبكى الناي، بكت الأوتار، أعول الزمان، وناح وانتحب!

فقد أرسل العازف لحنه ورائي، أرسل لحناً يبكي ويتضرع وكأنه يحثني على الرجوع

العازف المجهول، العازف الذي لا أعرف

فماذا ابتغى ماذا أراد؟

4 ـ العظمة

عربة الأمير تقف في انتظار الأمير... كان الجوادان أدهمين مطهمين توج رأساهما بالفضة، وظهرت كل معالم القوة والأصالة على جسديهما اللامعين. كانا يفحصان الأرض بقوائمهما وكأنهما ملا الانتظار

ورآنا الخادم المتلفع بهندام رائع أنيق، وانحنى لسيده، وفتح باب العربة وهو يلمس قبعته احتراماً

وأبى الأمير إلا أن استقل العربة قبله. فلما فعلت جلس إلى جانبي؛ وتولاني ساعتئذ شعور عجيب ـ فما هذا الترف؟ ما هذا النعيم؟ واختلجت المرئيات في ناظري، وسبح دماغي في أفق بغشاء الظلام، وأيقنت أني أحلم بما لا يتفق مع الحقيقة في شيء

وانسابت العربة بهدوء وسكون. كانت عجلاتها مغطاة بالمطاط فلا يحدث لها صوت. أما الجياد، فقد كانت تخبّ خباً رتيباً، وكأنها جنود تؤدي استعراضاً

واعتادت عيناي الظلام، فاختلست النظر إلى وجه صاحبي، فألقيته يحدث إليّ بعينيه المعتمتين، وقد شعت أساريره بوهج غامض

وسألني والابتسامة تداعب ثغره:

«ألا تشعر بالدنيا تجثو تحت قدميك؟ ألا تراها ككرة تنتظر أن تركلها

بقدمك؟ إنها فانية هذه الدنيا، إنها حفيفة تهتز لأدنى حركة.. وقد بذل الحكماء في جميع العصور جهدهم للتقليل من تفاهتها، ولكنهم باءوا بالفشل الذريع، وتغلب الباطل والسخيف على الحقيقة والحكمة»

وأجبت مشدوهاً:

«ما لي أراك أيها الأمير ناقماً ساخطاً على الدنيا؟ على أنك ولا غرو قد بلوت من تجاربها ما لم يبله سواك!»

فهزّ رأسه الجميل وقال:

«أجل، أجل.. إن مملكتي لا حدود لها»

فابتدرته بنبرة تعجب ودهشة:

«فأنت سلطة حاكمة إذن؟ ولقبك هو أخطر ما يحمله من معاني الرفعة والشرف؟ إنه يتعدى ذلك إلى ما هو أمنع وأخطر، أليس كذلك؟»

فأجاب:

«ما لقبي في نظر طبقة النبلاء إلا معنى من معاني الشرف يضفي علي، وأعلم إني عندما أقول إن مملكتي مترامية، أعني إني أحكم حيثما وجد الرجال الذين يدينون للمال بالطاعة.. فهل أخطئ من وجهة النظر هذه، ساعة أجاهر أن مملكتي فسيحة؟ وهل لهذه المملكة حدود وسدود»

قتل: «أنت كما أرى أشبه (بديوجينس الكلبي) الذي اعتنق مذهب الزهد.. وأخالك لا تعترض علي إن قلت بوجود أمور يعجز المال عن شرائها ـ كالشرف والطهر، وسوى ذلك؟»

وتأمل في وجهي مبتسماً وأجاب:

«أظن أن الشرف موجود وكذلك الطهر، ولا جرم أنهما لن يباعا ويشريا متى وجدا، إلا أن التجربة علمتني أن باستطاعتي شراء كل شيء! وما الشرف والطهر إلا عاطفة يطلق عليها الناس هاتين الكنيتين؛ فابذل المال ينقلب الشرف إلى رشوة والطهر إلى رجس في مثل غمضة عين وفتحتها! ولكني أعترف الآن بأني اصطدمت مرة بحالة شاذة ـ حالة إنسان صمد في وجه التجربة وتمسك بالشرف والطهر.. ولعلي أجد مع مرور الأيام مثل هذه الحالة النادرة. ولنرجع الآن إلى شخصي، فأنا أمير يختلف عن الأمراء في كوني متأصل الجذور يرجع نسبي إلى أقدم العصور.. إلا أن ممتلكاتي قد تبددت وتبعثرت، وأتباعي تفرقوا شيعاً وأحزاباً، في جميع النواحي وفي شتى الأقطار، بعضهم اعتنق مذهب الفوضوية، وبعضهم مذهب الهلنستية. وآخرون تأرجحوا بين الإنسانية والحيوانية. أما عن المال فحدث ولا حرج فهو كثير جزيل غزير، لا ينضب له معين، وبه أشق طريقي. وسيأتي ذلك اليوم الذي تطلّ فيه على المزيد من حقيقتي وتاريخ حياتي ودقائق تحركاتي. ولي بجانب اسمي أسماء أخرى كثيرة، ولي بجانب لقبي ألقاب لا حصر لها، إلا أني أوثر أسهل الأسماء والألقاب، لأن الناس تنفر من الأسماء العقيمة، ولهذا تجد أصدقائي ينادونني باسمي المجرد ـ لوسيو»

قلت: «و أخاله اسمك الذي خلع عليك عندما عمدت مسيحياً؟»

فانبرى يقول غاضباً:

«كلا.. كلا.. فليس لي اسم مسيحي، ولا أعترف قط بهذه الكلمة!»

ودهشت من لهجته حتى ذهلت

وتابع هو يقول: «إن كلمة (مسيحية) تثيرني وتملأ صدري حفيظة! ولا يوجد شيء مثل هذا في الدنيا، لا يوجد إنسان مسيحي على قيد الحياة.. أنت! هل أنت مسيحي؟ وهل سواك جدير بأن يوصف بالمسيحية؟ كلا، ثم كلا.. إن الناس تتظاهر بذلك.. إن الناس تتظاهر بالمسيحية وقلوبهم خالية منها.. ولكني لا أتظاهر، بل أجهر بأني أؤمن بشيء..»

قتل: «وما هو؟»

قال: «بشيء مخيف رهيب.. بشيء مريع!»

وكفّ عن الكلام، فقد وقفت العربة، وهرع إليها خدم الفندق. ولكن الأمير مشى إلى الداخل دون أن يكترث بهم أو يلتفت إليهم

والتقى رجلاً يتلفع بالسواد. وتمتمت بصوت خافت:

«ألا ترى أن نبتَّ في أمر الغرفة؟»

قال: «لا تفكر في مثل هذه التوافه، فخادمي ـ وأشار إلى الرجل الواقف بين يديه ـ كفيل بوضع الأمور في نصابها»

وسمع كلمات الأمير نادل كان يحدجني بازدراء، ويصعد في ملابسي الرثة نظرات الاستهجان، فرفع هامته بغتة، وتبدلت نظرته فرمقني بعينين تجلى فيهما الاحترام والمهابة والولاء!

وتوغر صدري ـ باللاإنسانية! يااللإنسان الحقير! أيتبدل من حال إلى حال إذا ما سمع اسم المال؟! وانتابتني موجة من اشمئزاز تشوبها نأمة تيه وغرور ـ فمقياس الإنسان ما يملك من مال، وما يلبس من ثياب. فإذا كنت فقيراً ترتدي الأطمار نُحيت وامتهنت، ولكنك إذا كنت غنياً ولبست

ما شئت من الثياب، فلن يملك الناس إلا احترامك وتبجيلك ولن ينفكوا يدعونك إلى كل مكان، ولو كنت مخمولاً، ولو كنت مفتوناً، ولو كان ما يجول في رأسك أتفه الأفكار وأسخفها!

وتبعت مضيفي إلى جناحه.. وكان مؤلفاً من عدد كبير من الغرف، وردهة استقبال، وقاعة طعام، ومكتبة. يضاف إلى هذا كله جناح خاص لخادمه ومن يتبعه ويسهر على راحته

وكانت مائدة الطعام تحفل بكل ما لذَّ وطاب من المأكولات وقد صفت الآنية لشخصين في طرفيها المتقابلين. وكانت الصحاف مصنوعة من الفضة ومزخرفة بماء الذهب. وصفت في أمكنة من المائدة آنية من الزهر والشمعدانات النادرة الصنع المطهورة في قالب الذهب المنقوش باللؤلؤ

وفي بضع دقائق كنا نجلس إلى المائدة، وخادم الأمير الخاص يشرف على تقديم الطعام

واختلست النظر إلى الخادم، فأجفلني فيه نظرة مريبة، ونفرت منه رغم براعته وخفته..

كان اسمه أميل، وكانت حركته أقرب إلى حركة القط أو النمر ـ ولا شكَّ في أن خطوته بذاتها كانت توحي للمرء بأنه يرى أمامه ذلك النمر المتحفز المتوحش الذي يطأ الأرض ولا يسمع لوطئه صوت

وساعده في عمله خادمان آخران لا يقلان مهارة عنه، حتى أني أيقنت أني لم أتذوق في حياتي طعاماً أشهى نكهة من طعام الليلة

وانتشت نفسي وداخلي شعور بالراحة والسعادة، وأنشأت أبادل الأمير الكلام بحرية وصراحة وثقة بالنفس. وكان إعجابي به يزداد شدة مع مرور الوقت وميلي إليه ينمو ويتضاعف

وسألني الأمير عن خطتي الجديدة في الحياة بعد أن مالأني الخط، فقال:

«والآن بعد أن ظفرت بهذه الثروة الصغيرة أتنوي الاستمرار في عملك الأدبي؟»

فأجبت قائلاً:

«لن أتخلى عن الكتابة والتأليف حتى ولو كان ذلك من أجل الأدب فقط. فالمال موفر وبوسعي أن أحيط اسمي بهالة من الدعاية سواء أرضي الجمهور بذلك أم أباه. وهل هناك صحيفة واحدة ترفض نشر الإعلانات المدفوع ثمنها؟»

«أصبت! ولكن، ألا تظن أن الوحي سيمتنع عنك متى غزر مالك؟»

وأثارتني هذه العبارة فقلت محتدماً:

«وهل تعتبرني ناقص العقل؟»

«كلا، فأنت مكتمل العقل في الوقت الحاضر! بل إني أعتقد أنك كبير العقل حاد الذكاء، لك في مجال الفكر باع طويل وآراؤك طلية مستحدثة لا تهضمها دنيا المادة. غير أن السؤال الذي ينتظر الجواب هو: ـ هل تستمر أفكارك على التوالد في دماغك، أم تراها ترقد في سبات عميق بعد انتفاخ جيبك؟ إن الإلهام العظيم لا يتفق في شيء مع صاحب الملايين، فالإلهام

يهبط من أعلى، والماء ينبع من الأسفل! أما فيما يتعلق بك أنت فلا أظنك تفقد حساسيتك للوحي حتى ولو ملكت مال الدنيا.. على أنه في العادة عندما تتهادى الثروة طائعة مختارة لتغني عبقرياً بعد فقر وإفلاس، فإن اللّه يغادره ليدخل الشيطان! ألم تسمع بهذا؟»

فابتسمت وقلت: «بلى لم أسمع به»

قال: «إنه قول معتمد عليه كما يبدو في هذا العصر الذي تهاوت فيه المصل، وكف الناس عن الإيمان بالله والاعتقاد بوجود الشيطان، وتبعاً لذلك فلكل امرئ أن يختار بين طريق صاعدة وأخرى هابطة ـ طريق العبقرية التي ترقى إلى أعلى، وطريق المال التي تنحدر إلى أسفل.. ولا يتسنى لك أن تحلق وتتمرغ في آن واحد!»

قلت: «لا أظن أن حيازة المال تجعل الرجل يتمرغ في الأوحال، وما هو إلا وسيلة لغاية، وهو عضد القوى المتململة في الأعماق، حتى إذا ما أزفت الساعة، طارت الروح لتحلق في الأجواء السحيقة»

«أتظن ذلك؟»

وبدأ الوجوم على الأمير، فأشعل سيكاراً ضخماً وقطب جبينه العريض وشخص إلى الأمام ثم استتلى:

«أخالك تجهل أن كل ما يختص بالأرض نهايته الأرض ـ فالذهب من الأرض وإليها يعود ـ أنت تستخرجه من الأرض وتضع منه السبائك والحلي لأنه معدن موطنه هذه الطبقات الترابية. أما العبقرية فلا أحد منا يعرف مصدرها أو مقرها، ولا إلى ما ينتهي أمرها ـ فأنت لا تستطيع استخراجها أو تحويلها، ويتعذر عليك التحكم والتصرف بها، اللهم إلا

التأمل في اتساع نطاقها، وفي آثارها ومعالمها ـ إنها كالريح، وهي شيء علوي لا يرقى إليه أمر دنيوي، ولا يعلق به ريح إليها.. أما المال فهو عروض ملموس في مستوى الأرض، وعندما تظفر بالكثير منه تنحدر، ولا تني تنحدر حتى تستوي في خط واحد مع الأرض، ثم تنطرح متكالباً على وجهك، فيتلطخ جبينك بالتراب، وتبقى حيث أنت مع الرغام والأقذار والمياه الراكدة الآسنة»

فضحكت مقهقهاً وقلت:

«ليت شعري، أبمثل هذا العنف تهاجم المال وأنت أغنى الورى؟ وهل تشعر بالأسف لأنك ثري؟»

«كلا، فأنا لا آسف على شيء واقع لا ينفع فيه تأسف ولا تحسر... بيد أني صارحتك القول حينما أكدت لك أن العبقرية والمال ضدان لا يجتمعان.. ولِمَ نذهب بعيداً؟ لِمَ لا أضرب لك مثلاً بنفسي أنا؟.. فإن شرحت لك بإسهاب مواهبي، فلن تصدق حرفاً من كلامي! كنت عبقرياً ـ منذ زمن بعدي جداً ـ وقبل أن أغدو سيد نفسي!»

وأجبت سريعاً وأنا أحدق في الأسارير التي تشع ذكاء، في الرأس الجميل الرائع، وفي العينين العجيبتين: «ولا مربة أنك لا تزال مالكاً لناصية الكمال الفكري»

وأشرق وجهه بتلك البسمة المذهلة التي تألقت منذ ساعة في عينيه، ولم يعتم أن أجاب:

«أنت تطريني تأدباً ـ فقد فتنتك محاسني كما خلبت سواك من الناس ـ واعلم يا صاح أن المظهر خداع، والسبب في ذلك هو أننا معشر الناس لا

نكاد نجتاز سن الطفولة حتى يطيبنا ما يجعلنا نتكلف ما ليس فينا، وهكذا نتطبع بالرياء، ونصنع من إطار وجوهنا أقنعة لحقيقة طبيعتنا. وهذا يعتبر مهارة نشكر عليها لأننا بالتقنع والتكتم نصد فكر الغير، فيصطدم هذا الفكر بجدار من اللحم والعظم، ويرتد خائباً خاسراً عاجزاً عن سبر أغوارنا...

كل إنسان روح منعزلة مسجونة في كهف نصنعه نحن لها ـ وعندما يختلي المرء إلى نفسه يعرف حقيقة أمره فيحتقر هذه النفس ـ ورب امرئ أخافه هذا الوحش الكامن في أعماقه، المتخفي وراء مظهره الجذاب، وقناعه المموّه، ولا يلبث حين مضه الفكر أن يلجأ إلى الخمر والفسق، لينسى في نشوة الخمر وحمأة الرذيلة كينونة الوحش الرهيب.. وهذا مما أصنعه أنا، وقد لا يتبادر إلى ذهنك أني أهرب من نفسي بإغراقها في المسكر أو بتبديدها إلى ذهنك إني أهرب من نفسي بإغراقها في المسكر أو بتبديدها في الفجور!»

وقاطعته بجزم: «كلا، كلا.. أنت تتهجم على نفسك وتسيء إلى طبيعتك ـ أنت تظلم هذه النفس وتجحف بهذه الطبيعة»

وضحك ضحكة ناعمة عذبة وقال بقلة إكتراث:

«لا أغلو في القول، ولست خيراً من سائر الرجال! وذرنا الآن نرجع إلى موضوعك أنت، موضوع الكتابة والتأليف ـ أنت كتبت كتاباً كما تقول ـ فانشره إذن وانتظر النتائج. ما هو موضوع الكتاب؟ هل هو على طرفي نقيض مع الأخلاق والإيمان؟»

فأجبت بحرارة وحماس:

«كلا، بل عنوان المثالية. إنه قصة تعالج أسمى نواحي الحياة وتبحث

بإفاضة في آمال الإنسان التي لا تسف به إلى الحضيض، بل تعلو ولا تبرح تعلو حتى تصل إلى السماكين.. وقد كتبت قصتي بباعث من الخير، ونشدت من ورائها تنقية أفكار القارئ والسمو بها، والتخفيف عن أولئك الذن منوا بالخسران، أو أصيبوا بالأحزان.»

وابتسم ريمانيز ابتسامة ساحرة وقاطعني بلطف ودماثة:

«هذا خطأ ارتكبته يا صاح، فعملك لا يتفق مع العصر في شيء. وإن شئت بلوغ الشهرة والنجاح في ما تكتب فعليك بالإباحية، عليك بالإساءة قدر طاقتك إلى كل امرأة تتوسم فيها الفضيلة. ثم عليك بمعالجة الأمور الجنسية بصورة مكشوفة والخوض مطنباً في الشهوة المفضوحة أيضاً، كما كنت تخوض في حياة الحيوان ووسائل تناسله! وسترى أن كل امرأة شبت عن الطوق وكل فتاة غريرة قاصرة ستلتهم كلماتك في خلوة لذيذة لها في مخدعها»

وانبعث من عينيه بريق هائل ارتعدت له جزعاً، وألجم لساني فلم أجد كلاماً في جعبتي للرد عليه..

ومضى هو يقول: «وماذا نازعك حتى جنحت إلى تأليف كتاب يبحث في المثل العليا؟ ألا فاعلم أن النزع النبيلة قد غاضت في كوكب الأرض، ولا يبعد أن تكون قد انتقلت إلى دنيا أخرى! فضلاً عن ذلك فالقراء لا يرغبون في التحليق بأفكارهم حينما يطالعون الكتب، وهم إن قرأوا فعلوا ذلك لتزجية الوقت.. وهم يذهبون إلى الكنائس لتنقية الروح، ولكنهم يغادرونها وأدرانهم تلاصقهم وتلاحقهم! فاطرح الخيال جانباً، وتخل عن بطولتك.. ترك هذه البطولة في المكان الذي نفضت فيه عنك فقرك

ومتربتك. وعش حياتك لنفسك، لأنك كلما أسديت معروفاً للغير زاد جحود هذا الغير..»

ونهض من مكانه ووقف معطياً ظهره للموقد. وحدقت في قوامه الممشوق ووجهه الوسيم. وشعرت بالشك، وعكر عليّ هذا الشعور صفوي وسعادتي. وما لبثت أن خاطبته قائلاً:

«لو لم يكن لك مثل هذا المنظر الرائع لما أحجمت عن اتهامك بالقسوة والجمود، إلا أن أمائرك هي نقيض كلماتك. فأنت في الحقيقة لا تمتاز بقلة الإكتراث التي تنتحل، بل إن هيئتك وأسارير وجهك تشي بك وتجهر علانية بأن روحك طيبة لم تستطع قهرها بمظهر خداع مموه. إن روحك تنتصر عليك ولهذا لا تتأخر تعمل خيراً»

وابتسم الأمير وأجاب:

«أنا أتوخى الخير دائماً! أي إنني لا أذخر وسعاً في إشباع رغبات الناس. أما الحكم على أعمالي فأمره صعب، وأما مساعدة كل إنسان على حدة لنيل أوطاره فأمر ربما أضر أكثر مما نفع، فرغبات الرجال لا حدود لها ولا قيود، والشيء الوحيد كما ترى الذي لا يرغبون فيه فهو فصم علاقتهم بي!»

وقاطعته ضاحكاً:

«ومَنِ مِنَ الناس يجفوك بعد أن يعرفك، أو يقلوك بعد أن يحبك؟»

«إلا أن رغباتهم لا تتمشى دوماً مع الفضيلة»

«بيد أنك كما أثق تعارض رذيلتهم!»

«من الخير لنا أن ننهي الحديث حتى لا تتشعب فيه الأمور النظرية. فالإنسان لا يفرق في أحيان كثيرة بين الرذيلة والفضيلة لأن الصفتين تتقاربان أحياناً حتى يتعذر التمييز بينهما.. وأجدر بنا الآن أن نفكر في المكان الذي نقضي بقية ساعات الليل فيه!»

«بيد أني متعب أوثر الرقاد»

واستدعى الأمير خادمه أمبيل، فلما اندفع داخلاً لم يمهلنا حتى قال:

«إنني أعددت للضيف الجناح المواجه لجناح مولاي وسيدي» وتحفزت لمغادرة الأمير، فدنا مني وضغط متودداً على يدي، ثم قال:

«ما أشد ميلي إليك! وتراني مضطراً إلى مصارحتك القول بأنك حرٌّ في الاختيار، فإن كنت نفوراً مني فصارحني بذلك حتى نفترق بسلام قبل أن نعرف من شؤون بعضنا البعض أكثر مما عرفنا. وأعدك أن لا أعترض سبيلك مرة أخرى ما لم تسع إليَّ بنفسك. أما إذا ملت إلي وأحببتني فاقطع لي على نفسك عهداً بأن تكون صديقي ورفيقي لفترة تمتد إلى بضعة شهور. ففي مقدوري خلال هذه الشهور أن أقدمك إلى صفوة الناس، وأن أدنيك من غرة المليحات الفاتنات... قل ـ هل تميل إليَّ أم تنفر، هل تؤثر ملازمتي أم ترغب في مفارقتي؟»

فقلت وأنا أنظر إلى عينيه نظرة إخلاص ومحبة:

«سبق السيف العذل أيها الصديق، فمهما كنت، ومهما اخترت أن تكون، فقد وجدت فيك أعز شخص على قلبي. وأصدقك القول أني محظوظ بمعرفتك مجدود بلقياك. وليس هناك أدنى شك في أن صديقي كارنجتون قد أسدى إليَّ أجل خدمة، وسأفاخر الغير بعلاقتي وصداقتي..

وأنت كما يبدو لي يا صاح، تميل إلى ذم نفسك وثلبها، ولا يسعني إلا أن أذكرك بالقول الشائع ـ ليس في الشيطان إلا سواد صورته!»

«حقاً قلت، فهم يصورون الشيطان في أبشع صورة... فيا للشيطان المسكين! إن أخطاءه يبالغ فيها القسس والكهنة! ونحن الآن أعز صديقين أليس كذلك؟»

«أجل، ولن أكون البادئ في فصم هذا الحلف!»

وحدجني بعينيه متأملاً متفكراً، ثم قال:

«كلمة (حلف) تناسب المقام، فلنعتبر ما بيننا حلفاً. لقد عزمت على الأخذ بيدك في معترك الحياة... وستقع في حبائل الحب، ستحب، وتتلمظ بحلاوة هذا الرحيق السحري»

فأجبت بسرعة وبصدق: «لست أنا! أنا لم ألتقِ بالمرأة الكاملة التي تنقع صدى روحي»

فانفجر ضاحكاً وهو يقول:

«أنت وأيم الحق لا ينقصك شيء من اللباقة والظرف، ولا ترضى بديلاً عن الجمال الرائع، أليس كذلك، على أنك تفتقر إلى كثير من جمال الرجل ولن تستطيع أن تزعم أنك أبولو!»

فقلت معترضاً: «لا دخل لجمالي بمشاعري، فعلى الرجل أن يختار زوجه بعين نقادة بصيرة، وبكيفية كفيلة بإرضاء رغائبه، كما لو كان يختار جواده المفضل أو خمرته الأثيرة ـ الكمال أو لا شيء!»

ولما خلوت إلى نفسي في مخدعي، هتفت وأنا ألوح بقبضتي في الفضاء:

«أي جيوفري تمبست! لقد نلت الدنيا ـ أنت شاب، أنت، موفور الصحة، أنت حسن السمت، قوي، ذكي، وبالإضافة إلى ذلك أنت صاحب خمسة ملايين، وصديق أمير عظيم، فهل تطمع في المزيد؟ هل تطلب شيئاً آخر سوى الشهرة والمجد؟ إن نجمك يعلو ويرتفع.. أيها المحظوظ، لقد جاءك يوم السعد!»

وانطرحت على سريري الوثير وحاولت أن أسلم نفسي إلى النوم، فأغمضت عيني.. وداعب الوسن جفني، وخيل إليَّ أني أسمع قصف الرعد من بعيد. كما أني سمعت أو ظننت أني سمعت صديقي الأمير يصرخ بصوت جهير:

«أميل! أميل!»

وكان صراخه ضارياً، كان أشبه بالعاصفة الغضوب!

وفي لحظة أخرى استويت جالساً وأنا أحملق بعيني في هلع وفزع، لأني رأيت أو حلمت بوجود إنسان أو خيال في غرفتي، وأن هذا الإنسان كان يرمقني بعينين ناريتين متلظيتين

وحدقت في الظلمة الضاربة الجدران، ثم أدرت مفتاح النور فلم يقع طرفي على أحد

وعلى الرغم من اطمئناني إلى خلو حجرتي من الناس، إلا أني ظللت حتى مطلع الفجر أتنبه مذعوراً على أصوات هامسة، وكلمات خافتة يتبادلها رجلان. وفي إحدى المرات وعيت ما قيل، فإذا بأحد الرجلين يقول لرفيقه بصوت فيه لين وفيه شدة:

«دع الأبله ينام مع غروره!»

كنت أسبح في أضغاث! كنت أحلم.. والإنسان معرض للرؤى في الليل، ناهيك برجل قفز به الحظ من الدرك الأسفل إلى قمة المجد، ومن الحضيض إلى الجاه العريض!

5 ـ المورث

حينما نهضت من فراشي في الصباح علمت أن صاحب السمو ـ كما كان الخدم ينادون صديقي ـ غادر الفندق لوحده. ولهذا تناولت طعامي لوحدي ثم نزلت إلى القاعة الكبيرة فجلست إلى مائدة خالية بين مظاهر الاحترام والتقدير التي تفنَّن الجميع في إظهارها رغم رداءة لباسي. ولا عجب، فقد سمعوا بثروتي، وبما آل إليّ من جاه، فانقلبت معهم الأوضاع، وأصبحت بين فتحة عين وغمضتها قبلة الانتظار!

وبينما أتحفز إلى مغادرة الفندق والتوجه إلى المحامي، دخل الأمير، فدهشت لسحره، وأيقنت أني لم أرَ وجهاً مثل وجهه، أو عيناً تمْض مثل عينيه، أو قوة وحيوية مثل قوته وحيويته

وحياني مبتساماً ثم سألني عما أنتويه ليومي

فلما أخبرته بأني أزمع مقابلة المحامي، ناولني خلسة خمسمئة جنيه وهو يقول:

«هذا قدر يسير من المال دبر به أمرك إلى أن تستولي على ثروتك»

وقارنت بين كرم صديقي الجديد وصديقي القديم الموجود في أستراليا، فشعرت بالاشمئزاز من شحّ هذا الأخير وتقتيره!

وفارقته إلى مكتب المحامي، فاستقبلني على الفور مع زميل له. وشرع

الاثنان يشرحان لي كل ما يتعلق بالإرث، فعلمت أن قريبي المتوفى والذي لم أعرفه أو أسمع به من قبل، كان قد رآني طفلاً أحبو فكلف بي وأوصى إليَّ بجميع ما يملك من مال وعقار ورسوم وجواهر..

وعقب المحامي يقول:

«أنت مجدود يا سيدي لأنك غدوت صاحب ملايين، ويمكنك في غضون عشرة أيام أن تصنع بملايينك ما تشاء»

ولما تحفزت للذهاب أردف يقول:

«لا ندحة لي من إماطة اللثام لك عن أمر في غاية الخطورة، فقريبك الراحل كان ذا أطوار شاذة، كان لا يؤمن بالفضيلة، وكان خدناً للرذيلة. ولا ندري وأيم الحق من أين تجمع لديه كل هذا المال.. والذي نعلمه فقط هو أننا خولنا صلاحية رعاية هذا المال الجزيل منذ بضع سنين، وإننا لما أنبئنا بموت صاحبه قيل إن الرجل باع نفسه للشيطان؟»

وقهقهت بصوت صاخب وأجبت:

«هذا سخف لا معتمد عليه، فالمسكين على ما أظن كان يعاني من خلل في التفكير، ولعله عندما جهر بكلماته هذه عنى شيئاً آخر»

فقاطعني الرجل يقول: «كلا، فأنا واثق من أن مورثك تكلم بعد تمعن، وأنه ذكر كلمة (صفقة) أكثر من مرة، وكان يعني بها ما أبرمه بينه وبين الشيطان..»

وقهقهت مرة أخرى وقلت بقلة اكتراث:

«على أننا لا ننسى يا صاح أن الإنسان معرض لشتى الانفعالات التي

تتجاوب كالصدى في قلبه ومخيلته.. أما هذا الهراء فلست أعيره أدنى التفاتة، لأني لا أؤمن بكلمة شيطان»

وقال زميله: «كان قريبك يا سيدي راجح العقل، إلا أنه لم يشك قط في وجود الشيطان، وفي أنه باع له نفسه»

وغادرتهما وأنا لا أزال أضحك...

وفيما أنا أتسكع في طريق الفندق، تقابلت وجهاً لوجه مع صاحب دار النشر الذي رفض كتابي، فابتدرني بقول:

«إلى أين أنت ذاهب يا عزيزي؟ أما زلت تسعى إلى بيع كتابك؟ ألا فاعلم أن المثالية موضوع ممل، فاكتب إن شئت النجاح في أمور أخرى..»

فأجبته وأنا أصعّر له خدي كبراً:

«دعك من الثرثرة فقد عولت على الإنفاق عليه من مالي الخاص»

قال: «ومن أين لك المال؟»

«ولديَّ منه الكثير فقرّ عيناً...»

فصعد الدم إلى وجهه، واتسعت حدقتاه وأجاب في دهشة:

«ظننتك معدماً لا تملك شروى نقير...»

فأجبته بجفاء: «كان هذا في الماضي، أما اليوم...»

ولما رأيت ما شاب ملامحه، استغربت في ضحكة طويلة، جحظت لها عيناه، ثم أشاح عني وكأنه يبغي الفرار. ولكني قبضت على رسغه بيد من حديد وقلت:

«رويدك يا هذا، لا تظنني معتوهاً، بل ثق أني من أرباب الملايين!»

ولكنه أغمض عينيه. وأردفت:

«أقسم لك أني لا أفكه.. كنت ليلة البارحة أبحث عن شيء أتبلغ به، أما الآن فأنا إن أكلت الذهب لا تفنى ثروتي!.. لا تحملق بعينيك كالمأخوذ!»

وقال المسكين باستحذاء:

«رعى اللّه روحي.. أفي حلم أنا؟»

«وأنا الآخر أكاد أكذب نفسي، ألا أن الدنيا مليئة بالأعاجيب، وثق أن هذا الكتاب الذي رفضه الناشرون سيكون كتاب العام.. فكم تطلب من المال لإخراجه في حلة رائعة؟»

«أنا!.. أنا!..»

«أجل أنت.. ولمَ لا؟»

«دعني أفكر، إنها لمفاجأة لم تكن في الحسبان»

«فكر كما تشاء، ولكن حاذر من التأخر، وسأنتظرك غداً»

وهززتُ له رأسي وابتعدت.. ولكنه هرول وهو يهتف:

«الكتاب.. كتابك خير الكتب، ولو لا تمسكك بالشرف والفضيلة، ولو أنت حشوته بحوادث الحب والهيام لبلغت به قمة المجد!»

وتركته بعد أن أعطيته عنواني الجديد في الفندق، وسرت في الطريق وأنا أحلق في أجواء شاسعة من الفكر. وفطنت إلى نفسي ساعة رأيت الناس ترمقني بفضول، فعلمت أني أتيت من الحركات ما استرعى الأنظار!

وقضيت بضع ساعات في شراء ما يلزمني من الملابس، ثم ذهبت إلى خائط شهير فأمرته أن يخيط لي عدداً عظيماً من البذلات. وما لبثت حتى وجهت كتاباً رقيقاً إلى صاحبة المنزل ضمنته أضعاف ما أدين لها به.. وأخيراً قصدت الفندق

واستقبلني رجل على عتبته وأنهى إليّ بأن الأمير ينتظرني في شُقته. فصعدت إليه بسرعة فوجدته يقف قريباً من النافذة ورأيت في يده صندوقاً من الزجاج.

وكان الصندوق آية من آيات الفن الرائع، فلم أملك نفسي معه من التحديث فيه. فلما التفت الأمير نحوي، علت شفتيه ابتسامته المشرقة. ولما سألته عن الصندوق، انفرج فمه عن أسنانه اللؤلؤية

سبحانك ربي! وهبت فأكملت!

سبحانك ربي! أعطيت فأتممت!

أيوجد لهذا الرجل مجارٍ؟

أهو رجل من لحم ودم؟

أم هو شيءٌ آخر؟

6 ـ الأميرة الفاجرة

تقدمت منه فتأملت في الصندوق. وكانت ثقوب الهواء تملؤه من جميع جهاته. ورأيت في باطنه حشرة مجنحة متلألئة تشبه قوس قزح بألوانها المتعددة. وقد أجابني عندما سألته إن كانت على قيد الحياة بقوله:

«إنها حية وتمتاز بالفهم والذكاء. وأنا أقدم لها الغذاء، وهي تعرفني وتألفني، شأنها في ذلك شأن الإنسان المتحضر، وهي فوق هذا ودودة تثق بي ولا تخشاني..»

«وفتح الصندوق، فتلملمت الحشرة في مكانها ثم انبسطت، ثم انكمشت على نفسها، وما عتمت أن تعلقت بإصبعه. ورفع هو يده، وقال: «طيري أيتها الحشرة وعودي ثانية!»

وحلقت الحشرة في الغرفة، ودارت عشرين دورة، وكانت تبدو لي كأنها قطعة رائعة من الياقوت الثمين. وأخذت ألاحقها بنظري مشدوهاً، حتى إذا رجعت إلى الصندوق قال الأمير وهو يرمقني بعين متفرسة:

«هناك قول خالد حكيم؛ هو أننا ونحن في أوج حياتنا نكون في صميم الموت! هذا من وجهة نظر الأحياء، أما الحقيقة التي لا مراء فيها، فهي أننا عندما نكون في صميم الموت نكون منغمسين في الحياة.. وهذه الحشرة هي ثمرة من ثمرات الموت النادرة، وهي ليست وحيدة نوعها، بل في

الوسع التنقيب عن غيرها بنفس الطريقة التي لجأت إليها في العثور عليها. فهل مللت الحديث؟ أم أنت ترغب في سماع القصة؟»

فأجبت متلهفاً:

«بل أنا تواق إلى سماع كلامك، فأتمم بالله عليك»

وفكر الأمير قليلاً واستطرد يقول:

«هذا ما حدث ـ كنت من جملة من شاهد عملية نزع الغطاء عن تابوت مومياء مصرية. وقد وصفتها طلسماتها بأنها أميرة من العائلة المالكة. وكان جيدها مطوقاً بعقد من الماس وجسدها مدثراً بأكفان معطرة. فلما أزيلت اللفائف والأكفان تبين أن بضيع الصدر ما بين الثديين قد تآكل. وجثمت هذه الحشرة مكان اللحم وكانت حية تلمع وتشع!»

وتولتني قشعريرة باردة لدى سماعي هذا الكلام، وما لبث أن قلت:

«إنه لأمر رهيب، ولا أخفي عنك أني لو كنت مكانك لقضيت عليها»

وحدجني الأمير بنظرة ثاقبة وقال متسائلاً:

«ولماذا؟ لماذا تقتل هذه الحشرة المسكينة التي وجدت الحياة في حضن الموت؟ إنها وأيم الحق برهاني الساطع على البقاء ـ إن لها شعوراً وذوقاً، وهي تشتمّ وتتلمس وتسمع وترى. وقد أحرزت هذه الحواس وظفرت بالذكاء من بضيع امرأة ميتة ـ امرأة عاشت وأحبت وأثمت وقاست العذاب لأربعة آلاف سنة ونيف!»

وكفّ عن الحديث لحظة واستغرق يفكر، وما لبث أن استتلى:

«ومهما يكن الأمر فإنها على ما أعتقد مخلوق شرير، ومع ذلك فأنا

أحبها وأؤمن بتقمص الأرواح وتناسخها. إن هذه الحشرة هي الأميرة الفاجرة التي كانت تمالئ الشر وتظاهر الإثم، فلما قضت نحبها احتلت روحها النجسة جسم هذه الحشرة الدنيئة!»

وارتعدت فريضتي هلعاً، وطفقت أنظر إلى الأمير مشدوهاً فاغر الفم، وقلت أخيراً:

«إن عينيها تنطقان بالفهم والذكاء يا صديقي»

فأجاب: «لا ريب أنها كانت ذات عينين رائعتين»

«هي! ومن تعي؟»

«الأميرة المصرية، إن قسماً كبيراً من شخصيتها وملامحها انتقل إلى هذه الحشرة. وهنا ينطوي السر العجيب ـ سر الكون سر الخليقة ـ سر البقاء وعدم الإنحلال!»

وأرجع الأمير صندوقه إلى مكانه ثم تأبط ذراعي وهو يقول ضاحكاً:

«والآن هلم إلى الغداء، وإني لأرى في وجهك ما ينبئني بأنك وفقت هذا الصباح في مسعاك»

ولما جلسنا إلى المائدة وانتصب أميل بوجهه القاتم وراء سيده كعادته، أنشأت أقص على الأمير ما وقع لي في ذلك اليوم وكيف التقيت الناشر المسكين وجبهته بما أثار دهشته وعجبه

وكان الأمير طيلة ذلك يبتسم ويهز رأسه. فلما أتممت كلامي قال:

«لا غبار على تصرفات الرجل، وأخاله من الحكماء العقلاء، وإلا لما تردد في قبول عرضك الجديد. إن تظاهره بالرغبة في دراسة العرض لهو

الدلالة البالغة على مكره وطول باعه. وأعلم أيها الصديق أن ما من إنسان على وجه هذه البسيطة يستطيع الصمود طويلاً في وجه التجربة والإغراء، إننا جميعاً نباع ونشرى، وأنت نفسك تستطيع أن تشتري ملكاً وعرشاً.. ولا شيء في هذه الدنيا يعطى بلا مقابل غير الهواء وأشعة الشمس ـ أما سواهما فلا يستولي عليه إنسان إلا بالمال ـ بالدماء، والدموع ـ وبالآلام أحياناً.. ولكن المال هو كل شيء لدى الإنسان وفي نظره!»

وخيّل إليّ أن أميل المنتصب وراء سيده كان يبتسم طيلة الوقت ابتسامة مفزعة. فنفر قلبي منه نفوراً شديداً، ورأيتني أتحفظ في كل كلمة أنطق بها. بيد أني بهت لهذا الحقد الذي اعتمل في صدري، وأيقنت ألا حيلة لي في كبته وكبحه

ولما انتهينا من الطعام ولذنا بالردهة الكبيرة، تنفست بارتياح كمن أفرج عن مخنقه. وما عتم ريمانيز أن ابتدرني قائلاً:

«لتكن الصراحة شعارنا يا صاح.. أنا صديقك الحميم، وقد بلوت الأحداث وخبرتها، وجابهت الحقائق وتمرست بها.. فلا تكتم عني شيئاً، ماذا تزمع أن تفعل وكيف تود أن تعيش! أو بعبارة أخرى أثر صراحة، كيف تني انفاق مالك؟

فقهقهت ضاحكاً وأجبت:

«لن أشيد كنيسة أو أبني مستشفى، لأن مثل هذه المؤسسات الخيرية، فضلاً عن كونها موطن العدوى والمرض، تفسح المجال لشذاذ الآفاق ولمدعي العلم والمرائين والمنافقين.. فأنا يا عزيزي الأمير مصمم على انفاق مالي على لذّتي ولهوي، وستستجيب لي الحياة طيعة خاضعة»

ولوح ريمانير بيده في الفضاء وبرقت عيناه السوداوان ببريق خاطف، وقال وشفتاه تنفرجان عن ابتسامة وضيئة:

«لكنك تستطيع بثروتك الطائلة أن تخفف آلام أعداد غفيرة من بني البشر»

«لست ميالاً إلى عمل الخير، بل أود من الصميم أن أنهل من ينبوع الحياة، وليكن رأيك بي ما يكون، لتصفني بالأثرة، ولتصفني بالأنانية، فلست أبالي ذلك، لست بالذي يحفل ما يقوله الناس عنه»

فقال وكأنه لم يسمع كلامي:

«في وسعك أيضاً أن تشد أزر أهل القلم الذين كبا بهم الحظ ولها عنهم الزمان»

فقاطعته بلهجة صارمة:

«كلا، كلا.. فهؤلاء الأنذال خذلوني وردوني خائباً قانطاً، إنهم أوسعوني أذية.. وقد حان دوري لكي أبطش بهم، وأذيقهم من الهوان ألواناً وأصنافاً!»

قال: «الانتقام لذيذ ينقع صدى النفس، وإن شئت المزيد منه، فأنشئ مجلة للطبقة العليا من الناس»

«ولِم ذلك؟»

«أولا تعلم السبب؟ فكر بما يجنيه شعورك من رضى وقناعة كلما رفضت نشر مقال قدمه أحد أعدائك! فكر بلذة نفسك ساعة تطرح كتبهم في سلة المهملات، وساعة ترد إليهم قصائدهم وأقاصيصهم وكلماتهم

السياسية بعد أن تمرر عليها قلمك بعبارة ـ مردود مع الشكر، أو لم تبلغ المستوى المطلوب ـ ثم أنك تستطيع بهذه المجلة أن تطعن خصومك طعنات نجل بما توجه إليهم من النقد اللاذع والتجريح والتشهير!»

فنبرت أقول مهتاجاً:

«لا فضَّ فوك! إلا أن إنشاء مجلة، وإدارتها والإشراف عليها، يتطلب جهداً كبيراً، وهذا ما تأباه الآن وتتجنبه طاقتي»

«ومن كلفك بذلك؟ انسد على منوال غيرك من أصحاب المجلات الكبيرة، وعش بعيداً عن مجلتك بعد أن ترسم خيوطها وخطوطها»

«ولكني لن أتوسل بهذه الطريقة في الوقت الحاضر، وأرى أن يقتصر عملي الآن على نشر كتابي والدعاية له وإملائه إملاء على المكتبات والقراء»

«قد تكون مصيباً، لأن لندن تندفع بسرعة مع التيار.. وأن لندن هي الآن أشبه بسادوم وعامورة!»

ووثب بغتة من مكانه وعيناه تقدحان شرراً وأردف بصوت جهير:

«ولماذا لا تصب السماء حممها على هذه المدينة الغاصة بالمخلوقات المستهترة التي لا تستحق عذاب السعير لأنها أحقر من أولئك الخطاة وأولئك العتاة الذين أغلقت دونهم أبواب الجنة؟! أي تمبست إذا كان هناك رجل احتقره أكثر من الآخر فهو رجل هذا العصر ـ الرجل الذي يخفي نقائضه وعيوبه وراء ستار من رجاحة العقل والفضيلة المزعومين.. فمثل هذا الرجل يمجد زلة المرأة باسم الفضيلة لأنه يعلم أنه يشبع شهوته

الحيوانية عن طريق سحق خلقها ونفسها.. وإني أؤثر أن أجهر بإثمي وبفحشي ولا أتمثل بهذا الرجل فأكون جباناً خسيساً»

فقلت: «إنك تختلف عن الناس، فأنت نسيج وحدك»

وضحك بمرارة وأجاب:

«أصبت، فأنا مغاير لسواي.. ولكني خطر، مخيف، أجلب النحس على أصحابي، وأصيب أصدقائي بكل سوء.. إنني أميل إلى الشر ولا أرشد أحداً إلا للشر.. فاحذر.. احذرني.. فكر في كلماتي، واحزم أمرك على شيء»

فقلت وأنا أنظر إليه بإخلاص ومحبة:

«أنت أيها الأمير تهوى النيل من نفسك والحط من شأنك، ولا أخفيك أني متعلق بك ميال إليك.. ولن يتبدل حالي ولو كنت أعتى العتاة!»

فحدق في عيني وأجاب:

«أنت إذن تبارك صداقتنا مهما كانت النتائج؟»

«أجل إني أباركها»

«فعليك ما دام الأمر كذلك أن تتقبل نصحي وجه قلبك وإحساسك نحو الجميلات من النساء لأنهن يملن كل الميل إلى الزنديق!»

«ولكنك لست زنديقاً؟»

«كلا، إلا أن الشيطان جاثم في داخلي!»

«وهذا ما يزيدني تعلقاً بك ـ وإني أتمنى لو احتل الشيطان قلبي أنا أيضاً!»

«هل تؤمن به؟»

«الشيطان؟ كلا!»

«إنه أسطورة مثيرة، وهو موضوع طلي... تصور قصته وهو يسقط من حالق ـ من السماء ـ لوسيفر ابن الصباح ـ ما أعجبه من اسم! وما أروعه من ميلاد! لتنبثق من الصباح معناه الانشقاق عن النور المشبع بألف ألف لون وألف ألف شذى.. ومعناه أيضاً اندماج ضياء مليون كوكب في عيني هذا المولود! لقد وقف هذا الملاك الأسطورة بجميع ما منح من قوة ومجد، وبجميع ما أسبغ عليه من جمال ومهابة ـ وقف ينظر من سامق، وهو يفكر بتفكير الله! ولكنه نظر إلى تحت ـ إلى الدنيا إلى الخلق ـ ورأى مخلوقاً حقيراً قميئاً يتكون ويتجسم ويسمو به خلقه ويستعير من خالقة قوة ومنعة، ويكان أن ينقلب إلى ملاك مثله.. ورفع لوسيفر عينيه بنظرة الناقم المتمرد إلى العزة الإلهية وصاح وهو يجرّق على الأُرّم ـ أتصنع من هذا التاعس ملاكاً؟ إنني أعترض وأحتج، إنني أنذر بأنك إن صنعت منه شيئاً مشابهاً لي في شكلي وتكويني فسأعمد إلى تحطيمه.. سأجعله مسخاً بشعاً قذراً غير قادر على مشاركتي في حكمتك..»

«وأجابه الصوت الرهيب ـ الصوت الذي تعنو له الجباه وتهتز الأكوان، قال: ـ أي لوسيفر يا ابن الصباح! أنت جريء وقاح وكلامك تافه.. إن مخلوقاتي منحت الإرادة والقوة، أما أنت فقد حلت عليك لعنتي! وسأسخطك فأنزلك من عليائك، أنت وزملائك!.. فانزل وابقَ في الدرك حتى ذلك اليوم الذي يفتديك فيه الإنسان؛ وكل إنسان يخضع لتجربتك يكون عقبة جديدة في طريق رجوعك إلى السماء.. وكل إنسان يقوى عليك ويصمد في وجهك يقربك خطوة إلى مأواك الذي أفقدك إياه نزقك وطيشك!.. وعندما تطردك الأرض أصفح عنك وأقبلك في ملكوتي!»

فقلت متعجباً: «ما وعيت مثل هذا من قبل، وفكرة فداء الناس للشيطان جديدة عليَّ»

«إنها الحقيقة بكلام مختلف! والمسكين لوسيفر كتبت عليه المسكنة والمذلة إلى يوم القيامة.. إنه لا يفتأ يبتعد باستمرار عن السماء في كل دقيقة، وساعة، ويوم، لأن الناس لا يعينونه على استرداد ما فقد ـ والإنسان يتهرب من اللّٰه بسرعة ومسرة، ولكنه يتقرب بنفس السرعة إلى الشيطان! فهل يلام لوسيفر الشيطان على مقته للإنسان؟»

فأجبت مبتسماً: «لا تنس الأسطورة، إنه مضطر بمقتضاها أن يحطم الإنسان أن استطاع إلى ذلك سبيلاً، والملائكة متى أقسمت لا تحيد عن قسمها؛ بخلاف الإنسان، فهو يقسم مئة مرة كل يوم باسم الله، ليحنث مئة مرة بقسمه..»

فقاطعته والملل يستحوذ عليّ: «ما لنا ولهذا الحديث يا ريمانيز، إن هذه الأساطير لا معتمد عليها، وأنت كما أثق محدث لبق تجيد سياق السرد، حتى لكأنك تؤمن بكل كلمة ينطق بها لسانك. نحن اليوم لا نثق بالشياطين أو بالملائكة ـ أما أنا فلا أؤمن حتى بوجود الروح!»

قال: «وأنا أغبطك على ذلك لأني مرغم على الاعتقاد بالروح»

«مرغم! هذا لغو ـ فلا أحد يكرهك على تقبل النظرية، إن كانت سخيفة باطلة»

فأجاب متهكماً: «أصبت.. أصبت.. فلا وجود للقوة القاهرة التي تقسر المرء على شيء. والإنسان مخلوق مستقل لا يرعى إلا رغائبه الشخصية.. وما دامك قد ضقت ذرعاً بهذا الحديث، فلننتقل إلى ما يعنيك من أمر

دنياك الجديدة ـ لنتكلم عن المال ـ أنت ترغب في نشر كتابك، وفي جعل الناس كلهم يلهجون بذكره، وهذا مطمع محدود، لأن ثمة مسائل أخرى غير هذه المسألة تكفل لك الشهرة والصيت، كالدعاية.. فأبذل بعض المال تفز بضالتك.. وأنا أعرف رجلاً متمرساً في أفانين الدعاية، وهو قادر على إضفاء هالة من المجد على اسمك إن نزلت له عن مئة جنيه..»

فقلت بلهفة وحماسٍ: «افعل ذلك، أعطه مئتين بدلاً من مئة»

وأثم ريمانيز يقول: «وحينما تبلغ وطرك، ننتقل إلى الخطوة التالية، فنفتح لك أبواب المجتمع على مصاريعها. وهذا يتحقق شيئاً فشيئاً، حتى إذا أصبحت من أصدقاء وليّ العهد، ابتعت لنفسك قصراً في الأرباض، وجعلت منه ملقى الطبقة الراقية.. وسأعمل أيضاً على تمكينك من كسب سباق الدربي، سأكفل لك الجواد الذي يخلف الريح وراءه متى عدا، والفارس الذي لا يبذه فارس آخر في الدنيا متى امتطى صهوة الجواد! وأنت تعلم ما ينطوي عليه فوزك بالسباق من الشهرة التي تطبق الخافقين!»

«أتراك تصنع العجائب؟»

«إنني على كل شيء قدير، ولك أن تكل إلى أيّ ما تشتهي من أمر حالك، ثم انتظر النتائج لتؤمن بقولي وقدري..»

ودخل أميل في تلك اللحظة، فانحنى باحترام ثم قدم إليّ برقية من الناشر، أعرب لي فيها الرجل عن استعداده لطبع الكتاب وإلباسه الحلة اللائقة به وبمؤلفه!»

وابتسمت ابتسامة الظفر وأنا أتلو الرقعة بصوت مرتفع. ولما انتهيت، تساءل ريمانيز قائلاً:

«أو تزمع أن تنيط به ذلك؟»

فترددت هنيهة، ولكني أجبته وأنا أهز رأسي:

«سأفكر في الأمر ثم أبت فيه بعد روية.. إن ساعة الانتقام بسرعة هائلة، ولكنني أرى إن أضطلع بنشر كتابي دون مساعدته»

قال: «أترك لي الأمر يا عزيزي، وثق أنك لن تلبث حتى تعتلي الذروة وتصبح من الأفراد الذين يشار إليهم بالبنان.. سأجعل منك رجلاً ذائع الصيت، سأجعلك نقطة تحول في تاريخ الإنسان، وسأرغم الملائكة، والشياطين، والجان، وبني الإنسان على احترامك وطأطأة رؤوسهم في حضرتك وهم يرددون اسمك مخافة ومهابة.. ويقولون:

ـ أنت عظيم منذ اللحظة...

ـ منذ هذه اللحظة أصبحت من أعظم الناس يا تمبست»



7 ـ كنت إنساناً

كانت الأسابيع الأربعة التالية شبيهة بتمخض الزمان عن أحداث لا عهد لي بمثلها، حتى إني بعد تصرمها كدت أنسى من كنت ـ فأين ذلك الفقر المهين من هذا البذخ؟

وأين تلك المزق والأطمار من هذه الأناقة المشرقة؟ وأين وحدتي القاسية من تهافت القوم عليّ وتنافسهم في خطب ودي؟

على أني أحياناً كنت أرى الماضي في لمحات خاطفة. كان هذا الماضي يلوح لي كرسم زجاجي يدور على ذاته، فتشمئز نفسي وأغمض عيني حتى أبعد عنهما مشاهد الفاقة والبؤس والمذلة، وما شابهها من المشاهد التي دنفتني يومذاك وجعلتني أكره الحياة.

ولكني لم أنكر أبداً أني مع كل ما لاقيت في تلك الأيام المربدة لم يخل شعوري من لذة وقناعة ونشوة.

كنت عنندما أنكبّ على ورقي لأكتب، أنسى الدنيا الشقاء. وكنت عندما أحلق في أجواء الفكر والخيال ابتدع في وسط حياتي المظلمة نوراً يكشف لي تلك الظلمات ويسبغ على آلامي روعة وجلالاً.. كانت أفكاري تخلق من شقائي جمالاً، ومن وحدتي محبة! أما الآن فقدرتي على الخلق استكانت وتخاذلت، ولا شك أن كفي عن العمل أضعف في أعماقي قوة الاستنباط

وانهمكت في طباعة كتابي. فلما أوشك العمل على الانتهاء، أعدت تلاوة الكتاب فاستحوذت عليَّ الدهشة، وعجبت لما كتبته من آيات النبل والشرف، ولم أشك قط في أن الكتاب أنبل من كاتبه!

وحزّ في قلبي هذا الخاطر يومذاك، فألقيت الأوراق من يدي واندفعت إلى النافذة وشخصت إلى الفضاء.. وكان المطر يتساقط مدراراً، والشوارع تغص بالأوحال، والمارة تقطر المياه من ثيابهم ـ كان المنظر كله يبعث على الحزن، ولم يتسنَ لثروتي الضخمة في تلك الفينة أن تبدد من فكري تلك الغشاوة القاتمة التي ملأتني شعوراً بالانقباض والكآبة.

كنت منفرداً بنفسي في جناحي الخاص وكان يشرف على خدمتي رجل ودود مخلص. وارتحت إليه، وزاد ارتياحي يوم أعرب لي عن نفوره واشمئزازه من أمييل. وكنت قد ابتعت عربة فخمة وجياداً مطهمة، واكتريت حوذياً وحاجباً، وأصبحت مستقلاً تماماً عن الأمير، ولو أنه بقي أعز الأصدقاء على الإطلاق

وتساءلت والعجب آخذ مني كل مأخذ عن مبعث حزني بعد أن نلت أكثر مما تاقت إليه نفسي؟ فأنا واسع الثراء، موفور الصحة، بدأ اسمي يلمع في المجتمع لما أضفاه علي صديقي الأمير من آيات مديحه.. وقد طفقت الصحف تشيد بذكري وتنعتني بالمليونير الذائع الصيت. وكان مبلغ مئة جنيه كافياً لإطلاق هذه الألسن من عقالها ـ ففي لندن ترخص الضمائر وتشرى الذمم، ولهذا كثيراً ما يرى الإنسان مخلوقاً تافهاً ينقلب إلى رجل خطير الشأن تلهج الناس بذكره، بينما يقبع رجل نبيه ألمعي في عقر مظلم موحش لأن نفسه الكبيرة أبت أن تسفّ به إلى حضيض الزلفى والرشوة ـ فالكفاءة لم تعد تساوي شيئاً بعد أن طغت المادة على جميع القيم!

لقد كتبت الصحف عني، وأسهبت في الثناء على صفاتي ومناقبي وعبقريتي، وأضافت هذا كله إلى ملاييني فأصبحت أعظم رجل!

ودبج لوسيو أكثر هذه الكلمات، وبعث بها إلى الصحف مصحوبة بالمال المطلوب!

وما لبثت الدعوات حتى انهالت عليّ من كل إنسان له مكانة ومركز. كما تراكمت على مكتبتي رسائل الاستجداء مما اضطرني إلى الاستعانة بسكرتير خاص لتصريف مثل هذه الشؤون، وللرد على الرسائل الكثيرة.

إلا أني لم أمنح المال لأحد، فما من إنسان مدّ إليّ يده بالمساعدة، ما من إنسان أعانني إلا صديقي بوفلز، ولهذا أزمعت أن أكون قاسي القلب عديم الشفقة حتى أنتقم لنفسي مما حاق بي من الهوان.

ورغم ذلك، رغم ما حصلت عليه وحزته لا يمكنني قط أن أقول بأني كنت سعيداً. كان في وسعي أن أمتع النفس بما أشتهيه، ولكني أحسست بقبضة مثلوجة تعصر قلبي وأنا أنظر من النافذة وأتأمل في شآبيب المطر، وأتتبع حركات السابلة، وأتلمظ بالعلقم، فأشعر بمرارته بعد أن كنت أتطلع إلى الغنى وأشعر بحلاوته! لقد انهار واستحال إلى أنفاض جميع ما خيل إليّ أنه مجلبة للهناء والسعادة

لما كنت صفر اليدين منذ أيام كانت أمنيتي الوحيدة أن أخرج إلى الناس بكتاب يحمل اسمي، وها هو الكتاب يوشك أن يخرج إلى الناس، وها آنذا لا أبالي ذلك!

وكنت أتلهف شوقاً إلى قراءة اسمي في أية صحيفة مغمورة، فلما غدا اسمي على كل لسان افتقدت اللهفة، وافتقدت اللذة!

ولما أمطت اللثام لصديقي الأمير في تلك الليلة عن شعوري بالأسى ووصفت له دهشتي من قلة اكتراثي بكتابي ومن اعتقادي بأني يوم كتبته كنت شخصاً آخر غيري الآن

أنصت لي بانتباه، وطفق يتفرس في ملامحي، وما عتم أن أنشأ يقول بصوت كئيب:

«إنك يا صديقي تنسى أموراً وثيقة الصلة بك بصفتك كاتباً، إن ما أريد أن أقول لك هو أنه لكي تكتب بحافظ من الشعور الفياض يتحتم عليك قبل كل شيء أن تكون معتلج الشعور، فأنت عندما ألفت هذا الكتاب كنت إنساناً تقف في مجرى الشعور، وكانت كل خلجة من خلجاتك تخفق بالشعور.. أي أن كل نأمة فيك كانت مرهفة مصقولة حساسة تستجيب لأقل بادرة، وتتأثر بأدنى انفعال، وتتجاوب تجاوباً كلياً مع خيالك. أما الآن وقد انحرفت عن التيار لأنك غدوت في مأمن من الإخطار ونجوت من كل ما كان يحدق بك من المهالك، فقد انصهرت بطبيعة الحال في بوتقة الأمان وبذلك فقدت جزءاً كبيراً من شعورك، أجل لم يعد لديك ما تشعر به، ولهذا فأنت أعجز من تفهم الأسباب التي كانت تضرم نيران الشعور في أعماقك»

«أو تظنني مخلوقاً حقيراً يا لوسيو؟ ألا فاعلم إنك مخطئ لأني مرهف الإحساس!»

فقاطعني بصوت هادئ:

«وبماذا تحسّ؟ ثمة مئات من الرجال والنساء يتضورون من الجوع ـ ثمة مئات يفكرون بالانتحار لأنهم يفتقرون إلى ما يسد الرمق، فهل تشفق

عليهم؟ هل تؤثر أشجانهم على قلبك؟ أنت تعلم أنهم يموتون من البؤس، ومع ذلك فلا تشفق عليهم، لأن إحدى ميزات الغنى هي ما يكتسبه ذو الغنى من المقدرة على اسدال ستار صفيق بين مشاعره وبين بؤس الناس»

وعلمت والغصة تخنقني أنه يقول الصدق، فسارعت أقول وأنا أفز:

«أواه يا لوسيو! أواه! لو علمت البارحة ما علمته الآن»

فحدجني بنظرة مشتعلة وقال:

«البارحة مرت عجلة على جسد طفل صغير عن كثب منا. وكان طفلاً فقيراً فقط ـ فكر بكلمة فقط ـ واندفعت أمه وهي تولول فرأت حطام وليدها.. رأت الكومة الدامية ترفع بفظاظة وترمى في عربة.. فجعلت تضرب بقبضتها وجود الرجال الممسكين بها.. جعلت تصرخ وتمزق ثيابها وتقطع شعورها؛ وما لبثت حتى سقطت على وجهها ميتة.. كانت امرأة فقيرة فقط ـ تذكر جيداً كلمة فقط ـ وبعد عشر دقائق خرجت أنت من الفندق فهرع نحوك الخدم، منكسي الرؤوس، ذليلي النفوس! فما أعظم الفارق! ومع ذلك يقسم بعضهم أننا جميعاً سواسية لا فرق بين مخلوق ومخلوق! فهل حزنت على الطفل وأمه؟ هل فكرت فيهما؟..»

فقلت وأنا أغضي من الخزي:

«وكيف تنتظر مني أن أشعر مع أناس لا أعرفهم؟»

قال: «أصبت! فكيت يشعر إنسان تظلله السعادة ويطمئن كل الاطمئنان إلى قوته وجاهه مع مخلوق بائس يتمرغ في الأوحال؟ فينبغي عليك يا جيوفري إذن أن تحرص على إخراج كتابك لأنه انعكاس صادق لنفسك

إبان ادقاعك، يوم كان الشعور يعتمل جياشاً في صدرك! أنت الآن مصفح بالذهب، والذهب يحميك من كل تأثير خارجي، ولا يجعلك تقفز فزعاً مذعوراً متى وقع طرفك على مأساة مروعة، كما كنت تفعل لو كنت صفر الجيب لا تملك نقيراً»

وخيم علينا مرهق قطعه لوسيو بعد بضع دقائق بقوله:

«أرى أن أصطحبك الليلة إلى مسرح التمثيل لأقدمك إلى نبيل يدعى (إيرل إيلتون). وهو رقيق الحال، يحب الخمر، ويحب ابنته سبيل الجميلة. فعجل الآن بالاستعداد، واحرص على أن يكون لك مظهر الملوك!»

وابتسم، ثم وقف هو يحدق في وجهي.. فشدهني منظره، وأذهلني جماله الأخاذ، وخيل إلي أن ما أراه في سماه هو شيء أعجب من العجب ـ شيء يسمو على كل شيء ـ لا هو من الأرض ولا هو من السماء.. بل هو شيء خارق للطبيعة!

وقلت وأنا لا أبرح أتأمل في أمائره:

«ألا ترى الناس كيف يجحدوك إليّ الأبصار؟ فالناس سواسية في أطماعهم، ولكل منهم مآرب وأوكار، وكل منهم يفكر في شخصه.. أما النساء فهن إذا رنون إليّ ورمقنني، يكن منساقات إلى ذلك بطبعهن وغريزتهنّ»

قلت: «وأنا لا ألومهن على افتتانهن بك. أما الليدي سبيل التي ذكرت اسمها منذ قليل فهل هي الأخرى ترعاك ببصرها وبصيرتها؟»

قال: «لم ترني هذه الحسناء مع إني لمحتها مرة عن كثب. ولا شك أن والدها دعاني إلى مقصورته الليلة لكي أجتمع بكريمته»

«ها، ها! هناك إذن مشروع زواج!»

«هذا ما أعتقده، فالليدي سبيل حسناء للبيع، ووالدها هو التاجر الذي يقبض الثمن.. أما أنا، فما أنا بالمشتري، لأني كما قلت آنفاً أمقت النساء»

«أجاد أنت؟»

«كل الجدّ، فقد ألحقت بي بنات حواء أفدح الضرر لأنهن يعرقلن مساعي.. وبجانب ذلك فهن قادرات على عمل الخير. إنهن يا صديقي أقل شعوراً من الرجال، وعلى ذلك فهن أقسى قلباً.. هن أمهات الجنس البشري، ولكن ذلة من ذلات الإنسان ترتكب بسببهن!»

فسألته مندهشاً: «وهل تطمع في جنس بشري كامل معصوم من الذلل؟ إن هذا محال بل حلم لا يتحقق»

«كل ما في الكون يتسم بالكمال إلا تلك القطعة العجيبة من الخليقة ـ الإنسان! وهل اتفق لك إن فكرت في السبب الذي صير الإنسان مخلوقاً ناقصاً؟»

«كلا، لأنني أتقبل الأمور كما أجدها وتجدني»

«وأنا مثلك.. والآن إلى اللقاء ببعد ساعة على مائدة الطعام»

وغادرني الرجل العجيب، وعلقت أفكر والذهول يستبد بي ويستولي علي، في هذا الخليط المدهش من الحكمة والزهد والشعور الفياض الذي يتدفق في عروقه وتتكون منه شخصية فريدة شاءت الصدف أن توثق ما بيني وبين صاحبها من عرى الألفة والمودة. لقد مرّ علينا شهر، وعلى الرغم مما شجع بيننا من صلات لم أزل في جهل مطبق بحقيقته الغامضة..

ومع ذلك فإن جيله ينمو بإطراد، ولولاه لحرمت من نصف هذه المتعة العارمة التي دانت لي خلال هذا الشهر.

* * *

هذا الرجل الذي تنم كلمته عن قوة وجبروت

هذا الرجل اللطيف القاسي

هذا الرجل الذي يتقبل الحياة كهزأة، ويتقبلني كأضحوكة..

ومع ذلك فأنا أحبه وأعبده!

8 ـ الحورية

ليس للإنسان أن ينسى يوماً تقابل فيه وجهاً لوجه مع الحسن الكامل.. قد يكون رأى لمحات من جمال في العينين أو في الشفتين أو في الجيد. قد يكون بهر طرفه لآلئ شع به محيا صبيح، إلا أنه متى تجمعت تلك الفتن واندمجت وبرزت بأبهى معانيها ومظاهرها، متى تجسد هذا الجمال وأضفى عليه السحر رونقاً له لون الشفق، فإنه لا يملك نفسه من الشعور بدوار في الرأس وعبودية تسترقّ الإرادة والفكر!

رفعت سبيل إيلتون عينيها النحيلتين من ظلال أهدابها وحطمتها بنظرة نافذة على وجهي، وكأنها تعبر بها عن قلة مبالاتها وعدم اكترائها

كان ذلك دلفت مع الأمير ريمانيز إلى مقصورة أبيها في المسرح العظيم

وقد نهض الإيرل ايلتن واقفاً حينما دخلنا، فصافح الأمير ثم صافحني، وكانت مصافحته وترحيبه صادقين، وقد علمت فيما بعد إن صديقي أقرضه ألفاً من الجنيهات منذ يومين!

فلما قدم الرجل ابنته إلى ريمانيز، قال لها الأخير وهو ينحني باحترام:

«وأخيراً نلت هذا الشرف يا سيدتي. ولقد كنت أراك قبلاً كما يرى الإنسان نجماً ساطعاً لا يرقى إليه بصره!»

وافتر ثغرها الجميل عن ابتسامة فاتنة، وأجابت:

«لا أتذكر أني رأيتك قبلاً، ومع ذلك فإني أرى في وجهك شيئاً معروفاً لدي. ولا جرم إن استرسال أبي في التحدث عنك جعلني أبصر بك قبل أن أبصرك!»

قال: «إن مجرد التحدث مع الليدي سبيل سعادة ما بعدها من سعادة، وليصبح الإنسان لها صديقاً هو منهى أمله، بل أن صداقتها مفتاح الجنة!»

وتخضب محياها بحمرة قانئة ـ ثم فرّ اللون من وجهها بغتة، وارتعشت.. فتناول ريمانيز معطفها عن المقعد وألقاه بحركة رائعة على كتفها، وما لبث أن قرب كرسياً منها وقال وهو يومئ إلي:

«اجلس هنا يا جيوفري فلدي ما أتحدث به إلى اللورد إيلتون»

فاحتللت المقعد ممتناً منفعلاً.. وخفق قلبي خفقة الحبور عندما ألقت عليّ نظرة مشجعة أردفتها بقولها:

«أنت إذن جيوفري تمبست الذائع الصيت؟»

فامتلأ قلبي غروراً وأجبت بصوت متهدج:

«أنا هو جيوفري تمبست، إلا أن كتابي لم يصدر بعد، وأخالك قرأت الإعلانات الكثيرة عنه؟»

قالت: «كلا، فأنا لا أقرأ الإعلانات وأعرفك بملايينك فقط!»

وتلاشى غروري في مثل ومضة برق، وحل محله شعور بالتخاذل والخيبة.

واستتلت: «ما أعظم الإنسان يوم يتبوأ الكرسي الذهبي، وخصوصاً متى كان جميل الصورة مثلك!»

وعاد شعوري فارتفع بي إلى جو الآمال فابتسمت وأجبت:

«جميل منك يا سيدتي أن تقولي مثل هذا الكلام»

«إنني أصف حقيقة مشاعري أيها السيد الكريم، فأنت شاب في عنفوان الشباب، ولك ولا جرم أهداف كبار، ومركزك هو مطمع الأبصار، لأنك على نقيض الأغنياء، جميل مهذب لا تنفر منك القلوب.. وأعلم أن الأغنياء هم في العادة منتفخو الأوداج، قصار القامة، بارزو البطون، فارغو العقول. والآن حدثني عن كتابك!»

ومضى الوقت ونحن في شغل عن التمثيل.. وأقبلت الساحرة على حديثي بانتباه حتى ملكت شغافي، وأسرت قلبي..

وغادرنا المقصورة في هزيع متأخر من الليل. ولما همَّ اللورد بركوب عربته، ربت كتفي وهو يقول:

«لا تنس، لا تنس أن تأتي برفقة الأمير لمشاركتنا طعام العشاء يوم الخميس القادم»

فأومأت برأسي شاكراً

وانسابت العربة تحمل أبهى امرأة

ولما احتوتني عربتي مع الأمير، ابتدرني متسائلاً:

«ما رأيك في الحسناء؟»

فلم أجب

ومضى يقول: «ألم تعجب بها؟ إنها هادئة الطبع بل إنها باردة كالثلج. ولكن الثلج كثيراً ما يغطي فوهة البركان»

قلت: «ما أروعها! إنها الفتنة بعينها.. ولا يسع الإنسان إلا أن يرى جمالها ولو كان أعمى لا تبصر عينه!»

فاختلس الأمير إلى نظرة الهر وقال:

«لقد أثرت عليك الليدي سيبيل تأثيراً عظيماً كما أرى»

فسألته: «وهل يرضيك ذلك؟»

«إن ما يرضيك يرضيني يا عزيزي، فأنا أروض نفسي على النحو الذي ينسجم مع طباع أصدقائي. وإن سألتني رأيي، أجبتك بأنه من المؤسف أن تكون قد خضعت للجمال، لأن الطريق إليه معبد لا وعوثة فيه. فأنا أوقن أن الحب الممتع لا يتحقق إلا متى تأكدت طريقه العراقيل ـ هذه هي حال الدنيا ـ دنيانا!»

قلت: «أراك يا لوسيو تسعى دائماً إلى الاستهانة بشأنه هذه الدنيا مع أنها هي المكان الوحيد الذي نعرفه، ونحيا ونموت فيه»

قال: «إن كان الأمر كما تقول، فِلم إذن ينهمك بنو البشر في بذل المحاولات العقيمة لاستكشاف خفايا الأجرام السماوية الأخرى؟ لِم يسعى هؤلاء الناس إلى إماطة اللثام عن أسرار أكوان أكبر وأقوى؟؟ لم لا ينفكون يبحثون عن سر الخليقة؟»

وفكرت في كلامه ونظرت إلى محياه ولم أقل شيئاً

واستطرد: «دعنا من هذا الكلام فهو حديث لا طائل تحته ولا جدوى منه، ولنتحول ثانية إلى الليدي سيبيل؛ إن الطريق إليها كما قلت مثمدة وتستطيع إن شئت أن تستولي عليها بأهون سبيل. فجيوفري تمبست

الكاتب، لا حول له ولا طول، ولكن جيوفري تمبست المليونير أقوى ندّ، وخير قرين لكريمة هذا اللورد العريف. إنه مملق، ولولا تلك المرأة الأميركية التي تشاركه في بيته وتغدق عليه من مالها لما استطاع أن يبقى على مظاهره»

قلت: «من؟ امرأة اميركية؟»

قال: «إن اللورد إيلتون وامرأته العليلة يأويان الآنسة ديانا شسني مقابل ألفين من الجنيهات تدفعها لهما عداً ونقداً. ولكن سيبيل تحتقرها وتأنف من الظهور معها في المجتمعات. بيد أنها تكتم ما يخالجها لعلمها بالضائقة التي تسيطر على والدها، ولعجز والدتها على الإشراف على المنزل كربة بيت»

وافترقنا بعد أن ولجنا قاعة الفندق الكبرى. فقصدت أنا إلى جناحي وكلمات الأمير ريمانيز ترن في أذني، ويتردد صداها في سويدائي:

«نم قرير العين جيوفري، واحلم.. احلم بها.. بسيبيل الفاتنة»

واستولى علي الكرى بعد ساعة فنمت، وسبحت في لجة الأحلام، ورأيت طيفها يأتي إليّ متمهلاً مستأنياً وهو يتلفع بغلالة ناصعة شفافة

وتنبهت من نومي ثلاث مرات في تلك الليلة على صوتها الناعم ينساب برفق لذيذ إلى أعماقي، فيهز بدني هزة الانفعال فتخلج جفوني وتتفتح براعم الحب في قلبي الناضب!

9 ـ نحو المجد

جون مادجيسون، الناشر الذي رضخ بعد رفض، ولانَ بعد تصلب، وأخذ على عاتقه إخراج كتابي بحلة رائعة، كان رجلاً يعرف من أين تؤكل الكتف. وقد مالأته الصحف وخصصت له جانباً من صفحاتها لتقريظ كتبه ومنشوراته

وألممت به زائراً فقال بعد أن حياني واحتفى بي:

«إنني أنتظر الأسبوع القادم بلهفة وشوق. ففيه يرى كتابك النور، وفيه يبزغ نجمك الأدبي. وبما أنك لا تحفل المال فسأكسب مقالاً طويلاً أمتدح فيه الكتاب بشيء من الغموض والتشويق.

سأقول على سبيل المثال ـ إنه كتاب العام وسيخلق جيلاً جديداً من المفكرين، وخليق بكل امرئ أن يقرأه ويستوعبه، ويتفهم اتجاه كاتبه»

وأصغت بصمت لكلماته وأنا أشعر بالغبطة وأفكر في العجائب التي يصنعها المال ـ فها هو ذا رجل لم يعرني التفاتة من قبل، يغدو بين عشية وضحاها آلة طيعة في يميني

واستطرد الرجل: «وقد اتخذت اللازم للإعلان عن كتابك. والطلب عليه حتى الآن محدود، ولكنه سيتزايد في المستقبل، وأعلم أني في البدء سأوزع مئتين وخمسين نسخة فقط من الكتاب وسأعرف كيف أوزع هذه

الكمية. ولن يمضي وقت طويل حتى أعلن في الصحف أن الطبعة الأولى من الكتاب قد نفدت نسختها وأن الطبعة الثانية ستظهر بعد أيام معدودة»

وسألته في لهجة تنم عن عدم موافقتي:

«ألا تظن أن طريقتك مخلة بالشرف؟»

فأجاب وكأنه رجل لحقت به إهانة:

«الشرف؟ وما دخله في عمل تجاري؟ إن هذا المسلك ينهجه الكثيرون في كل يوم. والقراء كما اختبرتهم، يحبون الحيل ولا تغضبهم خدعة يحبكها ناشر أو كاتب. وبعد أن تباع الطبعة الثانية القليلة العدد، نعلن على الأثر عن صدور الطبعة الثالثة، حتى يصبح لدينا سبع طبعات أو أكثر. أما الخطر الوحيد الذي يتهددنا فمصدره كاتب ناقد يدعى ماكونع، عرف بشدة وطأته على الكتّاب الناشئين»

فوعدته أن أشتري صمت الرجل بل أن أغريه بالتشيع لكتابي

ولما اجتمعت إلى ريمانيز بعد ساعة وطلبت رأيه في أحسن وسيلة أكفل بها صداقة الرجل وتأييده، قال ضاحكاً:

«اترك الأمر لي فأنا أدرى من غيري بماكونع، فقد التقيته في سويسرا منذ سنين وعاتبته على مقال أقذع فيه بشتم كاتب كنت من المعجبين به. وانتهزت في أحد الأيام فرصة خلوتي به على صخرة شاهقة الارتفاع فقبضت على رسغه بيد من حديد وجررته إلى حافتها وأنا أقول:

ـ قتلني.. قتلني

«فأجبته وأنا أشدد الضغط عليه:

ـ بل أنت الذي تقتل الأبرياء، وعليك إن أردت الحياة أن تقسم لي بأنك تنصف هذا المسكين بعد أن ظلمته

«وأقسم لي ما كونغ أغلظ الإيمان وهو ينشج بصوت مرتفع»

«فثق إذن إني سأجنبك شره وأرغمه بالاغراء والإرهاب على إضفاء أعظم الصفات على اسمك وكتابك»

وفي مساء تلك الليلة ذهبت معه إلى ناد للقمار كانت تديره امرأة تطلي عينيها بمسحوق عجيب، وتظهر على سيماها دلائل الماضي الملوث

وانتحى بها لوسيو جانباً وبادلها كلاماً هزت المرأة رأسها على أثره والتفتت إليّ مبتسمة ثم قرعت الجرس

وجاء خادم في لباس أسود فانحنى لسيدته ثم قادنا إلى الطباق الأعلى. وكانت الأرض مفروشة بالسجاد الوثير، والأبواب مصنوعة بطريقة تحجب الأصوات

ولما انتهينا إلى باب كبير موصد، طرقه الخادم بطريقة متفق عليها، ففتح الباب وأدخلنا إلى غرفتين لا فاصل بينهما، وقد تلألأت فيها الأنوار الكهربائية وغصتا بعدد كبير من الرجال المتهكمين بلعب الميسر

وجعلنا نتتبع اللعب ونتأمل في اللاعبين. وشاهدت وجوه أشخاص ينتمون إلى طبقة النبلاء، فشدهت كثيراً، بيد أني كتمت ما جاش في صدري وانصرفت بجميع جوارحي إلى مراقبة الحركة الدائبة، ونفسي تراودني على الاشتراك في ما يجري تلقائي..

كنت متأهباً للمقامرة وللخسارة أيضاً، ولكني لم أكن أحسب أي حساب لما سيقع لي ولما سأشترك فيه!

10 ـ الهول

ما كان اللعب ينتهي حتى غادر اللاعبون أمكنتهم وأقبلوا على صديقي مرحبين. وكانوا جميعاً كما رأيت ينظرون إليه نظرة تبجيل ويعتبرونه عضواً خطيراً في ناديهم وشخصاً يستطيع أن يمدهم بالمال متى أعوزهم المال..

وقدمني لوسيو إليهم واحداً واحداً، ولم يفتني ما طرأ على ملامحهم حينما ألموا باسمي

وسألني سائل عما إذا كنت ميالاً إلى مشاركتهم من جديد في لعبهم فأبديت سروري واستعدادي

وكانت المبالغ التي بدأ اللعب بها ضخمة تعرض صاحبها للإفلاس بل للدمار.. ولكنني لم أتوجس خيفة بل مارست اللعب بجرأة وهدوء

وجلس إلى جانبي شاب حسن السمت تدل ملامحه على طيبة محتد. وكان اسمه الفيكونت لينتون. واسترعى الشاب انتباهي لقلة اكتراثه بالمال ولقهقهته المتواصلة كلما تضاعفت خسارته

شرعت ألعب وأنا خلي البال لا أحفل الربح أو الخسارة

وكان لوسيو يجلس مكتوف اليدين لا يلعب، بل ينظر إلي ولا يرفع عينيه عني. وحالفني الحظ فربحت أرباحاً طائلة، واضطرمت مع أرباحي نار حماسي.. وما لبثت حتى شعرت بالرغبة الملحة في أن أفقد ما ربحت،

ولعل بقية مستضعفة من نفسي الغابرة كانت في تلك اللحظة تتصارع مع الشر المترعرع في أعماقي. وأخذتني شفقة عظيمة على هذا الشاب، فهو مصاحب بالخبال وقد جنى عليه القمار فأفقده وعيه وصوابه

وغاضت ضحكته أخيراً، فتقصلت عضلات وجهه ولمعت عيناه كرجل أحرقت بدنه الحمى!

وكان الجميع مثله يخسرون، ولكنهم احتفظوا باتزانهم ولم يظهروا ما أظهره هذا الفتى من التوتر والانفعال. فهم لم يفقدوا الأمل، ولعلهم رجوا أن ينقلب الحظ عليّ فيستردوا ما خسروه. والعجيب في الأمر أني كنت أنا الآخر أدعو في سري إلى تحول أرباحي إليهم. ولكن ذلك لم يتحقق، وتوقف الجميع في النهاية عاجزين مستسلمين، وقال الشاب بصوت مرتفع:

«عليك يا سيد تمبست أن تتيح لي فرصة ثانية لاسترجاع ما كسبته مني»

فانحنيت له وقلت:

«لك ذلك أيها الفيكونت، وسأكون مسروراً لو خسرت ما كسبته الليلة»

ودنا لوسيو من الشاب وابتدره قائلاً:

«ما قولك في شوط آخر معي.. أنا؟..»

وتناولت من جيبه خمسمئة جنيه فوضعها على المائدة واستتلى وعيناه تمضان وتشعان:

«ولنبدأ إن شئت بهذا المبلغ»

وساد المكان صمت وترقب ما لبث الشاب أن قطعه بقوله:

«لا، لن أستطيع الليلة، فقد خسرت جميع ما أملك»

فقال الأمير: «اجلس أيها الفيكونت، ولنلعب من أجل المتعة فقط! فأجازف أنا بمالي وتجازف أنت بشيء إسميّ، حتى ترى أينا يتغلب جده ويتألق نجمه ـ فأنا كما قلت أقامر بمالي، وأنت.. أنت بروحك!»

وضحك الموجودون حتى اهتزت لضحكهم القاعة

وأتم الأمير: «كلنا يعلم من مطالعاته واختباراته أن الروح لا وجود لها، ولهذا فمتى قامرت عليها يا عزيزي، تكون كأنك راهنت على شعرة من رأسك، بل على شيء أتفه من هذه الشعرة، لأن الشعرة لها كيانها، بعكس الروح، فهي لا كيان لها! فهلم.. هلم..»

وحدق الشاب في وجه الأمير فاغر الفم لا يكاد يفهم ما يرمي إليه بكلامه. وما عتم أن هتف بصوت جهير:

«إني أوافق، فلنلعب.. أنت بمالك، وأنا بروحي!»

وربح الأمير، فانتصب واقفاً وهو يقول:

«إنني كسبت الرهان، ولكنك غير مدين لي بشيء على الإطلاق، فقد لعبنا من أجل المتعة كما قلت. أما إذا كان للأرواح وجود، فلا ريب أني سأطلب بروحك؟؟ على أني لا أعلم ماذا أفعل بها!»

وضحك ضحكة لطيفة ناعمة واستتلى:

«هذا هراء! وما أخلقنا بأن ندين بالشكر لما حزناه من تقدم ورقي وتحضر ـ إننا يا سادة نعيش في عصر زالت فيه الخرافات وغلب طابع العقل والإدراك على الحياة! والآن أستودعك اللّه أيها الفيكونت، وسنأتي أنا وصديقي تمبست غداً لاستئناف ما قطعناه»

ومدَّ يده ـ وكانت عيناه تفيضان رقة ودعة.. على أن شيئاً آخر تحدثت به هاتان العينان في بريق خاطف ـ شيئاً عجيباً وجمنا له، وشعرنا شعور من يتعرض لقوة قاهرة لا قبل له على مقاومتها..

وتناول الفيكونت اليد الممدودة فهزها بشدة وهو يقول:

«أنت رائع أيها الصديق! وأؤكد لك أنني لو ملكت روحاً لما ترددت عن بذلها في سبيل الحصول على ألف جنيه. فالروح لا تسوى شيئاً بالنسبة لي، على نقيض الجنيهات الألف. ولكني واثق أني سأربح غداً ما فقدت..»

ورد عليه لوسيو مطمئناً فقال:

«وأنا أجاريك في رأيك، أما بصدد الروح ـ وكف عن الكلام وجعل يتأمل في وجه الشاب ثم استتلى ـ فلا أستطيع الانتظار أفهمت؟ لا أستطيع الاصطبار!»

وافتر ثغر الفيكونت عن ابتسامة عريضة وضيئة، ثم غادر النادي وهو صفر اليدين لا يملك فلساً ولا يحوز درهماً.. ولعله قد غادر المكان بلا روح أيضاً.. لأن الأمير ريمانيز فاز منه بروحه!

وخرجت مع الأمير فمشينا الهوينا في الطريق المؤدية إلى الفندق. وقد قال لي فجأة وهو يضغط على ذراعي:

«أوصيك يا صديقي بالحزم فقد أقرضت هذا الأخرق مبلغاً كبيراً الليلة فلا تتجاوز عن حقك، كما أني جابهته على مسمع من الجميع بأني أصبحت مالكاً لروحه الخاثرة!»

وحانت مني التفاتة فلمحت شبح الفيكونت، فتحفزت للحاق به، ولكن زميلي أمسكني بشدة وهو يقول:

«كلا، لا تسرع إليه، ولنرقبه عن كثب، فهو كما يخيل إليّ ثمل ضيعت الخمرة رشده»

وسمعنا الشاب يصيح على حين غرة صوتاً شديداً، ثم رأيناه يقفز إلى عربة. وما كادت العربة تصل إلى المكان الذي توسطناه، حتى سمعنا طلقة مدوية

فهتف برعب:

«رباه! أقتل نفسه؟»

وكبح الحوذي جماح الجوادين وقفز من مكانه. كما تراكض الناس من المشارب والمقاصف. ودنونا نحن من العربة فإذا بأبصارنا تقع على مشهد مروع ـ رأينا الفيكونت لينتون منطرحاً على متعدد العربة والدم الغزير ينزف من وجهه ورأسه

ولهفت نفسي، وأوشكت أن أفضح أمري وأمر زميلي، بيد أنه زجرني وأرغمني على الابتعاد وهو يقول متجاهلاً تمنعي واعتراضي:

«خبل طارئ.. اليأس من الخسارة.. الشرف المهيض.. الحب الفاشل.. الفراغ المطبق في تفكيره.. الفراغ الناجم عن اعتقاده ببطلان الحياة والله.. كل هذا يقضي بالمرء إلى نوع من الجنون في النهاية، فيقدم على إلحاق العدم بنفسه حتى يصبح هو الآخر هباءً من العدم.. والدنيا امرأة مجنونة يا صديقي»

فقلت وأنا أجهش:

«إنه لمر مريع! منذ ساعة كان حياً قوياً.. والآن أجل يا لوسيو، إنه لأمر مريع!»

قال: «ما هو؟ الموت؟ إنه بهوله لا يقاس بالحياة المنحرفة، وثق أن العقل المريض، والكيان المتداعي، هما أسوأ من كل ما يقال عن أهوال الجحيم»

«ولكني أمقت هذه المآسي، وأعلم أنني سأقاومها جهدي، وسأتنكر لها ولو كنت أملك الدنيا كلها»

وملّى لوسيو نظره في وجهي وأجاب:

«لن يقع لك ما لا تريده نفسك، وأخالك تحملني قسطاً من اللوم لأني جئت بك إلى النادي.. على أنك لم تجئ على كره من نفسك، وأنا لم أقسرك على مرافقتي»

ولما وصلنا الفندق، دعاني إلى تناول كأس من الخمر في جناحه، فلبيت دعوته وجلسنا نرشف الخمرة والسكون مطبق علينا

وتذكرت المأساة، وما جرى بين الأمير والمنتحر، فقلت وأنا أبتسم ابتسامة الحزن:

«أما روحه، روح هذا المعذب الذي تخلص من الموت..»

فقاطعني بسرعة:

«روحه التي لم يؤمن لها، والتي لا تؤمن أنت بوجودها! أراك ترتعش فرقاً، فماذا دهاك؟ ألا تعتقد أن الروح وهم فحسب؟ ولو سلمنا جدلاً بوجود الله والروح والشيطان، لكان هناك ما يبرر خوفك، أما وهذه الأمور بدع للعقول المريضة، فَلِمَ ترتجف وترتعد وكأنك ريشة في مهب الريح؟»

«ولكنك زعمت أنك تؤمن بالروح؟»

«فأنا إذن سقيم العقل والتفكير ـ وضحك بمرارة ـ ألم تكتشف ذلك؟ إن إسرافي في طلب العلم أودى بعقلي! العلم يا صاح قادني إلى هذه المهاوي المظلمة ـ إلى مهاوي الجنون حيث أصبحت أحياناً أؤمن بالروح!»

وتنفست الصعداء من شدة الكرب وقلت:

«إنني متعب، وخير لي أن ألوذ بالفراش»

«أواه أيها المليونير! لشد ما أشعر بالكآبة لما حدث الليلة»

«وأنا كذلك أشعر شعور من بلغت روحه التراقي»

«تصور ـ لو كانت معتقداتي وأنا في ذهول الجنون صادقة، لحق لي أن أطالب بالشيء الوحيد المتبقي من هذا الفيكونت! ولو كنت الشيطان..»

فقاطعته ضاحكاً:

«لضحكت أيها الأمير ضحكة الظفر والانتظار!»

وخطا نحوي خطوتين وألقى يديه بلطف على كتفي وقال:

«كلا يا جيوفري ـ وكان في صوته نغم موسيقي ناعم عذب ـ كلا أيها الصديق! لو كنت الشيطان لما ملكت نفسي من الندب! ـ لأن كل روح خاسرة تذكرني بسقطتي، وبيأسي، وتضع في طريقي إلى السماء عقبة كأداء! تذكر ـ أن الشيطان بالذات كان مرة ملاكاً!»

وابتسمت عيناه ولكن الدمع تخلل نظراته لي.. وصافحته بحرارة، وأنا أظن أن مأساة الشاب أثرت عليه وجلبت الحزن إليه، وتضاعف حبي وتضاعف إعجابي!

وبارحته إلى غرفتي واضطجعت في الفراش بعد أن تضرعت إلى اللّٰه أن يجنبني حياة الضلال

وتنبهت بغتة بعد ساعة أو ساعتين، لا أدري، فإذا بجسدي يختلج في ارتعاشة شديدة، وقد غرق في عرق الخوف، وكان في الغرفة المظلمة شيء مريع يشع ويتوهج وكأنه سحابة من دخان أبيض. فحملقت في هذا الشيء وأنا أشكك في سلامة عقلي. وما عتمت حتى رأيت ثلاثة أشباح متلفعين بأردية سوداء، وملتصقين ببعضهم البعض.. وقد تراقصت فوق رؤوسهم بصورة تأج وتتوهج

وحاولت أن أصرخ، ولكن لساني عصاني، وصوت احتبس في حلقي، ولبث الأشباح الثلاثة في أمكنتهم، وفي وقفتهم، وفي جمودهم المفزع!

ومددت يدي لأقرع الجرس إلا أن صوتاً مريعاً ينضح بالألم والحزن جعلني أسحبها ثانية بعد أن تكمشت أصابعها

هتف الصوت، فخيل إليّ أن المكان كله قال ما قاله:

«واتعساه!»

ولطمت الكلمة الفضاء بصفعة لها صوت صاخب.. وتحرك أحد الثلاثة فبان لي الوجه ـ بان لي وجه أشد بياضاً من الرخام، وقد لاح لي كأنه صورة مجسمة للأسى والعذاب.. فجمد الدم في عروقي

وخرجت من هذا الوجه آهة أشبه بآهة الموت، وخرجت مع الآهة كلمة واحدة ارتعش لها الصمت:

«واتعساه!»

وفي مثل فتحة عين وغمضتها وثبت بوحشية منقطعة النظير وخبطت الهواء بيدي الاثنتين. ومع ذلك، وكما كان ذلك، بقي الثلاثة في مكانهم، وهم ينظرون إلي وأنا أضرب الهواء بقبضتي ـ خلالهم، وبهم، ووراءهم!

ورأيت عيونهم ـ وكانت ترمقني بهزء وشماتة واحتقار ـ تلك العيون الشبيهة بالجمر كانت تحرق جسمي وتلتهم بضيعي وروحي

وتحركت شفتا أحدهم، ودلتني غريزتي على أني أوشك أن أفقد روحي وحياتي ـ أنبأني حسي المجنون أن الشفتين ستنطقان بالكلمة ـ الكلمة المنطوية على الهول، فاستعرت من الضعف قوة وصرخت:

«لا! لا! أريد الحياة، أريد أن أبقى!»

وصارعت الفضاء، وحاولت أن أقهر الأشباح، وأن أبعد الخطر عن روحي. وبصرخة مختنقة في طلب النجدة والغوث، وقعت كما خيل إلي في حفرة مظلمة حيث بقيت غائباً عن الصواب حتى مطلع الفجر

كنت كالميت، وأفقت وكأني بعثت، وفتحت عيني الكليلتين فبهرتهما أشعة الشمس المتدفقة من النافذة. ورأيتني أنام في سريري مجرد حلم؟ أهو ضاغوط أناخ على صدري فملأني ألماً وفزعاً؟ وحولت طرفي إلى المكان الذي وقفت فيه الأشباح الثلاثة. وما عتمت أن هززت رأسي ساخراً ولسان حالي يقول:

«أتخشى الأحلام يا جيوفري؟ وهل بلغ من قلبك الخوف مبلغاً استحلت معه إلى جبان هبيت؟»

والتقيت الأمير بعد ساعة في قاعة الفندق الفسيحة فتجاذبت معه بعض الحديث ثم أخبرني هو عن المزرعة التي سولت لي نفسي أن أبتاعها فقال:

«أخبرت يا صديقي أن مزرعة ويلوسمير الواقعة في وورويكساير مطروحة للبيع، وأنا أعرفها لأني زرتها ورأيتها، وهي أفضل ما نستطيع شراؤه، فالبناء عتيق يملأ القلب روعة والعقل خيالاً، وأرضها سندسية تصلح مثالاً للرسامين، والنهر ينساب حولها برفق، ويخترقها في إحدى نواحيها، وثمنها لا يتجاوز خمسين ألف جنيه»

وأثار وصفه فضولي فأعربت له عن رغبتي في مشاهدتها

وضحك صديقي وقال وهو يربت ذراعي:

«وإنني أحثك على شرائها لسببين ـ أولاً لأنها المكان اللائق النشود، وثانياً لأنك بشرائها تجذب إليك اللورد إيلتون»

«ولم ذلك؟»

«لماذا؟ لأنه كان مالكها في يوم مضى، فلما وقع في مخالب اليهود وتفاقم دينه، تنازل عنها مكرهاً..»

«وإننا الليلة على ما أذكر مدعوان لتناول العشاء على مائدة اللورد إيلتون؟»

«هو ذاك، وكيف لك أن تنسى وشبح الليدي سيبيل يمثل لك في الصحوة والمنام؟»

«لا، لم أنسَ.. أما بصدد المزرعة فسأبرق بتعليماتي إلى المحامي لأني جد تواق إلى اطلاع اللورد إيلتون على ما أنتويه»

وفي مساء ذلك اليوم وبينما خادمي الرشيق منهمك في مساعدتي على ارتداء ثيابي، إذ به يقول بصوت أدنى إلى الهمس:

«المعذرة يا سيدي، لا بد أنك رأيت ما كرهك بأمييل خادم الأمير؟»

«أقرك على استهجان تصرفاته، وأجاريك في نفورك من نظرته ولكني لا أشتم فيه الوقيعة»

«إلا أنه يقوم بأمور عجيبة، فيرقص ويمثل ويغني إبان اجتماعه إلى الخدم، وكأنه فرقة موسيقية كاملة»

«أحقاً تقول؟ إنه إذن بارع في الأداء، فلا تنقم عليه وكن حليماً»

«غير أنه رهيب، فهو إلى جانب هذه الأعمال يمارس التنويم المغناطيسي»

«وكيف؟»

«أجلس إحدى الخادمات على مقعد وأشار نحوها، وأشار، وكشر عن نابه كما يكشر الشيطان.. والخادمة هذه رزينة مؤدبة، إلا أنها سرعان ما وثبت بخفة القرد، وجعلت تقفز وتصرخ وتدور على نفسها كأنها امرأة أصيبت بلوثة، وكان هو طيلة الوقت يشير نحوها بيده. وازداد جنونها جنوناً فحسرت ثوبها عن ساقيها ثم مزقته شر ممزق فبان كل شيء! وحاول بعضنا أن يوقفها عند حدها، لكنها هاجت كالعاصفة وانبعث الشرر من عينيها وكأنهما نافذتان من نوافذ جهنم! حتى إذا ما رن جرس الأمير، وأمسكها أمييل من كتفها وأجلسها ثانية على المقعد، ثم ضرب كفاً على كف فعادت المرأة إلى رشدها ولم تعد تذكر ما جرى لها»

وكف عن الحديث فينة ثم تابع يقول:

«وهي اليوم مصابة بوعكة شديدة، أنها منذهلة وشاردة اللب.. ومما يزيد اللغز ابهاماً أن للأمير ستة من الخدم ـ الطاهي، وحاجبان، وأميل، والحوذي، ومساعد الحوذي. ولا يدخل مطابخ الفندق منهم إلا أميل. أما الطاهي فيرسل الغذاء من مكان ما في أوان ساخنة؛ وأما الحاجبان فهما لا يظهران قط إلا متى أعد الطعام على مائدة الأمير، وهما لا يعيشان في غرفتهما.. ولا أحد يعلم أين توضع العربة والجياد، لا المكان الذي يقطنه الحوذي ومساعده. إنه غموض مريب، فكيف يحيا هؤلاء الرجال؟ وأين؟»

وأصابني شيء من الاضطراب، فقلت محتدماً:

«اعلم يا موريس أن من أقبح العادات البحث عن أسرار الغير؛ فللأمير ملء الحق والحرية في تكييف حياته وحياة خدمه، وما عليك الآن إلا أن تعني بنفسك ولا تحفل سواك من الناس»

وأطلعت الأمير على جانب من حديث موريس ونحن في طريقنا إلى منزل اللورد إيلتون، فضحك طويلاً وأجاب:

«لا أنكر أن أميل غريب الأطوار، إنه ملك الفكاهة، ويعجز أحياناً عن كبح جماح نفسه»

ودخلنا منزل اللورد إيلتون فاستقبلنا مرحباً وقدمنا إلى سيدة أخرى كانت تجلس قريباً من ابنته بقوله:

«ذريني يا شارلوت أقدم إليك صديقي الحميمين ـ الأمير لوسيو ريمانيز، والسيد جيوفري تمبست.. أيها الصديقان أقدم لكما الآنسة شارلوت فتزروي أعز قريبة وصديقة»

وأحنينا رأسينا احتراماً، وهزت السيدة رأسها بكبرياء. كانت آنسة تقدم

بها العمر فأكسبتها السنون نظرة ثاقبة تخالطها ملامح الصدق والورع، إلا أن نظرتها هذه كانت توحي بشيء آخر - شيء بعيد عن الاستقامة.. شيء جرى لها فلم تنسه! وزاد من عمق هذه النظرة التي تشي بنفسها، فمها المنفرج قليلاً وعيناها المستديرتان الباهتتان، وما تنطق به أساريرها من الفضيلة الذليلة

وكل أمرئ ينظر إلى هذه المرأة لا يملك نفسه من التساؤل عما دهمها في ماضيها فقصم ظهرها وحطم عنقها، وترك وراءه آثاراً راسخة لا تبلى

وعلى نقيض هذه المرأة كانت المرأة الأخرى الأصغر سناً التي عرّفنا بها المضيف

فقد قال الايرك: «وهذه هي الآنسة ديانا شسني»

ثم التفت إلى الأمير وعقب يقول:

«ولعلك تعرف أباها، أو لعلك على الأقل سمعت به، فهو الرجل الشهير نيكوديموس شسني أحد ملوك السكة الحديد»

وقال الأمير وهو يبتسم:

«من لم يسمع بهذا الاسم؟ لقد التقيت صاحبه في مناسبات كثيرة؛ إنه من أقرب الناس إلى القلوب، وهو موهوب، وله القدرة على استرعاء الانتباه متى جد في القول أو هزل»

وانبرت الحسناء تقول:

«أبي أعجوبة! بل هو مزيج من بائع التذاكر وموظف الضريبة! وأصدقك القول أيها الأمير إني كلما رأيت أبي شعرت بالميل إلى

السفر ـ فكلمة القطار منطبعة في وجهه ويديه.. وقد أخبرته ذلك مراراً، ولكنه ضحك تكراراً!»

وجلسنا في مقاعدنا وطفقت ديانا نظرات الإعجاب إلى وجه صديقي وقامته. وكانت ديانا من أجمل النساء. كانت أميركية خبيرة بما تنطوي عليه القلوب. كانت قادرة على توجيه فكر الرجل إلى نفسها وشخصها دون إثارة عاطفته.

والتفتت نحوي بغتة وابتدرتني تقول:

«فأنت إذن هو جيوفري تمبست الذائع الصيت، أنت صاحب الملايين، ولكنك يافع ولن تبكي أسفاً وحسرة على شباب ذابل، كما بكت تلك المرأة الطاعنة في السن، التي ورثت مليون جنيه، فانتحبت وأعولت لأن المال جاءها وهي في أرذل العمر!»

وقال الأمير وهو يحدجها بنظرة ساحرة:

«المال وسيلة لغاية الحياة، إلا أن الدنيا كثيراً ما تدين بالطاعة لشخص ما، وأنت تعلمين صدق قولي يا عزيزتي»

فأجابته وكأنها لا تفهم مقاله:

«أنت تطريني بكلمات عذبة، ولكني يا سيدي لا أحفل الإطراء، كما أني لا أحفل المال ـ فكثرة المال تورث الملل»

قال: «أصبت»

وغامت عيناه وكأنه يحلق بخياله في أجواء لا نهائية

واستتلى: «ما هو المال؟ إن الدنيا تدين لك أيتها الحسناء ـ ولكن،

أي دنيا هذه؟ رغام، حطام.. والغنى مرآة تنعكس فيها طبيعة الإنسان في أبشع وأسوأ صورها.. والرجال يحومون حولك ويكذبون ينافقون لينالوك وليبلغوا وطرهم منك! المال.. أمراء وملوك يخطبون ودك ليظفروا ببعض مالك ـ قد تكونين بلهاء خرقاء تتكلمين كمعتوه، وتضحكين كضبع، ولكن متى حل الأصفر الرنان في جيبك لا تلبثين حتى تجدي نفسك على مائدة الملكة.. وعكس ذلك إذا كنت شجاعة عظيمة صابرة عبقرية، وكانت أفكارك خالدة تدوم وتقوى على الدهر بينما تزول الممالك وتتلاشى، لكنك فقيرة معدمة، فإنك لن تنالي من الناس احتراماً أو تقديراً.. إنني حزين أيتها الغادة، إن البريق الخلب يملأ قلبي أسىً.. إن أصدقائي أكثر من أن يحصى عددهم، وهم لا يحفلون شخصي بل مالي؛ إنهم لا يبلون بصحتي وبسعادتي.. إن آمالهم مركزة على شيء واحد ـ على ثروتي وجاهي ـ وهم يبذلون وسعهم للحصول على أكبر قدر من هذا المال..»

واهتز صوته وارتعش، وشابه نغم حزين. وشدهنا جميعاً وشخصنا إليه وقد ألجمت ألسنتنا واتسعت حدقات عيوننا، وكان السحر المنبثق من مقلتيه ومن صوته، كبلنا بقيود وثيقة لا انفكاك منها

ودلفت إلى القاعة في تلك الأثناء المرأة البارعة الجمال التي استولت على لبي ومهجتي.. وخلت سيبيل ابنة الإيرل، فخفق قلبي خفقة الحب والولاء، وعلقت أنظر إلى وجهها الرائع وثوبها الناصع وبودي لو اندفعت نحوها وجثوت أمامها وأعربت لها عن شدة هيامي وعظيم تدلهي

كانت الرقة مجسمة في محياها وجسدها، وكانت الكبرياء النبيلة تتألق وتشع في تقاطيع وجهها. ومع ذلك كان في وجهها أيضاً شيء جعلني أتردد وأشعر بالخوف ـ وحقرت ثروتي العظيمة في نظري في تلك الفينة

وأحنت الحورية رأسها بخفر ودلال وقالت توجه حديثها إليّ وترسل نظرتها إلى وجه الأمير صديقي:

«إنني حزينة اليوم فقد قضى أحد الأصدقاء نحبه ليلة البارحة، مات منتحراً؟»

فندّت من صدري آهة مكتومة، إلا أن الأمير صوب إليّ نظرة محذرة زاجرة، فتجلدت وكبحت جماحي

واستتلت سيبيل: «والقتيل هو الفيكونت لنتون وقد كان مخطوباً لفتاة عزيزة على قلبي، إلا أني كنت خائفة عليها من هذه العلاقة، لما عرف عن الخطيب من التهور والتطرف»

ورفعت لحظها إلى وجه لوسيو، بيد أنه لم يبادلها النظر، فتحولت بعينيها إليّ وتخضب وجهها على التوّ.. فلماذا رأت يا ترى؟.. ثم فرّ اللون من وجهها بغتة، ففرقت وذعرت.. وأنقذ الموقف صوت الحاجب يعلن حلول ساعة العشاء؛ فنهضنا جميعاً، وتقدمنا الأمير مع شارلوت، وتبعته أنا مع فاتنة لبي وشاغفة قلبي، ومشى اللورد المضيف في المؤخرة وعن يمينه ديانا

* * *

مضت الدقائق مملة، ولكن شراب الشمبانيا أضرم نار القلوب، فعلقنا نتجاذب أطراف الحديث. وأضفى الأمير لوسيو على القاعة من سحره ما جعل الجميع يرنون إليه متعجبين معجبين.

وبذلت وسعي لاسترعي اهتمام سيبيل بحديثي الممتع ولكن ألفيتها

كسائر نساء طبقتها، لا تعنى كثيراً بالاضفاء. كانت جامدة الطبع يشق على الإنسان مهما كان لبقاً متمرساً في فنون الحديث أن يستحوذ على تفكيرها وانتباهها

كانت تسبح من أجواء الخيال وكأنها تبعد عني في كل دقيقة. بيد أن ملاحظاتها العابرة وشت بغريزتها المتهكمة، وبشيء من الاحتقار الذي تضمه بين جوانحها للرجال. ولكن هذا الذي بدا منها وبدر من تصرفاتها زادني إصراراً على المضي في طريقي حتى أبلغ وطري، فأذل هذه الكبرياء، وأحطم شيئاً من غطرسة هذه الروح المتعالية، وذلك بإرغامها ولو بالإغراء على الزواج مني ـ أنا المليونير ـ العبقري! العبقري؟ أجل.. وليساعدني اللّه ـ فقد حكمت على نفسي بالعبقرية.. فيا لسخفي!

وعجرفتي.. عجرفتي المسرفة ثارت بكل قوتها في تلك الوهلة.. فأيقنت أن ملك يميني الشهرة والمجد والجمال ـ أيقنت أني لا محالة حائز بالمال على ما أشتهيته ـ أجل وأستطيع أيضاً أن أبتاع الحب

مالأتني نفسي على الشروع في إثبات هذه الحقيقة فالتفت إلى اللورد وابتدرته بقولي:

«اعتقد أنك يا سيدي كنت من قبل تقطن مزرعة ويلوسمير؟»

فصعد الدم إلى وجه اللورد، وابتلع جرعة كبيرة من خمرة ثم أجاب بلسان متلعثم:

«نعم ـ كنت مقيماً فيها لبعض الوقت.. والإقامة هناك تضطرك إلى استخدام جيش من الخدم»

«فهززت رأسي موافقاً وقلت: «أصبت، وأراني غير عابئ كغيري بالنفقات، ولهذا قررت ابتياع المزرعة»

فامتقع وجه الليدي سيبيل واختطف لون أبيها وقال وهو جاحظ العينين: «أنت؟ أتود أنت أن تبتاع ويلوسمير؟»

قلت: «وقد أبرقت إلى محامي بالتعليمات اللازمة لتحقيق هذه الغاية»

وقال اللورد: «وأعلم أن سيبيل قد ولدت هناك وترعرعت في حضن الطبيعة التي تتجلى بأبدع صورها ومعانيها في تلك البقعة المخضرة المخضّلة»

واستدرت إلى سيبيل وقلت باسماً: «وهذه آية أخرى من السحر الذي يحثني على اقتناء المزرعة.. فهل تحتفظين بالذكرى؟ هل تضمين في جوانحك ذكريات طفولتك في وسط جنة من الغابات والغدران والمروج السندسية؟»

فقالت بلهفة: «أجل، أجل!»

واهتز صوتها، واختلجت أهدابها، واستتلت بعد قليل:

«ليس في الدنيا مكان أحب على قلبي من ويلوسمير، فقد قضيت فيها أعذب الأوقات، فهي مرتع طفولتي، وموئلي أمالي، وموطن أحلامي.. كنت أظفر في أرجائها مبتهجة، وكنت أقتطف الورد والريحان فأزين به شعري وصدري.. وكان الجو السحري يدخل في روعي أني ملكة في مملكة الأساطير!»

وقاطعها لوسيو فجأة: «أنت حقاً ملكة ـ كنت وستبقين..»

وافتر ثغرها وبرقت عيناها، ولكنها كتمت انفعالها وتابعت تقول:

«أظن الأمر لا يعدو خيال طفلة، بيد أني تعلقت بالمكان الحبيب ولا أزال أحبه.. وأن أنس لا أنس طفلة من عمري كانت تلعب هي الأخرى في المروج المجاورة، وقد سعيت إليها مرة، ولكن مربيتي زجرتني ومنعتني متوسلة إلى ذلك بالفارق بين الأسرتين..»

ومطت الحسناء شفتيها استهزاءً واستهجاناً وأتمت:

«وكانت الطفلة من عائلة طيبة رغم ذلك، كان أبوها عالماً وأديباً، مات وهي صغيرة فتبناها طبيب الأسرة، وهي الآن ـ هذه التي نهوني عن الاختلاط بها، هي مافيز كلير!»

وصمتت، وتطلعت إليها العيون، ولم أفهم شيئاً، وابتدرني لوسيو يقول: «أولا تعرف مافيز؟»

ففكرت فينة ثم أجبت: «سمعت الاسم على الأرجح، فهل هي كاتبة أدب؟ إني والحق يقال لا أقيم وزناً لامرأة تمتهن التأليف، فالنساء أبعد ما يكن عن الفن..»

وقالت سيبيل بصوت لا يخلو من حدة: «هي عبقرية وستسمع باسمها كثيراً أيها السيد، وأكثر ما أتحسر عليه هو رضوخي لمربيتي وصدوعي بأمرها يوم درأتني عن الفتاة الطيبة.. قالت لي إنها أقل مني، فهل هي أقل؟ كلا.. كلا.. بل إنها الآن في الطبقات العليا، أنها في الذروة، وهي تعيش في بيت جميل في ضواحي ويلوسمير، عيشة فيلسوف قانع»

وملأت قلبي الغيرة، فقلت وأنا أحاول التقليل بكلامي من شأنها: «وماذا ترى كتبت؟»

فقال لوسيو: «كتاباً واحداً، فقط، كتاباً واحدا، إلا أنه نسيج وحده في آراءه وأفكاره وأهدافه.. إنه كتاب يعيش مع الدهر، وآمل أن يكون لك انتاج يقوى على الحياة يا تمبست»

وكان اللورد إيلتون في تلك الأثناء غارقاً في تأملاته، ولعله كان يفكر في ويلوسمير، وفي عزمي على شرائها.. فلما سكن الحديث بعض الشيء، رفع رأسه وقال وهو يحدجني متفرساً:

«أكتبت قصة؟ وماذا دهاك حتى تفعل؟»

فعجبت منه، وتولتني دهشة شديدة ـ فأين كان طيلة الساعة المنصرمة؟ ألم يسمع حديثنا، ألم يعِ ما قلناه؟

وعجل لوسيو يقول: «إن تمبست أيها اللورد يسعى وراء الشهرة»

والتفت الشيخ نحوي وقال: «ولكن الشهرة طوع يمينك ورهن إشارتك»

وأجاب لوسيو بلهجة مشوبة بالتهكم:

«لا أيها اللورد الطيب، هذا لا يقنع صديقي الملهم، فهو لا يحفل مركزه الرفيع، بل يصبو إلى تبوء قمة المجد.. أنه يصبو إلى بلوغ مراتب العباقرة.. هو يهفو إلى التغلغل في جوهر الفكر وإلى سبر غور الشعر والوحي حتى يلمس بلوذعيته قلب الإنسانية النابض ـ هو يختلف عن الأغنياء في أنه يرغب في دمج شهرته كغني بشهرته كعبقري»

ورنت إليّ سيبيل بنظرة يتجلى فيها الشك وقالت:

«أخشى أن تخفق في ما تطلبه، لأن المجتمع قاسٍ لا يرحم، ولأنه لن يعتم حتى يستغرق وقتك وتفكيرك»

ودخل الخادم في تلك الدقيقة، فاقترب من اللورد وهمس في أذنه بضع كلمات، جعلت الشيخ يقطب على أثرها. ولكنه ابتسم وهو يخاطب قريبته شارلوت قائلاً:

«تود الليدي زوجي أن تقدم إلينا، فالرجاء أن تهرعي إليها لتتأكدي من أن كل شيء معدٍ لها..»

ولما نهضت شارلوت، استتلى:

«زوجي عليلة لا تستطيع الاجتماع إلينا إلا في القليل النادر، إلا أنها تشعر الليلة بالنشاط، ولهذا قررت المجيء وقضاء بعض الوقت معنا. إنها تعجز عن الكلام، ولكنها تسمع وترى جيداً»

وأكفهر وجه سيبيل، ونظرت إلى أبيها ثم إلى شارلوت، ولم تلبث حتى انتصبت هي الأخرى واقفة، فسقطت منها زهرة الريحان، فالتقطتها عن الأرض، وقلت بصوت خفيض:

«أتسمحين لي بالاحتفاظ بها؟ هل تسمحين؟»

فترددت هنيهة ونظرت إلى عيني بابتسامة واعية وأجابت: «لك ذلك!»

واحتبت هامتي ومشيت معها إلى الباب وأنا أضم الزهرة إلى صدري

فما أروع الحسناء!

ما أجمل الغادة الهيفاء!

إنها ملاك...

ولكنها ملاك مخيف...

هذا ما قرأته في مقلتيها.. وفي شفتيها.. وفي فمها..

11 ـ الفنان العظيم

ما كان اللورد إيلتون يطمئن إلى الانفراد بي وبصديقي الأمير حتى تخلى عن كل تحفظ وجعل يتقرب إلينا بالزلفى والمداهنة، وقد داخل حسّي أنه لن يتردد عن بيع ابنته لي لو عرضت عليه مئة ألف من الجنيهات!

ولكني كنت أطمع منها بأكثر من خضوع امرأة لرجل، كنت أطمع في الاستيلاء على قلبها ثم على جسدها. وهنا تنعكس الأضواء بشدة هائلة على إحدى نعم الفقر التي لا يفطن إليها الفقراء ـ فالرجل الفقير متى استولى على شغاف امرأة يعلم جيداً أن حبها حب حقيقي لا مراء فيه ولا تملق. وعلى عكسه الغني، فهو لا يستطيع أبداً أن يكون واثقاً من حب امرأة، بل هو لا يستطيع أن يتأكد من صداقة أحبائه وذويه

فالمليونير يتزوج المرأة التي يشاء، المليونير يضفي على امرأته الرائعة الجمال من ماله ما يحيلها إلى حلية ضخمة، إلا أنه لن يصل إلى أعماق روحها، لن يسبر غور نفسها، لن يطلع على مكنون صدرها

بيد أني كنت غارقاً في تلك الأيام بلجة طاغية من الغرور، كنت حديث عهد بالجاه فلم ألقَ بالاً إلى هذه الاعتبارات

واستمر الحديث سجالاً بيننا، وحرصت أشد الحرص على إحاطة المضيف العريق بكلمات التعظيم والتبجيل، ثم طغى علي شيطاني

فجعلت أغمزه بكلامي، ولكنه صبر صبراً جميلاً على ما تعمدته في توجيه الإهانة إليه

وساعدني الأمير في ذلك، حتى أن هذا اللورد الذي يرجع نسبه إلى مئات السنين كان على أتم الأهبة للزحف على قدميه إن أنا طالبته بذلك

ولما خرجنا إلى قاعة الاستقبال ألفيت أمامي هيكل امرأة مستلقية على أريكة ذات عجلات، فلم أشك قط في أنها زوجة اللورد الحطيمة

وارتعدت فريصتي، فقد خيل إلي أني أرى جثة في كفن...

ولما استدارات بوجهها نحونا أدهشتني مسحة الجمال التي لم تفارق هذه الأسارير الشاحبة.. وكانت عيناها كبيرتين صافيتين لامعتين. وقدمتنا ابنتها إليها؛ وكانت المستضيفة تهز رأسها بابتسامة باهتة.

وحدقت المرأة المشلولة بي، ثم تحولت بناظريها إلى صديقي، ولم تلبث أن أشارت بيدها نحوه وتمتمت:

«ومن هذا؟»

فأجابتها سيبيل برقة: «عجباً يا أماه! ألم أقل لك من يكون؟ إنه الأمير لوسيو ريمانيز صديق أبي الحميم»

ولكن المرأة المشولة أبقت يدها ممدودة نحو لوسيو وهي تقول: «ليأت إلي، ليدنو مني!»

واستدار الأمير نحوها، ثم اقترب منها فطبع على يدها قبلة رقيقة مهذبة، قالت له المرأة على أثرها:

«لم أر وجهك من قبل؟ ألم أجتمع إليك؟»

فأجاب بلهجة عذبة: «أصبت يا سيدتي، ولعلي منذ سنين طويلة اجتمعت في شبه حلم بربة السحر والجمال هيلين فتزروي قبل أن تصبح كونتس إيلتون!»

وكنت لو صح الخيال طفلاً في ذلك الوقت!»

«كلا.. فأنت لا تزالين صغيرة، وأنا كبير.. كبير أكثر مما تتصورين»

وقالت سيبيل ضاحكة: «وكم تبلغ من العمر أيها الأمير؟»

فابتسم لها ابتسامته الحلوة وأجاب: «لا أجرؤ على إماطة اللثام عن السرّ، إلا أني عندما أحصي سنين العمر، أحصيها بعمل الفكر ولا أشعر أكثر مما أحصيها بمرور السنين، ولهذا فلا تعجبي متى قلت لك أني أشعر بالشيخوخة، وأني قديم قدم الأرض!»

وابتعد ببطء عن الأريكة، واقتعد كرسي البيانو، وجعل يفكر، وجعلنا جميعاً نحدق في رأسه الجميلة التي تنبئ عن كريم محتد، وعن نوع أرقى من أي نوع آخر ـ عن إنسان لا تطال مرتبته الناس!

ومرر أنامله على أصابع البيانو، وتصاعد لحن عجيب من بين هذه الأنامل.. واصخنا كلنا، وتطلعت أنا إليه مفتوناً، ونظرت سيبيل بعينين ساكنتين لا تطرف لهما أهداف، واصفر وجهها، وجعلت تعبث بيديها.. بينما انبعث من أمائر المرأة العليلة مزيج عجيب من مشاعر الألم واللذة وتصاعدت الألحان متتابعة في سرعة وانسجام وكأنها خيوط الأشعة تتسرب بانتظام خلال أوراق الأشجار الخضر.. كانت ألحانه تغني من تلقاء نفسها بصوت الملائكة، وكانت ألحانه تسقسق سقسقة العصافير.. وكانت هذه الألحان أيضاً تعربد مرغية مزبدة وكأنها عملاء الشرّ تدعو بالويل والثبور..

وصمتنا كلنا وكأن على رؤوسنا الطير، وخيل إلي أني أرى جبالاً من الصخر تنفجر تباعاً ثم تلتهب وتمخر العباب كأنها جزائر من نار تجوب مجار النار.. وشعرت شعور من فقد الحجى، وأيقنت أني إن لم أتحرك، وأتكلم، وأناشد الأمير أن يطفّ، فسيصيبني جنون مطبق بردي بعقلي وحياتي!

وكأن الأمير صديقي قد فطن إلى ما خالجني فأخرج من بين يديه لحناً طويلاً صارخاً مسترسلاً، ثم رفع يده، والتفت إلينا

وقالت سيبيل: «ما هذا؟ لا أصدق سمعي.. ماهذا الموسيقى أيها الأمير؟»

وقلت أنا: «أنت أعظم عازف أوجده الفن، إلا أن موسيقاك تلهم الإنسان أن..»

ثم دنوت منه وهمست: «أن يرتكب الجريمة... لقد أثرت في الشر والأفكار الشريرة، وإني لخجول لما وهمني، وأتساءل لم تثير هذه الموسيقى البديعة عناصر الشر الخفية؟»

وتبسم الأمير، وبرقت عيناه بريق النجوم الساطعة في الدجنة وأجابني:

«إن الفن يستمد ألوانه من الذهن أيها الصديق ـ ومتى اكتشفت الإيحاء بالشر في ألحاني، فأخشى أن يكون مكمن هذا الشر في طبيعتك وخلتك!»

وعقب مسرعاً: «أو في سجيتك أنت!»

فوافقني يبرود قائلاً: «أو في سجيتي، فما أكثر ما اخبرتك أني لست قديساً»

وتلملمت في وقفتي، وترددت، ونظرت إليه ملياً، فخيل إليّ أني أبصر أمامي الجمال الفريد الكريه، ولم أدر مصدر هذا المقت الشديد الذي ألمّ بي على حين غرة.. ولكن شعور الشك والحقد ما عتم أن تسرب، الذي لا أستطيع إنكاره هو أن موسيقاك كادت لولا بقية متبقية من إرادة أن تفقدني الصواب، فانا لم أسمع لها مثيلاً من قبل»

قالت سيبيل وهي ترنو إليه بعين فاتنة: «وأنا الأخرى أصدقك القول، لم أسمع مثلها من قبل، بل إنها أخافتني يا صديقي الأمير»

قال: «فاغفري لي إذن يا سيدتي، فأنا أجهل أصول الألحان»

قالت: «أنت!ماذا تقول؟ بل أنت أعظم فنان.. أنت بالإضافة إلى ذلك شاعر عبقري!»

وقال أبوها متحمساً: «بل أنت أعجب إنسان! أفلم أسمعك يوماً ترفع عقيرتك بالغناء فتشده المصغين، وتأسر ألبابهم؟»

واقتربت الآنسة شمسني منه وقالت: «إن ربة البيت ترجوك أن تغني لها صوتاً، فهي الأخرى سمعتك وسمعت عنك!»

فطاطأ الأمير رأسه خجلاً، ثم تمتم وهو يبتسم: «سأصدع بأمر المضيفة النبيلة، ولو كان ذلك ممضاً لكم أجمعين!»

وجلس إلى البيانو مرة ثانية، ومرر أنامله على الأصابع العاجية، فامتلأ جو القاعة باللحن العجيب، بل حريّ بنا أن نقول إن جو القاعة تضوع برائحة المسك والطيب

وشخصنا كلنا إليه، وارتفع الصوت الرائع ـ صوت الأمير يغني ـ ارتفع الصوت الساحر كأعذب مايكون، وكأجمل ما يكون:

نم يا حبيبي، نم!

واصبر،فسنكتم سرنا ونبقيه

طيّ الخفاء، تحت غطاء اللحد

فليس هناك من مكان آخر

في الأرض والهواء، لحبنا

أو ليأسنا وقنوطنا!

أما جهنم والسماء

فلن تحاولا الظفر بروحينا

اللتين تسبحان بخطيئتهما

نم يا حبيبي، نم!

فلو جسنا طعم الشهد

وإذا كانت خطيئة الجسد

اللعنة التي تلحق بنا

فمن الملوم غير الآلهة

التي سقتنا الهوى بكأس مترعة؟

من الملوم غير الآلهة التي

جرعتنا الصاب حتى الموت؟

وانقطع عن الغناء وتكلم... قال:

«الحب والموت هما أيسر مافي الكون.. إن أغنيتي عنوانها أغنية الحب الأخير وهي كلمات عاشق تلفظ بها قبل أن يقضي على حبيبته وعلى نفسه. وهذه المآسي تحدث كل يوم بل كل ساعة؟»

وقاطعه صوت ثاقب يقول: «ومن أين تعلمت هذه الأغنية؟»

* * *

كان الصوت صوت ربة الدار المشلولة، وكانت قد تمكنت من رفع نفسها قليلاً، إلا أن وجهها كان ينم عن رعب قاتل.

وهرع زوجها إليها ـ أما الأمير فإنه نهض من مكانه وهو يبتسم بهدوء وتهكم

إلا أن المريضة زجرت زوجها بصوت مرتفع وهي تقول:

«أشعر بالقوة تنبعث من أعضائي الميتة، فابتعد عني، إن الموسيقى سحر ينعش عزيمتي.. أطلب من الأمير أن يجلس هنا بجانبي فلي معه حديث»

ودنا الامير فجلس قريباً من العليلة، واقتربت أنا من سيبيل ووالدها ودعوتهما إلى زيارتي في مزرعتي الجديدة، ثم طفقت أبحث معها في العلم والادب، فألفيتها كلفة أيما كلف بمافيز كلير، وطغت علي الغيرة من هذه الكاتبة، وهممت بالرد عليها والقدح في مافيز لو لا ما مزق الفضاء من صرخة مدوية مفزعة، وكأنها صيحة يطلقها حيوان متألم

وابتعد الأمير مسرعاً عن المريضة وقال لسيبيل والأسى يشوب صوته: «إن الكونتس في حالة سيئة، وأحرى بك يا سيدتي أن تعجلي إليها...»

وقاطعته صرخة أخرى... وشرعت العليلة تخبط الهواء بيديها وكأن هناك أخطبوط غير مرئي يطبق عليها بأطرافه الحديدية

وفي لمحة وجيزة أخذ وجهها يتقلص تقلصاً بشعاً، وتزايله لتلك الأمائر الإنسانية الجميلة..

وتصاعدت من الفم المفتوح حشرجة متقطعة، وصاحبت الحشرجة كلمات يأس وقنوط، وكأنها كانت تحذر زوجها وابنتها من مصيبة رهيبة توشك أن تحلّ بهما:

«الرحمة! الرحمة! يا إلهي ـ رباه.. سيبيل.. ابتهلي لله.. ابتهلي... ابتهلي..»

وانكفأ رأسها على الوسادة، وغابت عن وعيها

وغادرت البيت أنا والأمير بعد أن كشفت لسيبيل بالنظر والإشارة عن تعلقي بها، وبعد ان أعربت لها عن حزني الشديد لما أصاب أمها

ولما سرنا جنباً إلى جنب في الطريق قال وهو يومض بعينه «ما أمر هذه النهاية للمرأة المسكينة! ولعلّ الشلل الكلي هو أسوأ عقاب يمكن أن يصيب امرأة على شاكلتها»

«ماذا تقول؟ وهل لها ماضٍ مظلم؟»

أجل، عندما كانت يافعة، إنها الآن في الخمسين فقط، ولكنها ارتكبت من الأفعال ما لا ترتكبه إلا المرأة التي تبلغ من اللذة أكثرها.. كان لها عشاق عديدون ولا أنسى أن أحدهم رفع عن كاهل اللورد مرة ثقل الديون الكثيرة التي رزح تحتها، وانشرح يومذاك صدر اللورد!»

«هذا أمر شائن لا أكاد أصدقه»

فرماني بنظرة استهزاء وأجاب:

«واعلم إن الطبقة العليا شأنها في حياتها الماجنة استساغة الموبقة..

ومتى كان لامرأة عشاق كثيرون وعاد ذلك بالخيرات على الزوج فهو راضٍ محبور.. إلا أني لا أكتم شعوري بالندم على ما جنته يدي اليوم، فما كان يخنق بي أن أغني هذه الأغنية لأن ناظمها كان أحد عشاق الليدي إيلتون، وكانت على يقين من أنها الشخص الوحيد الذي يعي كلمات تلك الأغنية.. وقد سألني إن كنت أعرف ناظمها فأجبتها بأني عرفته وصادقته؛ وبينما أنا أشرح لها كيف عرفني وعرفته إذ بها تصاب بما جعلها تصرخ، فينتهي ما بيننا من حديث»

«وكان منظرها رهيباً!»

«هيلانة طروادة المشلولة! أجل، أجل.. إن منظرها كان فظيعاً مريعاً... فالحسن إذا اندمج بالشهوة أحياناً ينتهي أمره بجحوظ العينين وانكماش الوجنتين وتقلص العضلات ـ إنه انتقام الطبيعة من الجسد المضطرم بنيران الشهوة ـ واعلم أيضاً، إن انتقام الآخرة من الروح النجسة هو انتقام مماثل!»

«وماذا تعرف من هذه الأمور؟ إن تخيلاتك المدهشة عن الروح هي الشيء السخف الوحيد الذي ألمسه وأجده فيك؟»

«أحقاً تقول؟ إذاً فأنا جدّ مسرور لأني لا أسلم من الخطأ بل من البلد.. فالسخف هي الصفة الوحيدة التي تجعل الحكمة في متناول اليد والفكر! وأعترف أن خيالي الفسيح يصور لي الروح في صور عجيبة مدهشة مذهلة»

«وإني أغتفر لك كل همّة لأن صوتك الرائع هو وأيم الحق صوت ملاك!»

«لا تستعجل المقارنات المستحيلة.. فهل صدف أن سمعت ملاكاً يغني؟»

«أجل!لقد سمعت ـ وفي هذه الليلة بالذات!»

ففر اللون من وجهه وأجاب وهو يغتصب ضكحة مقتضبة:

«هذا ثناء لا موجب له من حيث أنك أسرفت كثيراً في تكوين الرأي عن صوتي!»

ورفع وجهه إلى السماء وتنفس ملء صدره، واستتلى وهو يضغط على ذراعي:

«أنظر، أنظر كيف تلتمع النجوم في السماء! إنها كاللآلئ العظيمة!هناك، أترى تلك النجمة البعيدة التي يميل نورها إلى الأحمر، ومع ذلك فأنت تراها أحياناً زرقاء كالبرق؟ إنني أرى هذا الكوكب في كل ليلة ـ إنها نجمة الغول أو نجمة الشر. إني أحبها لأنها شريرة ـ ومن يعلم، قد تكون جزءاً بارداً من جهنم حيث تثوي الأرواح النادبة في الثلوج المتراكمة التي تتجمد من دموع هذه الأرواح أو قد تكون مدرسة إعدادية للسماء ـ وهناك، هناك فينوس يا جيوفري، نجمك أنت، لأنك عاشق! اعترف، لي ألست من العشاق؟»

فترددت وأجبت: «لست متأكداً»

«لا تخف ما بقلبك يا جيو فري، فأنا صديقك الحميم وسأفعل المستحيل حتى تفوز بسيبيل زوجة لك»

«أتفعل ذلك»

وشعرت بالفرح يستخفني، فتأبطت ذراعه وضغطت عليها ضغطة الود والولاء. وماعتمت أن تمتمت وكأني أناجي نفسي:

«كم أنا مدين للأقدار التي وجهت إليّ هذا الصديق»

وتساءل الأمير: «مدين لمن؟»

«للأقدار!»

«أتعني ما تقول؟ إن الأقدار يا صاح أخوات بشعات، ولعلهن من كن في زيارتك ليلة الأمس

«هذه ترّهات، ولن يسمح اللّٰه بأن أصاب بزيارة الأخوات البشعات!»

«أواه! إن اللّٰه لا يدع شيئاً يحول دون تنفيذ قوانينه، لأنه إذاً فعل ذلك وجه الطعنة إلى السماء!»

«وهل هو موجود؟»

«ماذا؟ ماذا تقول؟»

ووصلنا الفندق، فلم أعرج على جناحه، بل استأذنته وآويت إلى مخدعي وأنا أشعر بالتعب والعناء.

12 ـ مافيز كلير

أصبحت بعد تلك الليلة من المقربين إلى اللورد، المترددين كل يوم على منزله..

وأصبحت أرعى سيبيل بعين المحب المفتون، وأغتنم كل فرصة سانحة لأكشف لها عن حقيقة مشاعري نحوها.

وقلل ريمانيز من زياراته، وجعل ينتحل الأعذار ليروغ مني كلما طلبت إليه مرافقتي إلى منزل اللورد. وابتهجت في قرارتي لتخلفه هذا، فهو رغم تعلقي به كان بما حباه الله من فتنة وإغراء العقبة الكأداء في طريقي إلى قلب محبوبتي، ولا جرم أن كل امرأة تهواني لن تعتم حتى تعزف عني بمجرد وقوع طرفها على صديقي الأمير

وكنت منهمكاً في تلك الأثناء بمد يد المساعدة بقدر ما تسنح لي الفرص إلى اللورد إيلتون، حتى أدلل بجودي وسخائي وعطفي، على حسن نيتي

وهكذا توسعت الصلات بيني وبين والد حبيبتي حتى أصبح لا يتورع عن تأبط ذراعي في كل مكان نجتمع فيه، وحتى أصبح لا يأنف من مناداتي بابنه العزيز أمام كل إنسان مهما علا شأنه!

وأن أنس لا أنس تلك الانطباعات المدهشة التي بدت في وجه الناشر

المشدوه يوم التقاني وجهاً لوجه في مكان عام وأنا أمشي الهوينا مع اللورد الشيم.. كان هذا الناشر قد رفض مساعدتي وأنا فقير منعدم، فلما أبصر بي تجاذب أطراف الحديث مع هذا الرجل العريق تولته الدهشة بل وأصابه الجنون

وكانت هذه منتهى المتعة لي أنا ـ أنا الفقير الذي اغتنى، أنا الخامل الذي اشتهر ـ أجل، إنها لمتعة قصوى!

لم يقع نظري مرة أخرى على وجه الكونتس بعد ذلك الحادث الذي أصابها إلا أن زوجها اللورد أخبرني أن التقلص الذي شاب أمائرها لم يفارقها أو يزل عنها

وقد أنهى إلي في معرض الحديث أن زوجه كانت بارعة الجمال فأمست الآن مسخاً رهيباً تغثو لمرآه النفس، بل إنها أمست أبعد ما يكون عن بني البشر

وهكذا مضت الأيام وأنا أزداد بمضيها قرباً من الليدي سيبيل فأرسل إليها في كل صباح صناديق الزهر وبطاقات الحفلات، وكانت لا ترفض شيئاً، بل تفعل كل شيء كما لو كان قربي منها أمراً مسلماً به

وابتعت ويلوسمير، وأشادت الصحف بإطرائي وإطراء هذه المزرعة، وأثنى عليّ محاميّ بعد أن قصدها وجاس خلالها وكان المزينون والمهندسون منهمكين في زخرفة القصر وهم يصدعون بأمر ريمانيز ويفعلون ما يشير عليهم به

في تلك الأثناء وقع ما كنت أظنه في السابق أعظم حدث في حياتي، فقد نشر كتابي بعد أن ملأت الصحف الدنيا ضجيجاً به وبروعته، وبعد أن كتبت المقالات الطويلة العريضة عني ككاتب عبقري وكمليونير أيضاً!

واتفق في اليوم نفسه الذي وزع فيه الكتاب على المكاتب أن رأيت صدفة في واجهة مكتبة ما اسماً جعلني أرتعش من الغيظ والغيرة، رأيت هذا الإسم مطبوعاً على كتاب جديد، فلما طلبت إلى البائع أن يأتيني به، ابتسم وقال:

«عجباً! إن جميع الناس يشترون كتب مافيز كلير ولو أنها لا تبالي الدعاية والإعلان»

وأخذت الكتاب ومضيت في سبيلي وأنا موقن أني سأطالع شيئاً تافهاً لا يؤبه له

واجتمعت في المساء إلى الأمير صديقي وكان الكتاب لا يزال في يدي، فتناوله وقلبه ثم أرجعه وهو يقول ضاحكاً:

«أخشى ما أخشاه أن تكون مافيز كلير الشوكة الكبرى في جنبك! ولكن، لتقر عيناً أيها الصديق فهي لن تصل إلى مرتبتك.. أنت غني ومالك الوفير كفيل بأن يخلع عليك أعظم صفات العبقرية»

وقهقه الأمير ضاحكاً.. قهقه قهقهة مجلجلة خلتها صيحة هزء يطلقها أقرب المقربين إلي.. ثم أردف:

«ويحك يا جيو فري! أتغار من امرأة؟ أليست المرأة التابع الطبيعي للرجل؟ وأنت، أتكترث بهذه التي لا تملك إلا قوت يومها؟»

واستغرب ثانية في الضحك، ثم غادرني ومضى. وقد سارعت بعد ذهابه إلى تحرير رقعة صغيرة وجهتها إلى صاحب مجلة واسعة الإنتشار، طلبت إليه فيها أن يسمح لي بكتابة مقالٍ لاذع في عدده القادم عنوانه ـ مفارقات مافيز كلير!

* * *

لا أستطيع وصف حالتي الذهنية التي أخذت تسيطر على أيامي وحياتي. فأنا متقلب لا أستقر على حال، ونزعاتي متبدلة باستمرار.

وقد زججت بنفسي في كل نوع من أنواع الحياة التي يعرفها الرجال، لأن الرجل الأقذر من سواه هي في عصرنا هذا أحق من سواه بالاحترام!

وقد صرح (حمار) من هذا النوع قائلاً: «أكره ما أكرهه، رجل تصيبه الرجفة عندما يخسر جنيهين في اللعب، فخوفه دليل جبنه وبخله»

وبناء على هذه النظرية العصرية، ورغبة مني أن لا أوصم بالجبن والشح، طفقت أقامر في جميع الألعاب فأخسر وأنا مسرور، بضعة جنيهات! وهي في الحقيقة بضع مئات من الجنيهات، متوخياً من وراء ذلك الاستيلاء على مشاعر وألباب عدد من النبلاء الذين تجري في عروقهم الدماء الزرقاء!

وراهنت، وأسرفت في الرهان، وقصدت المواخير ودور الفسق، ونزلت عن ثروات طائلة للراقصات اللواتي رقصن أمامي عاريات وكل هذا، كل هذا، لكي يقال عني أني «رأيت الحياة!»

ياللسماء! ـ ما أحطّ حيواتنا.. ما أتفهنا أنا وذيولي النبلاء!

ومع ذلك كنا مطمح أبصار الغيد الحسان في لندن ـ نحن ـ الذين نضح حاضرهم بالرذيلة ـ نحن، رجال العصر الذين نزهو بشبابنا، أغمضنا عيوننا على القذى، ولم نشأ أن نعترف برجسنا وانحطاطنا، وما نلحقه بالدنيا من أوضار عارنا!

وكان ريمانيز أحياناً يشترك معنا في لعبنا ولهونا، وكنت أجده في مثل هذه المناسبات أكثرنا تطوفاً وتطرفاً ـ فهو يسترسل في ضحكه، ويتمادى

في استهتاره، حتى ليضوى ويصبح أشدنا وحشية، إلا أنه أخذ يزور بنفسه شيئاً فشيئاً مع توالي الأيام

وأذكر ذات ليلة ونحن في طريقنا من إحدى الحفلات الحمراء، أنا وثلاثة نبلاء صديقي الأمير، إن صادفنا فتاة صغيرة تلبس الأطمار وتنتحب بشدة، وهي تتشبث بسور إحدى الكنائس

وكانت تتضرع إلى اللّٰه وتقول:«رباه! آه، يا إلهي، أعني!»

وانقض عليها أحد النبلاء فقبض على رسغها وهو يقهقه ساخراً إلا أن ريمانيز عاجله بقوله:«دعها وشأنها،اتركها لتجد اللّٰه إن استطاعت!»

وحدقت الفتاة في وجهه بهلع والدمع يسيل من عينيها..

وتقدم منها الأمير فوضع ثلاث قطع ذهبية في يدها، فارتفع صوت بكائها وهي تقول:«ليباركك الله، ليباركك الله!»

ورفع الأمير قبعته عن رأسه ووقف حاسراً تحت ضوء القمر وقد أخذ جماله المظلم يلين ويرق بفعل انطباعة عجيبة شاعت في أساريره.

وأجاب:«أشكر لك ذلك، أنا الآن مدين لك»

ولما استأنفنا السرى ابتدره أحد النبلاء يقول:

«لقد دفعت غالياً ثمن البركة يا ريمانيز.. لقد أعطيتها ثلاث قطع ـ وهذا أيم اللّٰه ثمن فاحش ماكنت لأدفعه إن لم أنل شيئاً آخر بجانب البركة!»

وأجابه ريمانيز «لاشك في ذلك.. انت تستحق أكثر ـ أجل تستحق الكثير، وأرجو أن تناله ـ فالبركة لا تعني لك شيئاً، أما لي فمعناها كبير!»

ومرّت هذه الحادثة كما مرّ سواها دون أن أعيرها التفاتة تذكر. مرت هذه الحادثة فلم ألتفت إليها لأني كنت منغمساً في عبثي ولهوي.وكل شيء لا يتصل بمجوني كنت أتغاضى عنه وأنساه

فهل كنت سعيداً بضلالي؟كلا لم يكن يرضيني إلا قربي من اللادي سيبيل. وكانت سيبيل غريبة الأطوار، لم تخف عنها ميولي نحوها، إلا أنها تجاهلت عاطفتي المشبوبة وأظهرت الدهشة كلما حاولت أن أكشف لها عما يختجلني. ولا جرم أن غرور المرأة هو الذي حفر سيبيل إلى احتقاري، فغريزة المرأة في هذا المجال أقوى من كل شيء آخر، وهي ما لم تتمكن من تعفير وجه حبيبها بالتراب، وجره إلى أحط الدركات، لم تشعر بالرضا والهناء

ولكن، من ترى أنا حتى أحكم على غيري بالغرور؟ ـ أنا الذي أعماه استحسانه لكل ما في طبعه، عن رؤية الحقيقة التي تظهر في كل حاسة من حواسه مثلاً مجسماً (لاياغو) الخائن المستهتر..

ومع ذاك وعلى الرغم من افتتاني بنفسي، وبمحيطي، وبراحتي، وبتقدمي الإجتماعي، فإن شيئاً واحداً لم أفطن إليه لم يبرح ينتظر الفرصة،ليستحيل بعد حين مادة تعذيبي، وعنصر اضطهادي.. وما كان هذا الشيء سوى شعور اليأس

والعجيب في الأمر أني اعتبرت يأسي المدمر كالنصر الوحيد الذي حزته في دنيا الظلام هذه! أما كتابي ـ كتابي الذي نظرت إليه قبلاً نظرتي إلى شيء مقدس، إلى شيء يتصل بعبقر ـ كتابي الذي طبلت له الصحف وزمرت، فإنه جعل يبدو لي كأنه غول مخيف يهاجمني في الليل والنهار، ولا يفتأ يكربني..

والدعاية المأجورة.. سحقاً لها ما أكذبها! ـ إن كل جملة إطراء وجهت إلي ملأت قلبي اشمئزازاً.. لقد أصبحت (اسكالوس) الجديد، أو (شكسبير) العصر، بل غدوت مزيجاً من الإثنين ـ فأنا عبقري اليوم وأمل الجيل القادم ـ وأنا كتاب الشهر الأول، الكتاب الذي سبق كل الكتب، وفاقها، وبذها، واعتلى القمة! إنه المال ـ المال جعل الصحف وأصحابها يتفننون في تقريظ عملي.. إنه المال، ومع ذلك فكتاب مافيز كلير هو مطمع أنظار القراء رغم انعدام الدعاية، ورغم الحملة التي شنتها عليها في الصحف وجاءني ريمانيز يوماً وفي يده مقال كتبته ذماً لمافيز كلير وتحقيراً لعملها الأدبي. ولما جلس إلى جانبي قال وهو يرمقني بنظرة ساحقة:

«هناك أفراد جبلت نفوسهم على حب الأذى، فهم لو وجدوا مع نوح في فلكه لأطلقوا النار على اليمامة التي تحمل غصن الزيتون فور رجوعها من الأرض إلى الفلك سالمة. وأنت من هذه الفتنة يا جيو فري!»

فتمتمت بامتعاض«لا أرى الدافع إلى هذه المقارنة»

قال:«أحقاً ذلك؟ ولم إذن تبغض مافيز كلير التي لم تلحق بك الأذى؟إن منزلتك تختلف كل الإختلاف عن منزلتها، أنت مليونير، وهي امرأة تعمل بجد واجتهاد لتكسب من أدبها ما تستعين به على ضروريات الحياة، فماذا يدعوك إلى بذل المال بسخاء لتحرمها من لقمتها؟»

«لأني أمقت النساء اللواتي يكتبن»

«ولماذا؟ ألأنهن قادرات على الحياة في استقلال وحرية؟وهل تودهن أن يبقين عبيدات للرجل ولشهوته؟ أنت يا عزيزي بعيد اليوم عن اتزان الفكر، ولو اعترفت بأنك تغار من ألمعية هذه المرأة، لفهمتك ولفهمت

مصدر غيظك، لأن الغيرة تحيل من الإنسان قاتلاً إما بالسيف أو بالقلم.. وهل كتابها تافه لا يستحق الإلتفات كما زعمت؟»

«إنه كذلك، ولو أعجب به بعض الناس»

وكانت هذه كذبة، وأدرك هو أني أكذب. فكتاب مافيز كلير جعلني أتحرق على نار الحسد ـ ومجرد قراءة سيبيل لكتابها قبل أن تلقي نظرة على كتابي أنا، أثار موجدتي وحفيظتي..

واستتلى الأمير: «وكل ما أستطيع قوله لك هو أن نقدك اللاذع لن يسيء إلى مافيز.. فقد أخطأت يا صاح، وسيهتف المعجبون بها ـ يا للعار! وسيتلهف هؤلاء المعجبون إلى المزيد من ثمرات فكرها.. أنا هي نفسها فاعلم أن لها قلباً طيباً مرحاً، وستضحك بهدوء ساعة تقرأ مقالك، وإني لأنصحك بأن تجتمع إليها في يوم ما»

«لن أفعل هذا»

«قد لا تفعله، ولكنك لن تقوى على تجنب الإجتماع إليها عندما تنتقل إلى قصرك الجديد في ويلوسمير»

ومال الأمير إلى الوراء، واستغرق يضحك حتى اغرورقت عيناه بالدموع..

بيد أني لم أجد معنى لضحكه.. فقد كنت مثقلاً بالهموم في تلك اللحظة، وكان في رأسي موجة هائلة من اليأس والقنوط..

كنت أشعر أن الأمل الذي داعب مخيلتي أيام فثري ـ الأمل في بلوغ الشهرة ـ فقد اضمحل الآن وزال. فهناك شيء خفي يكمن في المجد

الحقيقي، ولا يستطيع المرء أن يظفر به بالمال والجاه والنفوذ. لقد جاهدت مافيز من أجل العيش، فأحرزت قوت يومها، وأحرزت بجانب خبزها، الشهرة والمجد، ولكني لم أظفر بهذه الشهرة وهذا المجد رغم ملاييني! وراودتني نفسي على ابتياع وأجاب ضاحكاً: «أحقاً ذلك؟ أنت تملأ قلبي بالغرور يا جيو فري»

ولم أملك نفسي في تلك الليلة من التفكير بهذا الصديق الذي يعامل أمير البلاد وحاكمها كما يعامل رجالاً من أنداده. لقد رمقه ولي العهد بنظرة خاضعة، بل بنظرة رجل يعترف بفضل رجل! فهل رآه قبلاً: هل امتزج به؟

وسألت الأمير عن ذلك فضحك وأجاب:

«إننا نعرف بعضنا وقد اجتمعنا في مناسبات، ولكني لست متأكداً من أنه تذكرني اليوم، فمعرفتي به ترجع إلى سنين طويلة خلت!»

13 ـ امرأة من ثلج

جرى هذا بعد عشرة أيام. وكان الذي جرى كافياً لتنبيهي إلى ما ينتظرني لو كنت مفتح العينين، أرى وأبصر وأسمع وأشعر حتى إذا ما جاءت سيبيل فحيتني وجلست بجواري واخبرتني أن والدها غائب عن البيت، رأيت أن أغتنم الفرصة فأفتح مغاليق صدري وأبوح لها بحبي وكلفي. وقد قلت لها لما أخبرتني أن والدها غير موجود:

«سأبقى معك قليلاً، فهل تأذنين؟»

وطأطأت رأسها؛ واستتليت:

«هل تشعرين بوعكة؟»

فضحكت ضحكة قوية وأجابت:

«إنني متعبة بعض الشيء ولكن، أين صديقك؟وما باله لا يأتي معك لزيارتنا؟»

قلت: «ريمانيز؟ إنه شاذ في طبعه، وهو أحياناً ينفر من المجتمع ويعافه. وهو على ما أعلم يجتمع إلى أبيك كل يوم في النادي، أما سبب احتجابه عن منزلكم فهو ما يكمنه للنساء من كراهية»

وتساءلت بابتسامة: «أيكره جميع النساء؟»

«دون تمييز وبلا استثناء!»

«فهو يمقتني إذن كما يمقت غيري؟»

فأجابت بعجلة: «لم أقل مثل هذا الكلام، فليس في الدنيا من ينطوي قلبه على كراهيتك، الا أنه كما قلت لا يحب معشر النساء»

فأجابت متفكرة: «فهو والحالة هذه لن يبني على امرأة؟»

وضحكت؛ وجعلت تعبث بوردة في يدها، وانبهرت أنفاسها، واختجلت شفتاها. وعلى حين غرة وثبت واقفة وهتفت وهي تشمخ بأنفها:

«آه، لن أحتمل هذا، إنه فوق طاقتي!»

فقلت وانا أدنو منها متلهفاً:

«سيبيل..»

قالت وصوتها يتهدج انفعالاً:

«أواه! لم لا تطلعني على حاجتك؟ ـ لم لا تقول لي أن اختيارك وقع عليّ ـ وإنني المرأة الوحيدة التي ظفرت بإعجابك فآليت أن تبعل عليها؟ أنظر إليّ ـ ورفعت ذراعيها إلى فوق بحركة محزنة ـ هل هناك أي عيب في السلعة التي تروم ابتياعها؟ وهذا الوجه، ألا تراه جديراً بتقدير الرسامين والنحاتين؟ ألا تراه يسوى على الورق قرشاً واحداً فقط؟! وهاتان العينان، وهاتان الشفتان، وهاتان الذراعان، إنها كلها لك، فابتعها.. ابتعها سريعاً ولا تواصل تعذيبي بترددك وتأخرك، وتساؤلك عما إذا كنت جديرة بذهبك!»

وقبضت على يديها وأنا أشعر باللوعة والألم وقلت:

«صمتاً،صمتاً..!أنت نهبة وسواس وصريعة ألم وعذاب..

حبيبتي، لماذا تنسبين إليّ هذه الضعة؟وهذا اللغو الذي ابتدرتني به، أليس هو من قبيل الهراء؟ إنني أهواك، إنني مدلل بحبك، ولم أكتم الأمر، بل إن تقاطيع وجهي وشت بعاطفتي، وما كان ترددي إلا لخوفي من مجابهتك لي بالرفض.. أنت فوق ما تمنيت، أنت أكثر مما يطمع فيه رجل، ولا أستأهل جمالك وعفتك وطهرك..

حبيبتي، حبيبتي، لا ترخي العنان لأحزانك»

وقد قلت الجملة الأخيرة وأنا كالثمل، فسيبيل بعد أن استرسلت في الكلام ارتمت على صدري وتشبثت بي، وكأنها عصفور يجد نفسه فجأة سجيناً في قفص

ومضيت أقول:«إنني أعبدك بأقصى قوتي وبمجامع قلبي ـ إنني أحبك حباً أجزع من التفكير فيه لشدته وعنفه وعمق غوره؛ إن عاطفتي بحر متلاطم، وأنا مجنون دنقني حبك، فسلبني معنى الراحة والسلام!»

وارتعشت وصمت ـ وسلبني ذراعاها المحيطتان بعنقي من سيطرتي على نفسي، فأخذت أقبل عقائص شعرها وأنا مغمض للعينين واجف القلب، أشعر بالصبابة، وأحسّ بالتهافت.. ورفعت الحورية رأسها ورنت إلي بعينين يشعّ منهما بريق عجيب، ليس هو ببريق الحب، بل هو الخوف والرعب

وخيل إليّ أني امتلكت ناصية هذه الأنثى، وجعلني الجمال الأخاذ أؤمن بأني صاحبه، فانهارت الحواجز والموانع، وأقبلت عليها أقبلها.. وتراءى لي أن قبلتي النارية صهرتنا سوياً، وأحالتنا إلى شخص واحد، وروح واحدة

غير أنها انتفضت بغتة ودفعتني إلى الوراء، ثم انهارت على الأريكة وهي تمتم بصوت خفيض:

«وبم شعرت الآن بعد أن قبلت فمي؟»

«بما يشعر به من يفسح اللّه له في جنة الخلد ـ شعرت بالمتعة العارمة، وبالهناء والسعادة.. كما شعرت بلسع النيران المندلعة في الجحيم»

وتأملت في وجهي؛ فلما انتهيت من كلامي قالت:

«عجيب أمرك! أو تعلم بم شعرت؟»

فلما هززت رأسي نفياً، استطردت:

«بلا شيء! أجل، لم أشعر بشيء على الإطلاق ـ فأنا إحدى نسائكم في عصركم وأستطيع أن أفكر فحسب، وأستطيع أن أحلل!»

قلت: «فكري وحللي ما شاء لك الفكر والتحليل ذلك، وإن كنت تثقين بأنك سوف تسعدين معي، فسيكون هذا قوام ما أبتغيه من أيامي وأنشده من حياتي!»

قالت: «وهل تكون سعيداً معي! تمهل لا تتسرع... انتظر ريثما أصف نفسي لك على حقيقتها...»

وكفت عن الكلام، ومضت الدقائق وأنا أنتظر، حتى إذا استأنفت القول، سمعت ما طاشت له سهامي... قالت:

«كنت دائماً الورقة الأخيرة في يد أبي، وقد نظر الرجال كلهم إلي كسلعة معروضة للبيع، ولكنهم عجزوا عن دفع الثمن الذي عينه أبي ـ لا تضطرب؛ أرجوك ـ والذي أقوله هو الحقيقة وإن جميع نساء الطبقة العالية

هن الآن معروضات للبيع في إنكلترا شأنهن في ذلك شأن النساء اللائي يعرضن في سوق النخاسة....

أنت تحبني، ولست أشك في سلامة نيتك وصدق طويتك.. أنت مفتون بجمالي وطهري ويفاعتي.. ولكنك مخطئ في كل تقدير، فأنا أكبر مما تظن، أنا كبيرة السن بقلبي ومشاعري.. كنت صغيرة لبعض الوقت في ويلوسمير، يوم عشت في جو ساحر يتضوع فيه أريج الورد ويملأ فضاءه سقسقة العصافير. إلا أن شهراً واحداً في المدينة كان كافياً ليقتل شبابي ـ شهراً كنت أمضيه في المآدب والولائم وحفلات الرقص ـ والآن، لقد ألفت أنت كتاباً، ولاريب في أنك تعلم الشيء الكثير عن واجبات رجل القلم ـ عن تلك المسؤولية الخطيرة بل الرهيبة التي تقع على كاهل الكاتب عندما يخرج على الملأ بآرائه السامة، يفسد بها عقول الناشئة.

إن لكتابك غاية نبيلة، ولهذا فأنا معجبة به مع أني لم أوافق على رأي واحد طالعته فيه. لقد أجدت كتابته، ولكني اكتشفت أثناء قراءتي له أنك لم تخلص كل الإخلاص فيما ابتدعته من آراء ومبادئ مما جعلني أوقن أو أستنتج ـ إن شئت التعبير الأدق ـ أنك فقدت ما كان خليقاً بك أن تستبقيه وتذخره!»

وأجبتها والألم يجز في قلبي:

«إن الكتاب عديم النفع من الناحية الأدبية، إنه لا يتعدى كونه كتاب الشهر الذي بذّ في شهرته سائر الكتب والمؤلفات.»

قالت: «وعلى كل حال فإنك كما اتضح لي لم تلوث قلمك بتلك الأقذار التي لزمت غيرك من المؤلفين ولن أطيل عليك القول فيما لا طائل تحته ـ

فجدير بك إن رمت الزواج بي إن تحيط بخلجاتي ومشاعري، لأنك بثرائك الفاحش تستطيع أن تبعل على أجمل نساء البلاد ولا أقول أنك ستجد فتاة تفضلني، فنحن سواسية في الخلق والطباع ـ نحن جميعنا نرغب في هذه الحياة العصرية المفعمة بالآراء التافهة الشاذة ولا شك أنك قادر على اكتشاف ضالتك في الريف بعيداً عن المدينة، فهناك تعيش فتيات لم تلوثهن حمأة المدينة، لكنهن أحياناً مأفونات سخيفات لا يركن إليهن، ولهذا لن تلبث طويلاً حتى تسأمهن وتنأى بوجهك عنهن. أما أنا، فأنا كما ترى جميلة مغرية لا يشوب وجهي وشعري وقدمي أي عيب أو دمامة، إلا أن جمال جسدي لا يقارن بشاعة أعماقي، فظاهري خلاف باطني، وروحي لا تنبض فيها بارقة من سحر أو روعة، وأنا فوق كل هذا أستهجن جميع الأشخاص والأشياء، وأحتقر العناصر كلها، ولا أشفق أو أرثي أو ألين، وتراني في أوقات كثيرة أستسلم إلى الغم، فتصيبني السويداء وأشعر بالبرم والضيق، وأجحد فضل الله، فأجدف كما تعلم أن أجدف في هذا المجتمع القذر!»

وحملقت في وجهها كالمشدوه، إلا أن نظرتي نمت عن افتناني وتولهي ـ حملقت كما يشخص الوثني إلى تمثال معبوده ـ ذلك التمثال الذي ما زال العبد يحبه ولو أصبح لا يعتقد بألوهيته وفوق ما اعتقدته في تلك الهنية من أنها غدت ضرورة ملحة لحياتي فأنا لم أجد فيما بدهتني به ما تؤاخذ عليه. وكيف لي أن ألومها أو أعترض على حديثها ما دمت مثلها لا أعتقد بالدين؟ ومع ذلك لم أملك نفسي من الشعور بالأسى، فقد وددت لو كانت مؤمنة تخشى الله، وهذا ولا غرو مرده إلى خوفي من يوم الدينونة التي لا أؤمن بها ـ فهي ـ أي زوجتي المقبلة، تستطيع لو آمنت وفوضت أمرها إلى الله، أن تشفع لي!

وتنفست الصعداء من كثرة ما خالجني من الحيرة والاضطراب وفتحت فمي لأتكلم، ولكنها أدنت مني فألقت يدها على كتفي وقالت:

«لكم يتجسم الحزن في أساريرك يا جيوفري، ولكنك تبدو أيضاً مسروراً وكأن شيئاً يغمر قلبك بالسلوى والأمل... وأعلم أن في طاقتك النكوص على أعقابك قبل فوات الأوان!»

فرمقتها بنظرة الولهان وأجبت:

«من ذا يستطيع تبديل قلبي يا سيبيل؟ فأنا أهواك وسأبقى على حبي لك مدى الحياة، والذي أرجوه منك أن لا تصفي نفسك بهذه الأوصاف، وأن لا تثلبيها وتطعنيها دون مبرر»

قالت: «دون مبرر! إنني حقاً أتقن جميع واجبات ربة الدار مع أني لا أناهز العشرين.. ويبدو لي أن استعداد أبي لبيعي جعلني أتأهب لما ينتظرني.. إنني أحببت الطبيعة وأحببت الشعراء والمثاليين عندما كنت تلك الطفلة الحالمة المقيمة في ويلوسمير..

إلا أن هذا الحب مات الآن، بل أصيب بما هو شر من الموت.. والزواج لي أضحى بمثابة صفقة شراء، لأنك تعرف أنك مهما أحببتني وأني مهما أحببتك فهو لن يوافق على زواجنا إن كنت فقيراً، أو بالأحرى إن لم تكن أغنى من سواك!»

قلت: «أنت تسيئين إلى نفسك بهذا الكلام يا سيبيل، أنت من اللواتي يستطعن أن يكنّ من هذه الدنيا ولا يتنسبن إليها، وعقلك كبير نقي لا تؤثر عليه الشرور، ولن أصدق كلمة واحدة تقولينها ثلباً لخلالك الحلوة وشمائلك النبيلة.. إني أحبك غنياً وأحبك فقيراً»

«قد تحبني، ولكنك لن تجرؤ على مصارحتي ومطارحتي الغرام لو كنت فقيراً معوزاً!»

وصمتّ صمت من أُفحم.. وأحاطت هي عنقي بذراعيها مداعبة وضحكت، وقالت:

«ها أنا أتم واجبي أو أكشف لك عن حقيقة قلبي ومشاعري، فقد قلت لك الحقيقة وأخبرتك أنني لست بالصغيرة ولا بالطاهرة. إذا نظرنا إلى ما في القلوب، ولكنني لست أحط من سواي من نساء هذه الطبقة»

ولهفت نفسي، فأنا كلما تمادت في ذم نفسها كلما استعر نار وجدي! وما لبثت أن قربتها بقوة من قلبي النابض وقلت هامساً: «سأفعل ما تشائين أيتها الحبيبة، وأوثر أن أظفر بك في أسرع وقت نحن الآن في شهر آذار فهل نحتفل بزواجنا في حزيران؟»

قالت: «أجل، ليكن ما تريد»

ودفنت رأسها في صدري

ومضيت أقول: «واذكري، اذكري أني لا أرغب في سماع قصة المال وأناشدك اللّٰه أن تحدثيني بما لم تتحدثي به ـ أن تعربي لي عن حبك، وعن استمرارك في ذلك ولو كنت مملقاً!»

فنكرت بعينين شاخصتين إلى الحائط والتفتت إلي فرمتني بلحظها الفتاك وقالت وهي تقطب قليلاً:

«لا أستطيع أن أقول هذا الشيء، لقد ذكرت لك أني لا أعترف بالحب، ولو كنت فقيراً لما فكرت قط في مجاراتك والتسليم لك، لأن زواجنا يكون عبثاً لا طائل تحته!»

«أنت صريحة يا سيبيل»

«من الخير أن أكون صريحة.. أي جيوفري، ما فائدة التظاهر بما ليس في القلب؟ أنت تكره الفقر وأنا أيضاً أمقته.. أني لا أفهم هذا الفعل ـ فعل أحب ـ ولكنني أحياناً، وعندما أقرأ لمافيز كلير، أؤمن بالحب.. بيد أني ساعة أغلق الكتاب يوصد باب إيماني واعتقادي! ولهذا فلا تنتظر مني ما ليس مني.. إنني راغبة في الزواج منك وهذا جل ما يجب عليك أن ترجوه وتتوقعه!»

فهتفت بمزيج من المحبة والقهر وأنا ألف ذراعي حول جسدها الغض:

«أهذا كل ما أرجوه أيتها الزهرة الجامدة؟ لا، لا.. سوف تذوبين عندما ألمسك؛ وساعة تتعلمين معنى المحبة تتذوقين رحيق الجنة ـ فلا تظني أنك في منجاة من هذا السحر، إن أحاسيسك نائمة بعد ولا بد لها أن تستيقظ!»

ومالت برأسها على كتفي ونظرت إلي بعينين حالمتين وأجابت:

«أتظن ذلك؟ وهل تستيقظ مشاعري من أجلك؟»

«أجل، ومن أجلي أنا!»

وقرقرت، وكانت ضحكتها أشبه باللحن الشجي، ثم تابعت تقول: «إن الحب فن قائم بذاته لا يتقنه إلا الفنان المختبر، وأخشى ما أخشاه أن يستغرق تعلمي له طول العمر، حتى لو كان ذلك مع سيدي!»

وشاعت الابتسامة في أساريرها، وافتر ثغرها عندما قبلتها..

وقلت بعد قليل:

«أطلعي الأمير ريمانيز على ما تم بيننا»

قالت: «سأفعل ذلك إن شئت»

«قولي له كل شيء، فهو صديقي الحميم»

وهبطنا الدرج، ثم ودعتها بقبلة أخيرة وغادرت المنزل، وفي عقلي ثورة وفي قلبي خضم تتلاطم أمواجه في بحر من الكبرياء والقلق والريبة ـ فأنا خطب ابنه نبيل، وعشيق امرأة جاهرتني بأنها زاهدة في الحب والإيمان!

ألقيت نظرة على الماضي المغيب في أكفانه ـ على ثلاث خلت ـ وإني لأتذكر الآن ما انطبع على أماثر لوسيو يومذاك من تغيير عجيب عندما أنبأته بأن سيبيل ستغدو قرينة لي وحبيبة.. فقدت أعارت بسمته الغامضة عينيه المضيئتين بريقاً مدهشاً.. وتبينت في تينك العينين وأنا مذعور هالع الفؤاد، كل معاني السخرية والاحتقار

وقال لوسيو أخيراً وعيناه لا تزالان تشعان:

«النساء سواسية، وما أقل اللواتي يصمدن في وجه الإغراء الذي ينبثق عن المال!»

فقاطعته محتدماً: «ما أشد ظلمك يا لوسيو! أنت دائماً تزن الأمور كلها بمقاييس المال، وسيبيل كما أثق تحبني لنفسي!»

وغمرتني كلها بمقاييس المال، وسيبيل كما أثق تحبني لنفسي!»

وغمرتني نظرته المشعة كالوميض الخاطف وأجاب:

«وأنا أهنئك من أعماق قلبي يا جيوفري، فأنت سعيد إذن، ولاريب أن استيلاءك على شغاف أكثر النساء كبراً واعتداداً لهو أفضل ما يتوق إليه الرجل.. وأعلم أنك بما ظفرت به تنال السعادة ما لا تتيحه لك ملايينك!»

ورق صوته، وبدت في ناظريه خلجة حالمة، فحدقت في هاتين العينين مبهوتاً وهتفت:

«ما هذا! ظننتك تمقت النساء؟»

قال: «أصبت، إلا أنك لا تدري سبب كرهي لهن.. فأنا أنفر منهن لأن في أيديهن وملك يمينيهن ويسارهن جميع مقومات الخير والفضيلة؛ ولكنهن يقلبن الأوضاع، ويحلن هذه المقومات إلى الناحية الشريرة.. والرجال يخضعون خضوعاً أعمى لهن.. ولا يسعني إلا الإعتراف بأن عدداً من الرجال قد ارتفع إلى الذراري بسببهن، أما السواد الأعظم فقد انحط إلى الدرك ـ إلى الجحيم.. وبسببهن أيضاً!»

واكفهر محياه وقست تلك الخطوط المحيطة بفمه، وعمقت نظرته حتى خيل إليّ أن فيهما أسرار السنين الخوالي.. فارتجفت وعرتني هزة عنيفة، وأصابني ذهول

وافترقنا بعد ساعة

ومضت الأيام وأنا لا أبرح أنشد الشهرة، فلا تدين لي إلا بمقدار يسير ضئيل

وفي مطلع نيسان ذهبت مع لوسيو إلى ويلوسمير ـ وكانت أعمال الإصلاح والزخرفة فقد أشرفت على نهايتها ـ ولما اندفع بنا القطار يخترق تلك البقعة المخضلة مبتعداً بسرعة عن مداخن لندن وأقذارها وضوضائها، تسرب إلى قلبي شعور بالسلام واللذة امتشت له روحي.. وقد دهشت إلى حد الذهول لما وقع عليه طرفي، وأيقنت أني ابتعت الجنة!

هكذا شعرت، وتجسم الخاطر حتى تراءى لي أن ثقلاً باهظاً قد ارتفع

عن كاهلي، وإني انطلقت من الأسار لأتنفس ملء رئتي أو لاستنشق الهواء بحرية وهناء.

ورأى لوسيو ما طرأ علي من هذه النشوة العارمة، فتبسم وضحك وقال:

«أأنت سعيد؟ لقد ظننتك أبعد ما يكون عن السعادة»

قلت: «لا أكتمك أني تذوقت طعماً للسعادة التي خلتها تدين لي إذا ما اغتنيت.. وما أكثر ما داخلني شعور بأن شيئاً خفياً يبطنه الغنى قد جرني إلى أسفل بدلاً من أن يشدني إلى أعلى!»

قال: «لا أستغرب هذا، إنه لأمر طبيعي، فأكثر الملأ شقاءً أكثرهم غنى وثراء!»

قلت: «وهل أنت من الأشقياء؟»

وانحطت عيناه علي بنظرة مظلمة شاردة وأجاب:

«أولاً ترى أني أشقى الورى؟ وهل كنت تظنني سعيداً؟ وهل الابتسامة التي يفتر عنها فمي ـ الابتسامة المتكلفة ـ تجعلك تحسبني خلي البال؟! إن مالي لأكثر ما يتصوره عقل، وأنا أستطيع أن أحطم البلاد وأعمرها، ولكن.. كل هذا هباء لا معنى دائم له.. كله حطام بل رغام!»

وارتسم على صفحة وجهه كل ما في الكون من كبرياء واعتزاز وسخرية وزهد.. ولم أملك نفس إن قلت:

«عجيب أمرك يا لوسيو! فأنت كما يداخل حسي أحياناً،

تتألم من مصاب أليم حلّ بك في ماضيك، ولعلك تسر إليّ يوماً بما يكظك ويضنيك!»

فتعالت ضحكته في صخب ووحشية، حتى خفت؛ وضربني على كتفي بيد حديدة وقال:

«سوف أطلعك حتماً على الحقيقة، سوف أميط لك اللثام عن الخطايا والخبايا.. أجل سيأتي ذلك اليوم الذي أبثك فيه ما يمزق قلبي من آلام ـ إن أحزاني متأصلة الجذور، ولا يكفي لي اقتلاع هذه الجذور الراسخة واطراحها، بل لا بد من إزالة الذكرى ـ الذكرى السرمدية الأبدية ـ فالله لا ينسى، وعلى مخلوقاته أن يتذكر!»

وكان لوسيو بارعاً في كل مضمار، فإنه ما لبث حتى غير اتجاه الحديث فرجاني أن أوكل إليه مهمة إحياء حفلة كبرى في ويلوسمير في شهر أيار، واغتبطت نفسي لهذه الفكرة، فمتى اضطلع لوسيو بهذا الأمر أضحت الحفلة حديث الناس كلهم في لندن وضواحيها، بل في إنكلترا على مختلف نواحيها!

وستكون سيبيل زهرة الحفلة وملكتها المتوجة.. وسأبني عليها في حزيران فتصبح لي زوجاً وحبيبة، فأكون من أسعد الخلق طراً.. وهل بعد هذا من مزيد؟ هل أطمع في الأكثر؟

كلا.. إنه منتهى الأمل، والرجاء والوطر!

وحدقت في الوجه الرائع في خشوع، وقال هو:

«إن الحكمة الإنسانية مستمدة يا صديقي من الشيطان، هذا إن نحن سلمنا جدلاً بأسطورة شجرة العرفان ـ تلك الشجرة التي علمت ثمرتها الإنسان معنى الخير والشر، والتي لاتزال حتى اليوم تحثه على ركوب متن الشطط والاندفاع في أخاديد الغواية والإثم، إن الإنسان تابع ذليل لهذا الشيطان!»

ونكست رأسي وأنا محتار متردد بين المعاني والكلام..

وتركنا القصر وجلنا في الحدائق وجسنا خلال الغابات

وأمسكني لوسيو بغتة من ذراعي وقال وهو يومئ بأصابعه:

«أنظر.. أترى هذا المنزل الصغير الفارق في بحر من الأشجار والأزهار؟
إنها هنا.. هنا في هذا الكوخ النائي عن الإثم والجريرة، تقيم مافيز كلير!»

14 ـ المقابلة

صعد الدم إلى وجهي فابتدرته بانفعال:

«فلنرجع، هلم..»

«ولماذا؟»

«لأني لا أعرف هذه السيدة ولا أرغب في معرفتها»

«لأنها مزاحمتك في فنك، ولأنها تنتزع إعجاب واحترام كل إنسان، فهي عبقرية!»

«عبقرية! أراك سخياً في إضفاء النعوت يا لوسيو!»

فابتسم، وتقدم إلى الأمام وكأنه لا يأبه اعتراضي؛ وتبعته صاغراً، ولكني أزمعت أن لا أدخل الحديقة، وطرق سمعنا فجأة صوت ضاحك يقول في جرس موسيقي:

«أي تركسي.. أيها الصبي الشرير! أرجعها له واعتذر!»

ونظر لوسيو من خلال السياج ثم أشار إلي وهو يقول هامساً:

«ها هي ذي.. إنها هنا.. المرأة التي تخيف أعتى الرجال!»

ونظرت فرأيت امرأة شقراء ترتدي ملابس بيضاء ناصعة، وتجلس في

مقعد أشبه بالسل، وقد جثم على ركبتيها كلب صغير يحاول أن يحمي قطعة من البسكويت يزيد حجمها عن حجمه هو!

وعلى بعد خطوة أقعى كلب هائل وهو يوصوص بذنبه الضخم ويبدو عليه المرح والهدوء.. فأدركت فوراً أن الكلب الصغير اغتصب بسكويت زميله المارد الجبار وقدمه إلى صاحبته، وكانت فكاهة تتمتع بها الجميع كما بدا لي.. ولكنى لم أصدق أن هذ المرأة هي مافيز كلير ـ تلك المرأة ضئيلة الجسم، الدقيقة الأسارير، الفاتنة الملامح.. فمثل هذه المرأة التي أراها لا تصلح لأن تكون كاتبة طبق صيتها الخافقين..

وقلت وأنا أهز رأسي: «لا.. لا.. إنها ليست مافيز كلير بل إنها زائرة أملت بالبيت على الأرجح»

وارتفع الصوت الموسيقي ثانية يقول:

«تركسي.. أرجع البسكويت واعتذر..»

وتلفت الكلب الصغير وكأنه لم يفهم تماماً ما تطلبه سيدته ولكنه ما لبث أن أمسك بالبسكويتة الضخمة ووثب إلى الأرض ثم دنا معتزاً من الكلب الكبير.. وكان الأخير لا يزال يوصوص بذنبه ويبتسم كما تبتسم الكلاب أحياناً.. ووضع الكلب الصغير البسكويتة أمام زميله، ثم عدا محتجاً ودار على نفسه ثلاث دورات ورجع أدراجه.

ومشى لوسيو إلى الباب الخارجي فقرع الجرس وانتظر. وبدت لنا بعد فينة خادمة نظيفة مهندمة قال لها لوسيو بعد أن حيّاها:

«هل آنسة كلير موجودة؟»

قالت: «أجل يا سيدي، ولكني لا أعلم إن كانت تستقبل الزائرين في هذه الساعة»

قال: «فاحملي إليها هاتين البطاقتين»

وناولها بطاقته وبطاقتي وهو يبتسم بلطف وإغراء ودعتنا الخادمة إلى الدخول، ثم ابتعدت مسرعة فغابت بضع دقائق استطعنا إبانها أن نتأمل الرسوم والنقوش والكتب

وفتح الباب ودلفت إلى الداخل تلك المرأة الرقيقة العاجية المذهبة ـ جاءت امرأة لم ألتق بمن يضاهيها أو يماثلها ـ وعلقت أحدق فيها وأتفرس في أمائرها، وأتتبع خطواتها

وقال لوسيو وهو يهرع نحوها: «نعتذر لك على تعكير صفو خلوتك يا سيدتي، فإننا لما رأينا هذا المنزل الرائع لم نقو على الصمود في وجه التجربة فألمنا به ـ إنني أدعى ريمانيز ـ وهذا هو صديقي جيوفري تمبست الكاتب!»

ورفعت عينها إلى وجهي ببسمة يسيرة وإيماءة أنيقة وتابع لوسيو يقول: «وقد اشترى ويلوسمير وبهذا أصبحتما جارين متقاربين»

وقالت مافيز كلير وهي تمد يدها فتصافحه ثم تصافحني:

«يسعدني قدومكما أيها السيدان، فكثيراً ما يطرق غرباء لا أعرفهم باب بيتي.. ولكنكما لستما بالغريبين فقد تناهت إلي أخبار السيد تمبست.. ألا تجلسان؟»

وجلسنا، ودعت هي خادمتها فأمرتها أن تأتينا بالشاي وطفقنا نتجاذب

أطراف الحديث، وكانت مدهشة لبقة، وكانت تنتقل بين المواضيع وببراعة ويسر. وقالت تخاطبني بعد أن مضت بضع دقائق:

«أهذه أول مرة تزور فيها ويلوسمير؟»

قلت: «أجل، فقد اشتريت المكان بناء على نصيحة صديقي الأمير»

«وأنت قانع بالصفقة؟»

«أجل، بل أنا في غاية السرور، فما توقعت قط أن أظفر بمكان كويلوسمير»

وقال لوسيو: «وقد أصاب صديقي عصفورين بحجر، وسيقترن بابنة صاحب ويلوسمير الأول»

قالت: «هذا ما تناهى إلى علمي، وإني لأهنئ صديقك على ما ناله من حظوة ـ فالليدي سيبيل حسناء فاتنة، وإني لأتذكرها طفلة تظفر في هذه الناحية ـ وكنت أيضاً طفلة.. ومع أني لم أكلمها أبداً فما أكثر ما وقع عليها طرفي، ولا أشك في أنها تتشوف الأبصار إلى الساعة التي ترجع فيها عروساً إلى ويلوسمير»

وجاء الخادم في تلك الدقيقة بآنية الشاي فصمتت مافيز وانهمكت في تقديم الشراب الساخن لنا. ولما انتهت من ذلك جلست في مكانها وقالت تخاطبني:

«لقد قرأت كتابك فأعجبت به.. أما مقالك فكان أبرع وأبدع!»

فتضرج وجهي وأجبت منفعلاً:

«وأية مقال تعنين؟»

«ذلك الذي لسعتني فيه بلسان حاد.. وقد تمتعت به، وفطنت إلى وجودك فيه ولو كان غيرك وقعه.. مالي أراك مقطبا؟»

وتراقصت عيناها في ضحكة من يلهو بشيء، وتابعت تقول:

«وثق أني لم أغضب لما وصفتني به، فأنا عادة لا أتضايق من أقوال النقاد وإهمالي لا تتيح لي فرصة للتأمل بما يقوله الناس.. أما الذي استوقفني في مقالك، فهو ما لمسته فيه من الجانب المضحك!»

فقلت وأنا أشعر بالدوار: «الجانب المضحك؟»

قالت: «أجل.. فالغضب الشديد الذي تبدى بين السطور جعلني أضحك كثيراً.. وإني لآسف على ما سببه لك كتابي!»

وعوى الكلب الصغير فجأة، فنظرنا إليه فإذا به يحملق في ريمانيز ويتحفز للوثوب عليه!

وهرعت إليه المضيفة فأخذته بين يديها، ورفعت إلى لوسيو عينها المندهشتين وقالت: «لم أعهده شرساً، فما أصابه يا ترى؟»

وقال لوسيو: «إن الكلاب تنفر مني عادة، وهذا لسوء حظي»

وأعربت مافيز بعجل أن وضعت الكلب الصغير في غرفة أخرى عن رغبتها في الخروج إلى الحديقة، فوافقناها على رأيها، ولكننا ما كدنا نخطو إلى الخارج حتى زمجر الكلب الكبير المقعي على باب الحديقة ووثب بقوة هائلة لينشب أنيابه في عنق لوسيو وتنبه لوسيو للهجمة المروعة فقبض بأصابع من حديد على رأس الكلب، وضغط شديداً ثم نحاه عنه، وكأنه يلهو بدمية لا حول لها ولا طول

وحملقت مافيز مذهولة، ونظرت إلي متسائلة، ثم حولت عينيها إلى وجه لوسيو، وما عتمت أن أمسكت بطوق الكلب وقادته إلى الداخل، وعاودت أدراجها وهي تتمتم معتذرة

ثم سبقتنا وكأنها تود أن تستعيد هدوءها. وانتهز لوسيو فرصة ابتعادها عنا فقال:

«ما رأيك فيها؟»

قلت: «ليس لي إلا الاعتراف بطيبتها ورقة شمائلها.. أما كلباها، فهما متعبان كما أرى»

قال: «إن الكلب حيوان مخلص، ولهذا تراه يمقت الكذبة المجسمة»

قلت: «ماذا تعني؟ أأنا هي الكذبة المجسمة أم أنت؟»

قال: «أنا هي الكذبة فلا ترع.. أنا كذبة حية.. ولا أنكر ذلك.. أما هذه المرأة فهي الصدق المجسم، وتأبى أن تتكلف ما ليس فيها ـ إنها تظهر دائماً على حقيقتها، وهذا ما أضفى عليها الشهرة والصيت»

ولحقنا بها، فمشينا جنباً إلى جنب، وخاضت مافيز في حديث الأدب فاستحوذت على إعجابي، ولاشت ما كان يختلجني من ضغائن وسخائم

وتريثنا تحت دوحة فناء، وقال لوسيو وهو يطأطئ: «إنك تملكين من القوة ما يمكنك من مقاومة الشيطان»

قالت: «لست متأكدة من قوتي.. وإني لأتخيله كائناً خطراً له مشيئته وفيه إغراء ـ الملاك الذي انحط.. أقرأت ما صُوِّر ملتون به الشيطان؟ إن شعر ملتون آية من آيات الفن الرفيع ولا أملك نفسي كلما قرأت هذا القصيد من التأسف على ما حاق بالملاك!»

وران الصمت.. وارتفع صوت عندليب يصدح ويغرد، وهبت نسمة رخاء فتضوع الأريج الطيب وفاح العبير وقال لوسيو: «الوداع يا مافيز كلير!»

وكان صوته ناعماً رقيقاً.. وكان وجهه شاحباً تعلوه مسحة من الخضوع والتسليم

وردت عليه بهدوء: «رافقتك السلامة»

ومدت له يدها الصغيرة، فتناولها، ولثمها، وكانت هذه أول مرة أراه فيها يقبل يد امرأة

وقال بعد يسير: «كوني دائماً كما كنت وكما أنت! لا تدعي شيئاً يغيرك! احتفظي بطبيعتك المشرقة! لقد شاهدت الدنيا، وجلت فيها، والتقيت رجالاً ونساءً من المشهورين ـ ملوكاً وملكات، نواباً وشعراء وفلاسفة ـ واختبرت الدنيا وما فيها حتى غدوت رجلاً ملماً بكل شيء، أستطيع أن أحكم الرأي متى تقدمت به ـ ولهذا في وسعي أن أؤكد لك أن الشيطان الذي تتكلمين عنه بشيء من العطف والإشفاق مشوب بالرهبة والجزع، لأعجز من أن يكدر سلامك ويعكر صفوك وهناءك وأنت من أنت من النساء التقيات الطاهرات الناصعات ـ فالصنو يتبع الصنو ـ والملاك الساقط يبحث عن ملاك ساقط ـ والشيطان ـ لو سلمنا بوجوده ـ يغدو رفيق أولئك الذين تلذ لهم تعاليمه والاختلاط به. وتقول الأساطير يا سيدتي أنه يخاف الصلب ـ وإني لأقول عن يقين أنه لو خاف شيئاً ما لخاف من القناعة الحلوة.. وأنني أتكلم كمن خوله العمر الطويل حق الكلام ـ إنني أكبرك بعدد عظيم من السنين، ولهذا آمل أن تصفحي لي كثرة كلامي!»

ولزمت مافيز الصمت وبان على محياها العجب والتفكير؛ وحدقت

في أساريره بعينين باحثتين متسائلتين.. وكانت تفكر، كانت تفكر كما يفكر إنسان عظيم نقي ذهنه من الشوائب، ونقي قلبه من الأدران

وغادرناها ومضينا في سبيلنا وكلانا عازف عن الكلام منصرف إلى الفكر

وكان لوسيو يبتسم، وكنت أنا أحلق في سماء الفكر، فأرى وجهين جميلين يطلان عليّ من الأفق ـ أرى سيبيل بملاحتها التي لا تدخل الطمأنينة إلى القلب، وأرى مافيز، المرأة العبقرية المستسلمة لإرادة الله، القانعة، الراضية، الصامدة بقوة وإيمان في وجه التجربة، وفي وجه الإغراء، وفي وجه المطامع والأهواء!

أخذت استعد لحفلات زفافي بغرّة النساء سيبيل، وانهالت علينا الهدايا بكثرة هائلة، وكأن الناس كلهم صاروا أحباء وخلاناً! وكأن كل الذين ليس بيني وبينهم رابطة أصبحوا في مثل غمضة عين وفتحتها من المقربين الذين تجمعني بهم أواصر ودّ موطدة..

والناس إلا قلة، تبطن أمراً وتظهر سواه.. وهكذا ماعتمت حتى واجهت ناحية جديدة من خسة هذا المخلوق الضعيف، وختله ونفاقه ومراءاته!

اقترب يوم الزواج، وأخذت أحصي الأيام والساعات بفارغ الصبر. وحفزني الشوق إلى التنازل لسيبيل عن نصف ثروتي، ففعلت ذلك دون تردد، ولم أشترط شرطاً واحداً، مما جعل أباه اللورد يلهج في كل مكان بذكري

أما كتابي، كتابي الذي بنيت عليه الأماني، فقد لاقى الفشل الذريع على الرغم مما قرظته به الصحف المأجورة..

وأما أعمال الخير التي قمت بها، فلم تتعد نزولي عن عشرة جنيهات لهذا المستشفى، وعشرة جنيهات لتلك المدرسة، وعشرة جنيهات لذلك المأوى.. بينما كنت أحسوا الكأس بخمسة جنيهات، وأخسر المئة على المائدة الخضراء، وأغدق السماسرة والدعاة ما يكفي لانتشال عشرات العائلات من وهدة الفقر...

وهذه الأمور الصغيرة متجمعة أفضت بي إلى النتيجة المروعة وقرأت ذات صباح نبأ اشتراك جوادي «فوسفور» في سباق الدربي.. فقهقهت ضاحكاً فأنا لا أملك جواداً بهذا الاسم، ولا شك أنها مفاجأة جديدة يقدمها لوسيو لإثارة اللغط حول اسمي..

فلما فاتحته بذلك، قال:

«فكر كما تشاء، ولكن ثق أن فوسفور جواد يطير ويسبق الريح متى امتطى «أمييل» صهوته!

عجباً! وهل أمييل فارس أيضاً؟ وأين الجواد؟ أين هو؟

ولكن دهشتي لم يطل أمرها، فقد انصرفت عن قصة السباق، إلى قصتي أنا، فالزواج أضحى وشيكاً، وعلينا أن نرسل بطاقات الدعوة.. وأرسلناها بالآلاف، وتتالت الردود كلها حافلة بالشكر والثناء، ولم يعتذر غير نفر ضئيل، وكانت مافيز كلير من جملة من اعتذر، محتجة بالسفر..

وقد لحق بي شعور مرير بالخيبة، فأنا تواق إلى تقديم مافيز إلى سيبيل ولكنها كما أرى فوتت علي ما رغبت به رغبة صادقة ورأيت أن أفاتح لوسيو بالأمر، فلما فعلت لم يزد على قوله: «إنها امرأة ذات إرادة، ولا حيلة لي معها!»

وتساءلت يومذاك ـ ألوسيو هذا؟ أهذا العاجز تلقاء مافيز كلير هو لوسيو ريمانيز؟ لا أصدق ما أرى وأسمع؟ أتهزمه هذه الفتاة الضئيلة؟

ونسيت ذلك أيضاً، ومضى لوسيو في حملته، وجعل يري الناس عظيم أعمالي.. ويعرفهم قدري ومكانتي.. ويفرش الزهر والورد في كل مكان تحت أقدامي..

واقترب اليوم الموعود وتزايد انفعالي، وتزايد شوقي وتلبثت أنتظر وانا ظامئ صادي!

15 ـ الظامئة للحب

الدنيا ملعب...

والرجال والنساء ممثلون على خشبته..

أتحبني سيبيل؟

أحبها أنا.. أحبها..

أتحبني؟!..

انتهى النقاشون والحفارون والمزخرفون من عملهم في ويلوسمير فلبس القصر حلة زاهية من الفن، لم أملك معها نفس من شكر لوسيو على ذوقه وإخلاصه

قصدت القصر معه مصطحبين أميل خادمه قبل موعد الحفلة بيوم، فلما جلنا في أنحائه راعني حسنه وبهاؤه، إلا أن لوسيو تضاحك ساعة أعربت عن تقديري الشديد لطول باعه، وأجاب:

«المال.. المال يا عزيزي يفعل الأعاجيب!»

ولما جن الليل ذهب لوسيو إلى مخدعه وخرجت أنا إلى الحديقة فقضيت فيها ساعة، ثم أبت إلى القصر فصدفت أميل يتلصص الخطو قريباً من مدخله، فحييته وتريثت

واسترعى انتباهي ضوء أحمر يخفق في غرفة الأمير صديقي فقلت لأميل وأنا أشير إلى أعلى:

«ولم الضوء الأحمر يا أميل؟»

ففكر الرجل ثم طأطأ وابتسم وأجاب:

«أصبت يا سيدي إنه لضوء أحمر!»

وعدني نفوري القديم على أشده من الرجل الصامت الغامض.

واستلقيت على مرقدي وأرهفت السمع

ولم يكن هناك صوت ما؛ ومضت الدقائق وأنا أصيخ بانفعال وكأن حاستي السادسة تتوقع أمراً خفياً لا أدري له كنهاً

واستولى علي الكرى أخيراً فنمت وسبحت في جو فسيح من الأحلام

حلمت أني رجعت فقيراً ـ فقيراً، ولكن سعيداً، أكتب بنشاط وحماس، وأصعد درجات الشهرة بخطوات متسعة.. وسمعت كرة أخرى صوت الكمان ـ سمعت تلك الألحان التي ودعني بها جاري ليلة انتقالي من حالة المتربة إلى الغناء والثراء والمجد! ومضيت أكتب في هذا الحلم، وأكتب وأكتب.. وصدح العندليب، ورأيت، رأيت من بعيد ملاكاً يرفرف بجناحيه ويسبح في الفضاء نحوي رأيت ملاكاً مقبلاً علي محمولاً على جناحين من ضياء وتبينت فيه وجه مافيز كلير!

وتبلج فجر صاف زهت سماؤه وشعت شمسه. ولم يقع طرفي قط فيما مضى على منظر يسحر الأفئدة مثلما رأيت الآن فحدائق ويلوسمير وغاباتها أضاءت في ذلك الصباح بشمس الربيع الدافئة. ولما أجلت طرفي

فيما يمتد تلقائي، امتلأ قلبي زهواً ثم خفق خفقة السرور وعندما بدا لي وجه سيبيل الوسيم، وعندما رأيتها بعين مخيلتي تميس دلالاً بين هذه الحدائق والغابات

وصحت بملء صوتي:

«ليقل الفلاسفة ما يقولون، فحيازة المال تتيح الرضا والقوة. لا جناح على الإنسان من التبجح بكلمة الشهرة، ولكن ما قيمة الشهرة متى كان المرء أفقر من أن يتذوقها!»

وصمت واسترسلت أتابع فكري دون كلام ـ وفضلاً عن ذلك كما فكت ساعتذاك، فالأدب قد تزعزعت مكانته، وهناك كثيرون يتبارون ويتنافسون ـ هناك كثيرون يظنون أنهم عباقرة مخلدون ـ كثيرون يعتقدون أنهم موهوبون كجورج صاند ومافيز كلير!

أواه! لكم كنت أناقض حقيقة إحساسي! أنا من تاق إلى المجد أذم فيه الآن وأقدح، ولعلني شعرت بإخفاقي فامتلأت نفسي حفيظة وأخذت أهاجم الأدب والأدباء والشهرة وطالبيها

تلك المكانة السامية التي صبوت إليها وأنا فقير أضحت في نظري الزائف وأنا غني شيئاً تافهاً لا يؤبه له

واجتمعت إلى لوسيو بعد قليل فرأيته في أحسن حال من الانشراح، وكان كل شيء معداً بصورة رائعة للحفلة الكبرى، وقد أخبرني أن الفرقة الموسيقية ستأتي إلى القصر الساعة الواحدة، كما أخبرني أن جوقة الراقصين ستأتي أيضاً في تلك الساعة

ومضت ساعات الصباح بطيئة مملة، وما وافت الساعة على الواحدة حتى توافد المدعوون وفي طليعتهم سيبيل ووالدها اللورد

وقد هرولت نحوها مرحباً وأمسكتها من يدها وأنا أقول:

«أهلاً بك إلى منزلك يا سيبيل!»

ورفعت سيبيل الفاتنة عينيها إلى وجهي بشرود، ثم ترقرقت الدموع في تلك العينين الساحرتين وهي تتأمل المنزل والحديقة وما يكتنفهما من أشجار باسقة.

وسرت معها ويدها في يدي حتى دخلنا القاعة الكبرى فتلقانا لوسيو بابتسامته العجيبة

ودنا وصيفان لطيفان من سيبيل على حين غرة فألقيا على قدميها سلتين من الورد والزهر، فتضرع المكان بالأرج وفاح العبير، فثملت نفسي وضغطت على يدها متودداً. وتلفتت سيبيل حولها بوجنة متضرجة، وقد شعت عيناها بنور الهناء والظفر.

ومدت يدها إلى لوسيو فانحنى وقبلها، ولكن القبلة كانت تختلف عن تلك التي طبعها على يد مافيز كلير.

ولما اكتمل الجمع أعلن الحاجب أن ساعة الطعام قد أزفت فدلفنا إلى قاعة الأمل وطعمنا وشربنا، حتى إذا اكتفينا خرجنا ثانيةً إلى الحديقة حتى شاهدنا ما جعلنا كلنا نحملق بعيوننا مشدوهين مبهوتين.

ففي حلقة صغيرة جلس عدد من الأحداث الفتيان والفتيات، وقد تلفعوا بملابس لم أر لها مثيلاً من قبل، وكانت وجوههم من أجمل الوجوه التي أبدعها الله.

وشرع الأطفال يرقصون على نغمات شجية، ورقصوا ووقعوا بأقدامهم بحركة بارعة طبيعية لا تكلف فيها. وكانت حركتهم خفيفة رشيقة؛ وكانت وجوههم تشع وعيونهم تبرق وكأنها جمرات.

وامتلأ الجو بالأرج وأُفعم بالطيب، وارتفعت أصوات الضحك وأخذت سيبيل تهتز من الطرب وتتمايل إلى جانبي، وكأنها عود بان يترنحها النسيم فتختال كحورية من حوريات الجنان.

واختفى الأطفال لأول إشارة من يد لوسيو، اختفوا وكأنهم لم يكونوا، فداخلني إحساس عجيب تساءلت عن سر صديقي كما تساءلت عن مصدر تلك السطوة التي يتمتع بها ويفرضها فرضاً على الجميع.

وخلوت بعد ساعة إلى سيبيل في مكان معشوشب قريب من النهر، وقلت وأنا أطوق خصرها بذراعي:

«أي سيبيل، هل تعلمين كيف تحبين؟»

قالت: «أجل!»

«وكيف؟ كيف تعلمت؟»

«تعلمت ذلك بطريقة عجيبة ودون سابق إعداد! كان الدرس هيناً وسأطلعك فيما بعد سوف تعلم كل شيء عندما يحين الوقت»

وقهقهت ضاحكة، والتفتت فيما حولها ثم ارتمت في أحضاني وقبلت شفتي قبلة جعلتني أشعر بالتهافت، فهتفت وأنا أتلمظ رضاها:

«سيبيل! سيبيل! يا حبيبتي - أنت تحبينني! تحبينني أخيراً!»

فقالت بصوت متهدج:

«صه، صه! عليك أن تنسى القبلة! كان ذلك خطأ... كنت أفكر بشيء آخر... أواه! يا ليتني ما تعلمت الحل! لظلت سعيدة خالية البال!»

فثلمت نفس وقلت وأنا أشدد الضغط عليها:

«ألم أخبرك من قبل أنك ستتبدلين؟»

«أنت دائماً تعلم! ولكنك لاتزال تجهل ما طرأ علي»

ونزعت نفسها مني وقالت وهي تقتطف زهرة حمراء صغيرة:

«كنت هانئة أفكر بطهر وبراءة كهذه الزهرة؛ كانت الأفكار الشريرة بعيدة عني، والحب الوحيد الذي حلمت به هو حب فارس الأحلام الطاهر الذي يشبه الزهرة وشذاها...

أجل، كنت يومذاك ما أرغب في أن أكونه اليوم هذا ـ كنت ما فقدت!»

«أنت كل شيء جميل حلو»

«هكذا تقول بصفتك رجلاً قانعاً كل القناعة بزوجته الجميلة، ولكنك مخطئ، أنت تصفني بالجمال والروعة ولكنك لا تستطيع أن تصفني بالطيبة..»

«ماذا؟ أنت يا حبيبتي عنوان الطيبة.. أنت مثلاً المرأة الكاملة!»

ورجعنا أدراجنا فمررنا بمنزل مافيز كلير.. ولما رويت لسيبيل ما جرى بيننا ابتدرتني تقول:

«وهل أعجبت بها؟»

«كثيراً فهي رائعة في منظرها وفكرها»

«والأمير.. هل مال إليها؟»

«أظنه يحبها أكثر مما يحب أي امرأة أخرى»

فصمتت واسترسلت في الفكر وأرسلت البصر على سجيته يرود تلك البقعة. كانت تفكر، وكان الدم يفرّ من وجنتيها ببطء وترامى إلى آذاننا صوت الموسيقى والغناء، فانشرح صدري ولكني لما رنوت إليها رأيت الشقاء مرتسماً على صفحة وجهها، ورأيت دمعتين كلؤلؤتين تنحدران من مقلتيها!

جنحت الشمس للمغيب فخرج من البيت بضعة وصفاء، أخذوا ينحنون للضيوف ويوزعوا عليهم بطاقات كتب فيها ما سيشاهدونه من أدوار تمثيلية. فهرع الجميع إلى ملعب التمثيل. وصدحت الموسيقى فشنفت الآذان، وكانت الألحان مذهلة لم نكد نسمعها حتى أخذنا بها ونسينا كل شيء آخر سواها.

وبرز إلى المسرح خيال امرأة متلفعة بأثمن ثوب شاهدته في حياتي. وكان شعرها متوجاً بالجواهر، محلى بالياقوت ـ وقد ارتفع رأسها قليلاً، وافتر ثغرها عن ابتسامة ندية. وكانت تمسك بيدها قدحاً من الشمبانيا. واقتعدت الأرض خلفها امرأة ثانية، وكانت ممسكة بثوبها، وقد ارتدت الأطمار، ووضعت على جسدها الأسمال، بينما انطرح جانباً مثل طفل ميت

وظلل المرأتين والطفل الميت شبحان هائلان، لبس أحدهما الأرجوان واتشح الآخر بالسواد. أما الشبح القرمزي فكان بمثل الفوضى بينما كان الثاني يمثل الموت

وسادنا صمت رهيب، وحبس الجميع أنفاسهم، ولكننا تنفسنا الصعداء جميعاً ساعة أسدل الستار، وكأن المشهد الرهيب كان مشهد الحقيقة التي تكتنف الحياة.. الموت والفناء بعد عيش هو الفوضى والارتباك والقلق

وتتابعت المشاهد التي أعدها الأمير لوسيو، وكانت كلها نسيج وحدها في نوعها وطريقتها.

ومضى قطع من الليل وانتهى التمثيل وانتهى الغناء فقصدنا إلى بهو ثان صفت فيه الموائد، فجلسنا إليها وأقبلنا على الطعام والشراب بشهية ولذة.

وكانت سيبيل تأكل وتشرب صامتة مركنة إلى الفكرة بينما نحن منهمكين في التهام واحتساء ما أمامنا وقد ساد اللغط وارتفعت الأصوات، إذ طرق سمعنا صوت جرس عميق يدق اثنتي عشرة دقة وانتصب لوسيو واقفاً وفي يده كأسه المترعة، فرفعها إلى أعلى وقال:

«سادتي وسيداتي!»

وانقطعت الأصوات وجمدت الحركة، وأرهف الجميع أسماعهم وأعاد: «سادتي سيداتي! لقد انتصف الليل ولا ندحة للأصدقاء من الافتراق! ولكن قبل أن نفعل ذلك، لنتذكر دوماً أننا اجتمعنا هنا لنتمنى السعادة كل السعادة لمضيفنا جيوفري تمبست ولعروسه الليدي سيبيل إيلتون!»

وهتف القوم بأصوات صاخبة

وتابع يقول: «يقال إن الجد لا يأتي عندما تكون اليدان مليئتين بيد أننا في هذا المقام نرى عكس هذا القول المأثور- فصديقنا لم يضمن لنفسه

سعادة الجاه فحسب، بل ظفر أيضاً بكنوز الحب والجمال والفتنة مجتمعة فالغنى الذي لا حدود له شيء مرغوب فيه مطلوب، غير أن الحب الذي لا سدود له هو أفضل، والاثنان قد أصبحا ملك يد العروسين اللذين نحتفل بهما ونأكل ونشرب في قصرهما»

وصمت صديقي وهتف الجميع بصوت واحد طالبين لنا السعادة متمنين الهناء والرفاهية.

وتفرق الضيوف بعد دقائق قليلة واستقلوا القطار. وشيعت سيبيل إلى مكان بعيد بعد أن رجعت أدراجي فدخلت القصر بخطى متعثرة تبعة فألقيت لوسيو يجلس وحيداً، فلما أحس بوجودي انثنى بوجهه نحوي، فإذا وجهه تعلوه صفرة شديدة، وإذا تقاطيعه تنم عن ألم سرير، فذعرت وابتدرته أقول:

«أنت متعب مريض يا لوسيو»

قال: «قد أصابني بعض الكلال فلا ترع، فالأمر سببه جهادي اليوم والبارحة. وفوق ذلك لا أنكر أني مصاب بعلة تراجعني بين الوقت والوقت»

قلت: «وما كنه هذا المرض؟ إن وجهك شديد الشحوب»

فحدجني بنظرة هائلة تفيض منها ظلمة حالكة، ثم قال:

«علتي عجيبة بين الملل ـ إنها الندامة، انه التبكيت! ألم تسمع بهذا المرض يا جيوفري؟ أنه الدودة التي لا تفنى واللهيب الذي لا ينطفئ!»

قلت: «إلا أن الندامة ليست مرضاً جسدياً»

«أو تظن أن المرض الجسدي هو الذي يمض النفس فقط؟ وهل نستمر

في اعتبار الجسد كل شيء له معنى بالنسبة لنا؟ ألا فثق أن هذا الجسد هو جبلة من طين لا يلبث حتى ييبس ويتشقق ويتفتت»

وأضجرني في الحديث فقلت وأنا أتعمد تغيير مجراه:

«وأين الفنانون والعازفون؟ أتراهم أكلوا وشربوا ونالوا قسطاً من الراحة؟»

«لقد بارحوا المكان»

«ذهبوا! كيف؟ كيف ذهبوا دون أن يطعموا ويشربوا؟»

«لا تشغل فكرك بهذه الأمور، ألم أقل لك أنني متى أخذت على عاتقي القيام بعمل، أبذل جهدي لإتقانه؟»

فنظرت إليه مشدوهاً فتبسم، ولكن عينيه كانتا تستهزئان..

وقلت وأنا لا أصدق ما أرى وأسمع:

«إنني أثق بمهارتك وقوة إرادتك، ولكن عدد هؤلاء كان يربو على الثلاثمائة، فأين هم؟ وكيف تلاشوا؟»

«أخالك لا تدري أن المال هو سحر الشيطان»

«ألا إن المال أحياناً يعجز عن إتيان العجائب»

«المال قادر على كل شيء، إنه خداع يخلب الشيطان فضلاً عن الإنسان»

«لوسيو! لقد اختلط علي الأمر واستبهم، وأني لأرغب في أن أعرفك كما أنت إنني أشعر بأنك كنت على حق يوم قلت أنك لست ما أنت»

«سأقنع غليلك وأروي ظمأ نفسك وعطشها.. أعدك بذلك، سأكشف لك النقاب يوماً ما، ولعل معرفتك بحقيقتي تفيد الغير»

وفارقته وفي رأسي خواطر متزاحمة متصارعة، ولما غشيت غرفتي ألفيت فيها أمييل، فصرفته بكلمة جافة وانطرحت على سريري ونمت.

نمت.. ولكن القدر لم ينم

ظلت عيناه مفتوحتين.

ظلت يده مبسوطة مرفوعة.

نمت... ولكن القدر لم ينم!

16 ـ رجل شهير

مضت بضعة أيام واستيقظت في صباح أحدها كما استيقظ الشاعر بيرون ـ لأجد نفسي رجلاً شهيراً! لم أجد نفسي شهيراً لعمل جليل قمت، ولا لفعلة أظهرت بطولتي فيها، ولا لموقف حاسم حازم في سياسة أو معركة... كلا!... استيقظت والشهرة تملأ الدنيا ضجيجاً باسمي لأن جوادي فوسفور ربح سابق الدربي!

لقد كان فوسفور ينهب الأرض نهباً وبجانبه جواد رئيس الوزارة فلما اقترب الجوادان من خط النهاية، انكمش أميل على نفسه فوق فوسفور وأهاب به بكلمة غير مفهومة فقفز الجواد قفزة من يطير، وحاز النصر!

وغدوت بطلاً، غدوت معبود الجموع والجماهير.. وابتأست نفس رئيس الوزارة ـ إنه لا يعرفني وأنا لا أعرفه.

وقدمت إلى ولي العهد، فصافحني وهنأني. وأعرب النبلاء كلهم عن رغبتهم في معرفتي.. وضحكت فيما بيني وبين نفسي، وضحكت ملياً ساعة رأيتهم يتزاحمون حول فوسفور

وعندما غادرت الحلبة تبعني لوسيو وقال:

«على الرغم من صلفك وغرورك أجد فيك يا جيوفري شيئاً حساساً نبيلاً ـ شيئاً يتمرد في قرارتك ضد الزيف والخداع والتمويه، فلم يا ترى لا تطلق هذه الفضائل من عقالها؟»

قلت متعجباً: «ماذا تعني؟ لماذا تريدني أن أظهر على حقيقة سجيتي؟ أتود أن أجابه الأخرق بخرقه؟ أتريدني أن أقول للكذوب إنه آفك؟ ثق يا صديقي أنني إن فعلت، واندلعت النيران في المجتمع لتحرقني»

قال: «ولن تكون أحر من نيران جهنم أو أبرد، إنني لا أرغب إليك في الجهر برأيك بهذا الأسلوب، والوسيلة الوحيدة هي أن تتصرف بنبل وإخلاص وصدق لا أن تفصح عن مشاعرك وأحاسيسك»

«وماذا تودني أن أفعل؟»

«ربما أدهشك ما قد أزجيه لك من نصيحة، أما نصيحتي فهي أن ترخي العنان للجانب الطيب من طبيعتك، لا تضحي بما تشعر بأنه حق وعدل الإرضاء من تهاب جانبهم.. وغادرني، وابتعد عني! فأنا لا أنفع لك إلا بما أسديه لشخصك من مساعدات تشبع غرورك وتستهويك.. ثق مما أقول يا جيوفري، فخير لك كل الخير أن تنأى بجانبك عن هذه الأباطيل، وستنكشف لك الفائدة الجمة التي ينطوي عليها كلامي ساعة ينصرم العمر ويطل عليك شبح الردى بأنيابه المفترسة! أهرب من المجتمع، اترك المجتمع في ضلاله، كن شجاعاً، كن شريفاً، وابتعد قدر طاقتك ـ افعل كما قال المسيح للحاكم الغني ـ بع نصف ما تملك وأعط الفقير»

وصمت، لم أحر جواباً، وفكرت ملياً فيما سمعت، وما عتمت أن قهقهت ضاحكاً وربت كتفه وقلت: «نصيحتك أيها العزيز جديرة بكل تقدير، بل إنها نصيحة خليق بالبشر الذي يدعو الناس إلى الطريق السوي أن ينشرها بين الملأ، إلا إنها لا قيمة لها بالنسبة لي لأنها نظرة إلى نظرية خيالية خالية من المعاني المعقولة، فصرف نفسي عن محبتك معناه جحود

لا مثيل له بين أنواع العقوق.. ثم إن المجتمع رغم عيوبه كلها عنصر لازم لزوماً أكيداً. وأخيراً، لو فعلت باقتراح اليهودي الخالد..»

فقاطعني يقول ونظرته تتجمد وتبرد وتتركز على وجهي في حدة:

«ماذا؟ المسيح؟»

قلت: «أجل!»

ولاح على شفتيه شبح ابتسامة، وأشاح وجهه عني وهو يقول:

«إن الكفر أصبح بدعة العصر، إنه علامة الذكاء في الأدب والدهاء في المجتمع ـ آه، نسيت نفسي، ماذا كنت تقول عن المسيح أو اليهودي واقتراحه؟»

«نعم، متى أعطيت نصف ما أملك الفقير، فلن أشكر، وسيعتبرني الناس معتوهاً»

«وهل يسرك الشكر؟»

«كثيراً، ومعظم الناس يرغبون في سماع كلمة يعترف بها الغير بفضلهم»

«أكذلك هم؟ وما شأن الخالق إذن الذي يهب ولايني يهب أنشكره على معروفه؟»

وافترقنا كالعادة ونحن على طرفي نقيض.. ذهب وذهبت، وفي نفسي أشياء، وفي نفسه.. لا أدري

وعقدت قراني على سيبيل في اليوم المعين من حزيران، وكان يوماً حافلاً مشهوداً تجتمع فيه صفوة القوم والنبلاء والأشراف والاغنياء..

وجاء ولي العهد بأبهته وعظمته، وكان لوسيو بين العرس، كان في أحسن حال من السرور والمتعة وقد صحبني في عربتي إلى الكنيسة، فلما ترجلنا قال ضاحكاً:

«هل سمعت من قبل أن الشيطان لا يدخل الكنائس لما يعلوها من صلبان؟»

فقلت وأنا ابادله الضحك:

«سمعت ببعض هذه الترهات»

قال: «إنها لترهات ـ لأن مبتدعي الأسطورة غاب عن بالهم أنه قد يكون هناك صليب ـ ولكن ـ هناك أيضاً كاهن.. وحيثما وجد يوجد الشيطان!»

وأعجبتني عبارته، أعجبتني لأنها تمالئ حسي في اعتقادي ببطلان كل ما يمت إلى الدين بصلة.. الألحان الشجية المنبعثة من الأرغن حتى تنبه شيء راقد في أعماقي فشعرت بالخوف وبالرعبة، وبالفزع

وأن أنس لا أنس حادثة تبعث شعائر الزفاف، فعندما وقعت سيبيل بامضائها انحنى لوسيو فقبل وجنتها كالعادة المتبعة، فتخضبت تلك الوجنة ثم فرّ الدم منها، وما لبثت أن ترنحت في مكانها وسقطت بين ذراعي وصيفتها.

وفزع الجميع وطار صوابي ولكنها عادت إلى رشدها وضحكت وزعمت أن الدوار أصابها فجأة.

وبارحنا محراب الصلاة إلى منزل اللورد إيلتون فقضينا فيه ساعة وغادرناه بعد ذلك فركبت مع سيبيل عربة فخمة، ودنا منا لوسيو وقال:

«سترافقكما روحي في حلكما وترحالكما، وعند أوبتكما سأكون أول من يرحب بمقدمكما»

وابتعد عن العربة وهو يتمتم وينظر إلى سيبيل:

«إلى اللقاء، ليكن الهناء من نصيبك، أحبي، فالحب أغلى من الغنى ـ لقد اكتشفتِ هذه الحقيقة كما أعلم! فكري بي أحياناً!»

وساط الحوذي جياده فتحركت العربة، وابتعدت قليلاً قليلاً، وأدركنا أنا وسيبيل أننا أصبحنا وحيدين ـ وحيدين لمواجهة المستقبل ولمواجهة نفسينا ـ وحيدين لنتعلم سوياً درس الحب.. أو الكراهية.. ولنسعد أو نشقى...

لا أستطيع أن أتأثر تلك السلسلة المتتابعة من الأحداث... تلك السلسلة من الأشباح.. أشباح شرسة وحشية مضت مع الأيام والأسابيع، وحملتي بالتدريج إلى زمان ألفيت نفسي فيه أتيه كالمصاب بالعته، كالمطعون في القلب على شواطئ بحيرة سويسرية ـ بحيرة صغيرة زرقاء، وفي قاعها فكرة صافية كتلك التي تنعكس في عين غلام! وقد حدقت في المياه الصافية المتألقة دون أن أرى شيئاً ـ وكانت القمم المكللة بالثلوج أعلى من أن يرقى إليها بصري ـ فالسمة، والطهر، والإشعاع، لم يعد ذهني يستوعبها أو يطيقها ـ ذهني الكليل المحطم المرهق بأثقال لا قبل له على احتمالها..

فيا لسخفي! يا لسخفي! وكيف آمنت فيما مضى أن هذه الدنيا تحتوي شيئاً يدعى السعادة، وقد تحداني الشقاء ففي وجهي؟ وقد ساءلت نفسي: «ماذا فعلت حتى استحققت هذا العناء؟ ماذا فعلت؟ وهل يستطيع الثراء أن يشفيني من سقمي؟ ولم كان القدر ظالمي؟»

وتكلمت عن الظلم، وتحيت الله، لأني لم أدرك أن ما أقاسيه، هو لا شيء سوى القسطاس الذي وضعته السنة الأزلية، والذي يطبق بطريقة رياضية، مثله في ذلك مثل الإجرام السماوية وحركتها في فلكها.

آه وما نفع حياتي؟ ونظرت إلى البحيرة ورأيت في مائها الرقراق وجه سيبيل... ورأيت فيها أيضاً تفاهتي، وتساءلت:

«ما نفع الحياة، وقد رأيت ما رأيت وعلمت ما علمت؟ وقد رأيتها في رجسها، وعلمت أن المرأة التي أحببت، والتي لا أزال أحب بطريقة بغيضة، لم تكن سوى مخلوقة أخطر من أتفه مومس تبيع جسدها لكل مار! وإن ذلك الجسد البديع، والوجه الملائكي، لم يكونا سوى قناعٍ جذابٍ لروح ظامئة للغواية متشربة بالغدر، مصهورة في بوتقة الرذيلة...رباه!

وخرجت الكلمة ـ كلمة استخارة ـ من حلقي، وأنا أرى أفكاري تدور في حلقة مفرغة...

وانهرت على الحشائش، ودفنت وجهي بين كفي، وذرفت الدمع السخين... بكيت طويلاً، ونشجت، ونشجت، حتى بللت الأرض بمدامعي!

ورغم ذلك فقد دارت في مخيلتي أفكار أخرى قسرتني على استعراض موقفي وحالتي ـ أفلا ألام أنا على ما حصل، ألم تعترف لي بأنها مخلوقة ملوثة، دربها المجتمع على طرقه وأساليبه المنحرفة؟ فماذا أصنع مع امرأة تربطني بها أواصر أبدية لا يحلها إلا الموت؟ هل أصلحها؟ إنها ستسخر مني وتهزأ إن سعيت إلى هذا الأرب... هل أصلح نفسي؟ أنها ستضحك حتى تستلقي لطرافة ما أقدم عليه.

المعذب.. المعذب الذي هو أنا، هرول مبتعداً عن البحيرة وهام على وجهه...

شهر واحد فقط مضى على زواجنا، ومع ذلك فقد انهار أملي واتضح لي من الأيام القليلة التي مرت علينا، أني تزوجت امرأة حقيرة لا قيمة لها..

والذي أذهلني وملأ قلبي يأساً هو النفاق الذي شاب حركتها وكلامها.. فهي كاذبة آفكة، وهي مراوغة مخاتلة مداهنة.. هي مجبولة على الرياء والنفاق والمين.. والجمال! ما قيمته، وأعماقها خالية تماماً من كل مايمت إلى الجمال بصلة؟

والغلطة الفاحشة ـ غلطة الدهر هائلة ـ الدهر أبرزها آية من آياته، ولكنه لم يضع في مهجتها إلا كل قبيح قذر... الدهر! وتكشفت لي الحقائق تباعاً بعد مرور يومين فقط على زفافنا؛ فإننا حططنا الحال في باريس، فوردت إلينا برقية تنبئنا بموت والدتها. فلم تتأثر سيبيل، ولم تستبدل ملابسها الزاهية بملابس الحداد.. لم تبد من الحزن أقله، ولم ترف دمعة واحدة على أمها الراحلة... والذي قالته كان دليلاً على انعدام شعور الإنسانية فيها.. قالت:

«ما جدوى الأسى، وأمي بموتها ارتاحت من أوجاعها؟»

ثم استتلت مبتسمة بتهكم: «ومتى يا ترى تصلنا بطاقة اقتران أبي بعشيقته؟»

ولم أجبها بكلمة، فحيرتي ألجمت لساني، وحزني وألمي الذين لمستهما من افتقارها إلى الصفات النبيلة جعلاني أصمت صمت رجل خاب فأله..

إنها صدى من أصداء الماضي، والذكريات باقية، الذكريات تلسعني وتغري حشائشي

وإنني والحق يقال قد بعلت على حيوان جميل يضطمر جسده على روح لا تعرف الحياة والخجل!

ولا يسعني إلا الاعتراف بأن زواجنا كان مجرد التقاء الحيوانين الذكر والأنثى وفي اتحاد جسدي قذر... هذا كل شيء، أما المشاعر الإنسانية، وأما تفاهم الروحين، والاحترام المتبادل، والإخلاص الناضح بالمودة والحنان، فلم يكن له وجود بالمرة فأين الثقة الذهنية والروحية؟ وأين الرباط الروحي الداخلي؟ من هذا كله؟ أين؟

والفراغ.. الفراغ في دنياي.. وي! ما أشده وما أحلكه! فما أصنع بحياتي الناضبة؟ أأبحث عن الشهرة؟ الشهرة الحقيقية غير الزائفة؟ أأسعى لها وعين سيبيل الساخرة العابثة تراقبني وتهزأ بي؟ كلا.. هذا محال! محال! ولا جرم أن كل قوة خلاقة في داخلها ما كانت لتبقى يقظة متنبهة مادامت سيبيل لا تذخر وسعاً في تحطيم كل شيء صالح له قيمته وله قدره ومكانته.

وجنحت الشمس للمغيب في ذلك اليوم، ورجعت أدراجي إلى الفيلا التي نزلنا فيها، فرأيت سيبيل تجلس في كرم وثير وهي تشخص إلى الغسق بشرود وفي يدها كتاب ـ أقذر كتاب نشرته المطابع على الإطلاق ـ وبجنون الرجل الذي يرى امرأته تتردى في الحمأة اختطفت الكتاب فمزقته إرباً إرباً!

ولم تحرك سيبيل ساكناً، بل التفتت إلي بهدوء عجيب وقالت بابتسامة طفيفة: «ما أعنفك اليوم يا جيوفري!»

ورمقتها بعينين جاحظتين متلظيتين. وكان من قمة رأسها إلى أخمص قدميها آية رائعة من آيات الحسن والفتنة ـ كانت كاملة في كل مظهرها ـ لا

أجهل ذلك، ولم أجهله من قبل ـ تحلي غادة لا تضاهيها غادة، وهي غانية تبذ الغانيات كلهن بجمالها وروائها!

ووجب قلبي بشدة متناهية، وأحسست بأني أختنق! فراودتني نفسي على قتلها.

ولكنني قلت: «أنا آسف، بيد أني أكره رؤيتك تقرأين كتاباً من هذا النوع»

فتساءلت وعيناها تبرقان: «أو اطلعت أنت عليه؟»

«حدست محتوياته حدساً»

«لماذا فعلت هذا؟ أليس من الخير للفتاة أن تعلم ما ينتظرها بعد الزواج؟ أليس من الأمور المرغوب فيها لدى النساء أن تعرف الواحدة منهن أسرار الحياة الزوجية قبل حلول الليلة الأولى؟ أتودها أن تدخل المخدع الفواح بالطيب وعيناها تغشاهما سحابة الجهل؟»

واستعر أوار غضبي، وزالت غيرتي من مافيز كلير، فأجبتها بلهجة صارمة: «وماذا يصرفك عن كتب مافيز كلير؟ لم لا تطالعين مثل هذه الكتب؟ ألأنها تنزه الروح وتقدس الطهارة؟ ألأنها أبعد ما يكون عن الابتذال؟»

«كلا، بل لأنها قليلة، وعلى المرء أن ينتظر سنين طويلة ليحظى بكتاب من هذه الكتب.. ثم إن آراء مافيز كلير تملأ قلبي بالهموم!»

فرددت: «الهموم؟»

قالت: «أجل، فإن الهم يستحوذ علي متى صادفت إنساناً يؤمن بالله، ومتى اكتشفت أنك لا تستطيع أن تفعل ذلك ـ إن مافيز تدعوك إلى الإيمان،

وأنت أعجز ما يكون عن تلبية النداء.. أن مافيز تعيش في سعادة وهناء، وأنا أبعد ما يكون عن السعادة وعن الهناء.. ألا تورثك هذه الأفكار كل ما في الكون من هم وغم؟ ألا تشقى إذا قرأت لمافيز كلير، وأنت من أنت، وأنت ما أنت، وأنت المجبول من طينة مغايرة؟»

وبدت لي في تلك الفينة كملكة المأساة ـ فقد اتقدت عيناها، وانفرجت شفتاها، وأخذ صدرها ينتفض مع نفسها المنبهر وتقت إليها، فخالجني شعوران ـ شعور الصبابة والوجد، وشعور المقت والنفور ـ ولكني لمست يدها برفق، فمدتها إلي ثم نهضت فمشت معي تختال بقد مياس.

ونظرت إلى السماء وشخصت إلى النجوم المتلألئة، وتمتمت بصوت خفيض:

«مسكين يا جيوفري! إنني حزينة من أجلك! وأنا رغم شذوذي وانحرافي عن جادة العرف، لست بالبلهاء، وقد تعلمت كيف أحلل مشاعري وأحاسيسي وأفكاري. وكذلك تعلمت كيف أحلل مشاعر وأحاسيس وأفكار سواي من الناس.. أنني أقرؤك كما اقرأ الكتاب، وأرى تلك الثورة العاتية المضطرمة في عقلك! أنت تهواني وأنت تشنأني! ولكن، ماذا تود أن أكون؟ أملاك تريدني أن أتمثل لك؟ واعلم أني لا أستطيع أن أكونه إلا للمحة عابرة.. أقديسة، لكن القديسين والقديسات استشهدوا بعد أن نكل بهم.. أم تريدني امرأة مثالية طيبة؟ إنني لم التق بواحدة مثالية طيبة..

«أتريدني طاهرة؟»

«أتريديني جاهلة؟»

«ألم أقل لك قبل زواجنا أني لست بالطاهرة ولست بالجاهلة؟

«وقد اكتنهت خفايا الرجل والمرأة، ولمست شرور الرجل والمرأة، وأيقنت بعد الذي رأيت أن لا فرق بينهما ـ فالرجل في سوأته لا يزيد عن المرأة، والمرأة في إثمها لا تزيد عن الرجل... ولقد تكشفت لي الأمور كلها، أجل اكتشفت كل شيء إلا الله»

وراودتني نفسي المتهافتة على الارتماء تحت قدميها لأقبل هاتين القدمين فقد كانت دون أن تعلم، تردد صدى أفكاري المستهجنة المخيفة. وأخذتها بين ذراعي وأنا أقول مستعبراً:

«سيبيل! ماذا دهانا؟ ولم لا يتسنى لنا العثور على الجانب الأجمل الأكمل من الحب؟ وما شأن هذه الظلمة الحالكة المريعة التي تشب بيني وبينك عندما نتعانق ونتبادل القبلات؟ فما هي؟ أتعرفينها؟ أترينها؟ أتشعرين بها؟

وشعت عيناها ببريق غريب ـ بريق عيني امرأة تتلهف نفسها إلى شيء بعيد ـ امرأة جائعة ـ امرأة ظمأى ـ وخيل إلي أنه الحب.. خيل إلي أنني الشخص الذي يهواه قلبها.. فقرت عيني، وتولتني الفرحة وأجابت: «إن الظلمة موجودة، وقد خلقناها نحن. وأؤمن أن في قرارتك روحاً أنبل من روحي.. ولو أنت حكمت هذه الروح ولم تكبحها وتكتبها، لما كنت بنيت علي.. لقد تكلمت من أجمل نواحي الحب، فأنا لا أرى ناحية واحدة جميلة، بل أرى في الحب كله نأمة دنيئة رهيبة! فأنا وأنت على سبيل المثال ـ أنا وأنت شخصان مثقفان، ولكننا حقيران، وما الشعراء إلا أفراد يغلب عليهم النفاق والتمويه»

وقبلتها وعاطفتي تسيل، وصبابتي تتأجج وقلت: «إني أعبدك يا سيبيل ـ يا زوجتي، إني أحبك!»

قالت: «أنت تحبني ـ لاريب في ذلك ـ وحبك حب رجل، وحب الرجل وحشي ـ هكذا كان، وهكذا يكون.. وستسأم الحب بعد قليل، ولا يبقى بيننا شيء يستحق الحياة ـ لا شيء بالمرة اللهم إلا علاقة الجنس، وهي العلاقة الزائلة التي لا مندوحة للجميع منها!»

وهتفت والقنوط يضعضع حواسي: «سيبيل، أنت تقتلينني!»

قالت: «كلا، لأنك رجل، والرجال أدنياء جبناء.. وأنا ساقطة لأني امرأة.. ولو آمنا بالله لما استعصى علينا اكتشاف طريقة أخرى من طرق الحياة والحب.. أنا وأنت حيوانان، فلم تخجل إذن من الحيوانية! أي جيوفري ألق من قلبك هذا الشيء الذي تسميه الضمير، ودعنا نتفق.. نتفق على أن يكون لكل منا طريقته الخاصة به!»

وزفرت زفرة حرى وأنا أقاطعها بقولي: «لا.. لا.. من المحال أن يكون بيننا مثل هذا الاتفاق!»

قالت: «ولم لا؟ ألا يسعنا أن نكون مثل غيرنا؟ ألا نستطيع أن ننسج على منوال الآخرين؟»

وصمت صمت رجل أضاع حجاه وذهنه، وقفلنا إلى الفيلا فتناولنا طعامنا.

وفي تلك الليلة، عندما أحطتها بذراعي، وشعرت بقلبها يخفق قرب قلبي في ظلام مخدعنا الضارب الجران، نشب في داخلي صراع هائل، وحدثتني نفسي أن أخمد أنفاسها.. واقشعر جلدي وأنا أشعر بأصابعي تنكمش وتتشنج... أجل انكمشت هذه الأصابع وأوشكت على التقبض على عنقها الغض، وأوشكت أنا المحب الولهان أن أقتل هذا الشبح..

هذه الروح الشريرة.. هذا الطيف اللاعق بالدماء.. ولكنى أهبت بنفسي أن تسكن، ودفعت يدي إلى الخلف فارتخت.

وتنفست الصعداء!

وأحييت الليل ساهراً لا تغمض لي عين أو يسكن جأش أو ترقأ دمعة!

رجعنا إلى إنكلترا من شهر العسل قبل اليوم المعين وكان ذلك في منتصف آب وكنت في الأيام الأخيرة ابني صروح الآمال على ما وطئت عليه النفس من السعي لتوطيد علاقات الصداقة والود بين زوجي وبين مافيز كلير. وحفزني إلى وضع هذه الخطة ما أتوسمه في مافيز من الخير والتقوى والصلاح، وما أملته من قدرتها على التأثير في سيبيل مما يؤدي إلى تقويمها وإحلال الخير محل الشر في قلبها.

ولما استتب بنا المقام في ويلوسمير أرسلت مافيز من ينبئها بما عزمنا عليه من زيارتها في منزلها الصغير. وذهبنا في الساعة المحددة فاستقبلتنا الحسناء الكاتبة بوجه طافح بالبشر، ورحبت بنا ودعتنا إلى الجلوس، ففعلنا.

ومليت الطرف في الوجه الصبيح فخفق قلبي وددت لو خسرت ثروتي واكسبت امرأة في أهاب سيبيل وطيبة مافيز

فالوجه الجميل الهادئ، والعينان الفرحتان الحالمتان، والفم الحساس، والنظرة التي تتألق بقوة وسعادة، كل ذلك جعلني أسبح في سري بحمدها وأعجب كل الإعجاب بتلك الأمائر المضيئة وأتساءل لم لا تتعهد النساء أنفسهن لكي يحظين بطبيعة مثل طبيعتها، وبنبل الإحساس مثل نبلها؟

وأنا مقت مافيز كلير مقتاً أعمى، وشرعت قلمي لأهاجمها به..

ولكن ذلك جرى قبل أن أعرفها ـ قبل أن أدرك أن هناك فرقاً بينها وبين سواها من النساء

أجل كرهتها ـ والآن ـ الآن، إني أحبها!

وسيبيل.. الفارعة، الساحرة، الفاتنة، حدقت في وجهها بعينين تتحدثان عن دهشتها وعن إعجابها.

وقالت سيبيل وهي لاتزال ترمقها بنظرات متفرسة: «كنت وأنا طفلة، أرقبك وأنت طفلة، كنت تشغلين نفسك بالتجوال بين الرياحين والأزهار وها أنذا ألقاك وقد شببنا عن الطرق وأدعوك بإلحاح أن تلمي بنا في ويلوسمير»

ولما لم تجبها مافيز استأنفت تقول: «ستأتين، تعالي دائماً فنحن جارتان ويخلق بنا أن نكون صديقتين»

ووجهت مافيز نظرة صريحة إلى زوجي وأجابتها وثغرها يفتر عن أروع ابتسامة: «أتعنين ذلك؟»

«نعم، أعني ما قلت وأتلهف شوقاً إلى رؤيتك في كل حين»

وقلت أنا: «أو تشكين في رغبتنا الصادقة؟»

قالت: «اصفحا عني، ولكن، أنتما الآن في مركزكما المرموق كالمحور الذي تدور حوله الدنيا، وهذه الطبقة تعتبر الكاتب إنساناً لا يستحق التقدير والإجلال بل إن هذه الطبقة ترى الكاتب مخلوقاً منحطاً ومن نقاط ضعفي، كبري واعتزازي وتمسكي بكرامتي وحريتي وأصدقكما القول إني دعيت

مراراً إلى بيوت من نسميهم بالعظماء، فكنت أشعر بالخيبة والكآبة في كل مرة لبيت الدعوة»

وقلت متسائلاً: «ولم ذلك؟ إنهم ينالون الشرف العظيم بدعوتك إلى قصورهم»

قالت: «إن نظرتهم تختلف، وهم يظنون أنهم متى وجهوا الدعوة إلي عملوا عملاً صالحاً يستحقون عليه الثناء والشكر.. إنهم ينسون إنني أضيف إلى شرفهم شرفاً بزيارتي لهم لأني تخليت لساعة عن كتاب أطالعه، وعن كاتب أقرأ له فأنتشي وأحلق في أفقي الخاص.. وقد اتفق لي يوماً أن لبيت دعوة بارون عظيم الشأن، فلما ذهبت رأيت ضيوف هذا الرجل يجلسون جامدين وقد حددوا أنظارهم في أنا وكأني سمكة جديدة لم يبصروا مثلها من قبل. ثم صحبني البارون إلى حجرات قصره وجعل يريني تحفه ويذكر لي أثمانها.. إنني أعجب لكم أيها النبلاء، فأنتم يعنيكم المظهر.

وعندما تدعون امرأة مثلي لا تدورون لماذا دعوتموهما، ولهذا السبب سألتك يا سيدتي إن كنت حقاً ترومين مشاهدتي في بيتك بين الآن والآن»

وقالت سيبيل بحماس صادق: «لك اللّٰه من صريحة لا تكتم شيئاً، واعلمي أني أحياناً أشعر بالخجل من نفسي لانتمائي إلى هذه الفئة، وابتهل إليك أن تقبلي يدي الممدودة لمصافحتك، وبالتالي أن تقبلي ما أعرضه عليك من صداقتي وودي»

وصمتت سيبيل فكانت في صمتها أبلغ منها في نطقها، حتى أن مافيز أسرعت تقول:

«ما أجمل صورتك! كل إنسان يقول لك ذلك ولا يسعني إلا الاشتراك

في هذا الترديد مع الجوقة كلها.. فالوجه الحسن هو زهرة والزهرة أحبها وأعجب بها. الجمال هبة من السماء ومع أني سمعت أن الإنسان الطيب هو الإنسان الذي لا يبهر جماله النظر إلا أني لا أصدق هذا القول، وأثق كل الثقة أن الطبيعة تعطي الروح الجميلة صفة جميلة ووجهاً جميلاً»

وطأطأت سيبيل رأسها وقد تضرجت وجنتاها وعلتهما حمرة أرجوانية خفيفة، ولم تلبث حتى قالت: «لا يتحقق هذا دائماً» وأخفت عينيها تحت أهدابها

ومضت ساعة والحديث شجون بيننا، ثم انتقلنا إلى الحديقة فألفينا الكلبين في مكانيهما جاثمين، الكلبين في مكانيهما جاثمين، الكبير منهما يوصوص بذنب، والصغير يلعق يده بلسانه.

والتفتت مافيز إلي وكأنها تذكرت أمراً غاب عن بالها وقالت:

«وأين صديقك الأمير ريمانيز؟»

«إنه غائب وسيعود إلينا بعد ثلاثة أسابيع ليقضي بيننا ردحاً من الوقت»

قالت: «صديقك نسيج وحده، فهل تذكر ما طرأ على الكلبين ساعة لمحاه يخرج من المنزل؟»

قلت: «وهو أقرب المقربين إلي، بل هو صديقي الوحيد وأدين له بكل شيء، واعلمي أني لولاه لما فزت بزوجي سيبيل!»

قلت ذلك وفطنت إلى المعنى فمضضت واكتأبت ـ الأمير ريمانيز هو الذي قربني من سيبيل وقرب سيبيل إلي، ولهذا فأنا أدين له بالشقاء ولا خوف والغضاضة والخجل أن سيبيل زوج، ولأنها ستبقى مرتبطة بي حتى الموت.

وأصابني الدوار فأغمضت عيني حتى لا أرى ما نزل بي من النقم وأخذت بطرف من بصري الكليل أختلس النظر إلى المرأتين التين تناقضت طباعهما، وتباين جمالهما ـ فالأولى (سيبيل) زوجتي، امرأة من أحط ما خلق اللّٰه من نساء، والثانية (مافيز كلير) كائنة طاهرة نقية صافية، تطمح ببصرها إلى العلى، ولا ترضى بنفسها أن تتدنى وتنسف حتى ولو أن لها ذلك جاه الدنيا بأسرها..

وفي غمرة الشجن الذي ألم بي فأغرقني في ظلمته تساءلت والأسى يبرح بقلبي: «أما كان الأحرى بي أن أقترن بمافيز كلير؟» ولم أفطن وأنا سائل نفسي إلى الحقيقة المرة، فمافيز لن تقبل بي رغم كثرة مالي... ولكان أهون علي لو فكرت في هذا الأمر أن أختار نجماً من السماء من أن أحظى بقلب امرأة تستطيع قراءة طبيعتي بيسر ـ امرأة تعتلي القمة ولا تنحط إلى مستوى مالي من عرشها السامي، حتى لو كنت ملكاً لدول كثيرة.

ونبهتني سيبيل من شرودي ساعة قالت وابتسامتها ترتسم على شفتيها:

«إن صديقتنا يا جيوفري لا تعتمد إلا على نفسها في تكوين الرأي، وهي المرأة الأولى التي لم يؤثر فيها سحر الأمير ريمانيز، واحمر وجه مافيز إلا أن عينيها تلاقتا مع عيني في نظرة جريئة، ولم تلبث أن قالت:

«لا أجهل أن من الحكمة أن يحتفظ الإنسان برأيه وفكره، ولكنها هفوة لا أستطيع منها خلاصاً، فالمعذرة يا سيدي، فالأمير صديقك الحميم، وأصدقك أن مظهره أثر علي أعظم تأثير في الوهلة الأولى، بيد أني أيقنت بعد قليل بأنه خلاف ما يتراءى لي وللناس طراً»

فأجبتها بلا تردد: «وهذا ما يقوله هو عن نفسه، وأعتقد أن في حياته سراً

غامضاً، وقد عاهدني على البوح به إلي في المستقبل، وإني لآسف لنفورك منه في وقت أعرب لي هو فيه عن شدة حبه واحترامه وإجلاله لشخصك»

قالت: «لعلي أغير رأي فيه متى اجتمعت إليه مرة ثانية، وإني لأشعر بالعار من قسوتي في إبداء الرأي»

وبدا الألم والدهشة في عينيها الناعمتين.

ولما غادرناها نمشي الهوينا، وأنا مطرق وسيبيل تتلفت حولها في مرح وسرور. وقطعت زوجي الصمت أخيراً فقالت:

«الآن فهمت مصدر الكراهية التي يشعر بها بعض الناس لهذه المرأة، لأني أنا الأخرى بدأت أمقتها»

وجمدت في مكاني مشدوهاً مذهولاً وأجبت بلهجة الاستنكار:

«أنت تمقتينها! أنت، ولماذا؟»

«أما في وجهك عينان تبصران وتريان؟ أما تعرفي أني أكن لها هذه الكراهية لأنها سعيدة؟ ألا فاعلم أني أكرهها لأن حياتها خالية من الفضائح، ولأنها قانعة مكتفية، ولأني أتوق إلى رؤيتها تتقلى على نار البأساء! فكيف؟ وما هو السبيل؟ أنها تؤمن بالله، وتثق أن ما يجري هنا في الدنيا لا يجري إلا بمشيئته وقدرته وبهذا اليقين الراسخ، بهذا الاعتقاد الوطيد، يتسنى لها أن تكون هانئة ولو صفرت من المال.. فما العمل؟»

«ما أعجب أمرك يا سيبيل! أنت لا تكتمين إعجابك بكتبها وقد عرضت عليها ودك وصداقتك، ثم بنفس اللهجة تقربت بها إليها تصرحين الآن بأنك جد تواقة إلى تحطيمها! أنا لا أفهمك، ولم أفهمك!»

«ومن قال أنك ستفهمني؟ من قال أني أفهم نفسي؟ من قال أني سبرت غور هذه النفس؟ ولكن، ألا ترى أن الخسة تكره الطيبة؟ وأن السكير قد يكره المتزن؟ وأن الخارج عن القانون قد يكره الطاهر الذيل؟ وأن الداعرة تكره الحصان؟ وكيف تنتظر مني أنا المرأة الشريرة التي لا تثق برجل أو امرأة، والتي تكفر بنعمة اللّه أن لا أكرهها؟ ـ امرأة تجد الجمال في الحياة وتجده في الله..

امرأة تربأ بنفسها عن المخازي الاجتماعية... امرأة تحوز الشهرة العريضة في وقت تتعذب فيه روحي الدنسة النجسة.. أتنتظر مني أن لا أكرهها؟»

«أما كان الأحرى بك إذن أن لا تلحي عليها بزيارتك؟ ألم تسمعي ما قالت عن مشاعر الناس وما يتظاهرون به؟»

«سمعت كل كلمة نطقتها، ولن يطول بها الأمر بل ثق بأنها ستتعرف على شخصيتي وعلى ما يجيش في فكري وإحساسي من مشاعر الإنسان المتهتك الشرير»

ورفعت إليها نظري حزيناً ـ لقد أصبح جمالها الفاتن مصدر شقاء لي؛ وهتفت والألم يحز في قلبي؛

«آه يا سيبيل! لم جبلت على هذه الطباع؟»

قالت: «آه! أتساءل مثل هذا السؤال؟ وكيف تسأله؟ لقد خلقت لأكون امرأة لا ترتاح نفسها إلا للأثم، هكذا خلقت لأكون امرأة لا ترتاح نفسها إلا للأثم، هكذا خلقت وسأبقى وسأموت!»

ولما دلفنا إلى قصرنا قلت في توسل: «سيبيل.. إني أرغب في رؤيتك صديقة مخلصة لمافيز كلير»

فضحكت وأجابت: «قر عيناً يا زوجي فسنكون صديقتين لبعض الوقت، سأتظاهر بأني أحبها، وسأبذل وسعي للتمويه عنها، وبهذا لا تنفصم عرى صداقتنا قبل أن ينحسر النار عن طبيعتي الحقيقية»

وقهقهت ضاحكة ـ ضحكت بقسوة مخيفة أقشعر لها جسدي ولما لاذت بمخدعها أظلمت الدنيا في بصري وضاقت ويلوسمير، وضاقت حتى رأيتها لا تتسع لي.

ذهب السحر واستحالت ويلوسمير الرائعة إلى ناحية موحشة غاض الهناء وأصبح القصر الجميل مرتعاً للأشباح يملؤونه في الليل ويعيثون فيه ويفسدون جوه

أجل سكن القصر روح شريرة انتصرت علي وزهت بانتصارها.

17 ـ منتهى الانحطاط

أنا الذي عاش في بؤس وشقاء ـ بؤس الروح وشقاء الضمير ـ لم أزل في الظاهر قانعاً بعروض الدنيا وبترفها..

أنا الذي انهارت أمام ناظريه صروح الأحلام اتجهت بقلبي وإحساسي إلى ما ييسره المال من لذاذات ومتع قاصداً من وراء ذلك إلى نسيان مأساتي.. وقد نجحت في جهودي وغدوت مادياً بكل ما في الكلمة من معنى ـ أحببت راحة الجسم، والطعام الشهي، والشراب الفاخر.. انغمست شيئاً فشيئاً في هذه الأوحال. وسلبتني هذه الأوحال شيئاً فشيئاً مما كنت أحرص عليه في السابق من إبقاء عقلي المفكر في حالة من النشاط الدائم وعلمت نفسي أن تقبل هذه النفس الخائرة زوجتي على علاتها فأنا لا أزال مالكها ومالك جمالها وماذا يعنيني من دنياها غير ذلك؟

أنا الحيوان! أنا الذي كنت أقدس الأدب أصبحت أقدس الطعام والشراب والراحة والكسل!

وخيل إلي أن مالي الكثير الغزير لن ينضب له معين، فلم العمل؟ ولم الكد والدأب؟

والكتابة.. الكتابة سخف لا طائل تحته فأنا ملك يأمر ويطاع، ولهذا مارست حقوق الملك فطغيت وسميت خدمي عذاباً شديداً..

هذه هي الشهرة تمكنت في نهاية المطاف من الظفر بها! هذا هو المجد الذي حزته

والأغنياء يجودون بمالهم أحياناً لا عن سخاء بل ليثبتوا للملأ إنهم أغنياء، وأنهم أعلى مرتبة من سائر الناس لأنهم يعطون هذا جنيهاً وذاك جنيهين!

ولم أنس أني غني، فكنت أرمي لبعض الفقراء بشيء من النقود وأوقن عقب ذلك أن قلبي رقيق يشعر وأني إنسان كريم يحب الخير!

وعلا الصدأ عقلي فجمد ذكاؤه وخبت شعلته وأصبحت واثقاً كل الوثوق أني استحق عرشاً في السماء على يمين العزة الإلهية ـ فما أطيبني! ما أنبلني! وما أسمى طبعي وطبيعتي!

أما مافيز كلير فكانت تساعد الجميع في تلك الناحية فتلهج الألسنة بذكرها وتنزوي هي في عقر دارها. وأما سيبيل فما اكترثت بإنسان. وكانت تلم بين الوقت والوقت بمنزل مافيز فتقضي مع صاحبته ساعة. وكانت مافيز أيضاً تأتي إلى قصرنا أحياناً فتشركنا في طعامنا وشرابنا.

ولكني لم أر فيها ما ينبئ بسرورها من هذه الاجتماعات ولو أنها أظهرت من اللطف والدعة ما جعلتي لأول وهلة أظن أنها ترحب بهذه الفرص

وفي منتصف شهر أيلول شرف قصري بزيارته أمير البلاد وبرفقته نخبة مختارة من النبلاء والعظماء. وأحسست بأنهم ينظرون إلي نظرهم إلى رجل وضيع رفعه ماله إلى مصافهم، وأنهم يوجهون جل اهتمامهم إلى سيبيل ذات الحسب والنسب وذات الجمال والفتنة!

فمن هؤلاء؟ هؤلاء الذين يتمتعون بكل ما تحتويه الدنيا من مباهج وترف؟ هؤلاء الذين إذا تكلموا قالوا هراءً، وإذا أصغوا بدا الغباء في نظرتهم ـ إنهم مأفونون فتنتهم الدنيا فأضعفت قواهم ولاشت لهب ذكائهم فأصبحوا لا يبالون إلا بما اكتسبوه إرثاً وبما ينفقونه من هذا الإرث على وجوه المتعة والعبث والفجور.

إلا الأمير ـ أمير البلاد ـ فقد كان على نقيض صحبه ذكياً أريباً لبقاً قريباً إلى القلب.

وقد غافل حاشيته مرة وذهب إلى مسكن مافيز كلير، ولما رجع بعد ساعة أو أكثر بدا منشرحاً فرحاً منطلق المحيا. وقضى ساعات أخرى وهو يشيد بمافيز وبجهودها وألمعيتها.

وكنت قبل ذلك قد ألححت على مافيز أن تأتي إلى القصر ولكنها اعتذرت وأصرت بلطفها ودماثتها أن أغضي فلا أذكرها أمام أحد.

وكنت أتلهف شوقاً إلى رؤية صديقي ريمانيز، وقد أرسلت في طلبه فجاءني منه برقية اعتذار صادرة من باريس ثم وصلتني ورسالة هذا نصها:

«أشكر لك دعوتك ولكني أعتذر فاغفر لي. إنني برم بالتقاليد وبالملوك والأمراء ـ فهم مملون، عرفت المئات منهم فما صادفت إلا الملل والضجر. والملك الوحيد الذي حاز رضا قلبي كان الملك ريتشارد قلب الأسد. ولا شك أن شارلمان كان هو الآخر ملكاً جديراً بالتقدير. أما الملكة اليصابات التي كانت داهية ماكرة متعطشة للدماء فلم يرفعها ويعلي من شأنها إلا الشاعر شكسبير ـ وشكسبير صاغ بكلماته آيات رائعة جعلت الملوك والملكات ألعوبة في يده. وبهذا أشبهه أنا وليس بشيء آخر!

«إني أحب أمير البلاد وأحترمه وعليه عزمت على عدم المجيء، وحالما تنتهي الزيارة الملكية آتي إليك دون إبطاء.

«تحياتي المخلصة إلى زوجك الليدي سيبيل، وإنا لك الصديق الحميم إلى الأبد»

(لوسيو ريمانيز)

أضحكني الكتاب ولكن لم يضحك زوجي، وقرأته سيبيل ـ قرأته مرتين، ثم رفعت عينها فوشت هاتان العينان بألم دفين.

وقالت بصوت متهدج: «إنه يحتقرنا جميعاً، أما ترى استهتاره بنا في كل كلمة خطها؟»

وغادرنا الأمير ورجاله بعد أيام واستأنفت سيبيل زياراتها إلى منزل كلير. وفي كل مرة كانت ترجع فيها من تلك الزيارات كنت أجد شيئاً لا عهد لي به يبرز بوضوح في أمائر وجهها وفي كلماتها ـ كانت ترجع مطرقة تفكر، وكانت ترجع فأشعر أن سيبيل بدأت تتحول من الشر إلى الخير.

وقالت ذات ليلة ونحن منفردين في الشرفة: «في الدنيا يا جيوفري كما رأيت أخيراً، خير كثير وأتمنى لو استعطت أن أجده وأحيا معه. ولكنك ويا للأسف آخر من يتسنى له هديي وإرشادي»

وأجبتها ممتعضاً: «ماذا تعنين يا سيبيل؟ أنني الوحيد بين الملأ الذي يرغب في رؤيتك تسعدين وتهنئين وتتحولين إلى الخير»

«كفاك هذراً! لقد لمست فيما لمست من الشر والضعة فهل فعلت شيئاً لمعالجتي؟ ألست مثلي وضيعاً تافهاً؟ ألا ترخي العنان لشهواتك كما

أرخيها أنا؟ وماذا رأيت فيك حتى أحتذيه إلا الضلال والنفاق؟ أنت السيد المطاع هنا، أنت تحكم كالطاغية، أنت تأكل وتشرب وتنام وتستضيف وتذهل ضيوفك بإسرافك وبذخك، أنت تقرأ وتدخن وتصيد وتمتطي الجياد ـ هذا كل شيء؛ أنت رجل عادي فحسب! وهل كلفت نفسك مرة مشقة سؤالي عما أعمه فيه أنا؟ هل حاولت بالصبر الذي يضيفه الحب العظيم على الإنسان أن تقيم تلقائي أهدافها نبيلة؟ هل تحاول أن تمسك بيدي فتقودني من الظلمة إلى النور، النور، نو الإيمان والأمل والرجاء ـ ذلك النور الذي يغمر القلب بالسلام والاطمئنان؟» ودفنت وجهها بالوسادة بعد أن كفت عن الكلام، وطفقت تنتحب.

وما لبثت أن وثبت من مكانها كمن فقد الحجي وصاحت:

«قلبي المصدوع ـ اليأس والخطيئة والشقاء! آه، المرأة ألعوبة، ألعوبة في يد صبي، وعندما تتحطم هذه الألعوبة يلقي بها الصبي إلى الأرض.. ولن تتجمع الرمم، ولن تتجمع الأشلاء ـ لقد انتهي الأمر!»

وهممت أن أجيب، وقبل أن أستجمع شتات أفكاري وأفتح فمي لأتكلم بدا لي ظل من ورائي وقال صوت أعرفه:

«أهناك ضير من دخولي؟»

فانتصبت واقفاً والتفت وهتفت: «ريمانيز!»

قال: «أنا هو ياصديقي وضغط على يدي بولاء ثم اتجه إلى سيبيل فقال:

«أترحب سيدتي بمقدمي؟»

قالت ببسمة ساحرة وبصوت تلاشت ضراوته فغدا ناعماً مثيراً:

«وهل في ذلك شك؟ وأعطته يديها الاثنتين فقبلهما ثم التفت إليّ وقال:

«جئت من المحطة يا جيوفري فاستولى على لبي ما غمرني في كل مكان من جمال الطبيعة الأخاذ، وما رأيت نفسي إلا وأنا أدخل دون أن أنبه أحداً من الخدم ـ وها أنذا أجدكما فيتضاعف سروري؛ أجد أسعد زوجين؛ أجد صديقي وخلين لا يسعني إلا أن احسدهما على سعادتهما لو كنت من الحاسدين!»

ورمقته بنظرة فاحصة فأيقنت أنه لا يهزأ، فسري عني؛ وسألته عن أمييل خادمه فأخبرني أنه خلفه وراءه ليحرس يخته، كما أخبرني أنه لن يمكث أكثر من يومين معنا لأننا عشيقان لا نرتاح إلا للخلوة وضحكت، وضحكت سيبيل وضحك هو..

وما لبثنا حتى جلسنا متقاربين وأقبلنا على الأمير نرحب به ونحثه على البقاء. وقد سألني عما إذا كنت أعني ما أقول فصحت باستنكار:

«أنت صديقي، فابق، ابق دائماً»

ولما نظر إلى سيبيل وسألها بلحظة عن رأيها، أجابت بحرارة:

«اعتبر ويلوسمير بيتاً لك، أمكث معنا يا عدو النساء ولا تريم!»

ونهضت سيبيل، فانسابت كالظل إلى الحديقة، ووقف هو بقامته الطويلة الممشوقة فربت كتفي بيده القوية وقال:

«امرأة مثالية! وسأكون أتفه الخلق إن رفضت الدعوة.. عشت منذ ارتحلت عيشة شيطان وقد آن الأوان لأفيء إلى نفسي. وأنفع ما ينفعني

قضاء ردح من الزمان مع زوجين صالحين! أنا لكما وطوع أمركما ورهن إشارتكما «وسأبقى»

نعمنا بفترة راحة وهدوء، ومضت الأيام في سلام ووئام، إلا أن هذه الفترة العجيبة كانت ما نلحظه دائماً في الطبيعة من توقف وسكون يعقبهما انفجار مريع، أي سكون ما قبل العاصفة، ودعة الإنسان قبل حلول الكارثة... أو صحوة ما قبل الموت!

وأطرحت من رأسي جميع الأفكار المتعبة التي نؤت بها لشهور خلت، نبذتها كلها، فانتعشت نفسي، وصور الوهم بي أن آلامي غابت، وأسقامي امحت وزالت.. وسبحت في جو مدهش من الأحلام، وكان لوسيو مبعث تجدد هذا النشاط الروحي الذي تمخض عنه أحاسيسي.

وطفقنا كالسابق لا نفترق عن بعضنا البعض، فنحن نمتطي الجياد فنجوب بها الرياض والغياض، ونحن نفكر معاً، ونعمل سوياً، ونأكل في ساعة واحدة.. نحن غدونا كرة ثانية وكأننا روح تتقاسم جسدين!

ومع أني لم أخف عنه شيئاً مما يجيش في صدري، إلا أني لم أطالعه بالحقائق التي انكشفت لي في أخلاق سيبيل وعاداتها لأني كنت أعلم علم اليقين أنه سيدافع عنها ويعضدها.

ولا شك في أنه لو سمعني أنحي باللائمة على زوجي لضحك ساخراً وأجاب: «وما شأني بعلاقتكما؟ أتشعر يا جيوفري أنك إنسان كامل حتى تطلب الكمال في غيرك؟»

وأنا كسائر الرجال أؤمن بأني حر في حياتي، أفعل ما أشاء، ومتى أشاء، وكيف أشاء. كنت أشعر بأني كرجل أستطيع أن أنحط إلى أدنى الدركات

إن خلا لي ذلك، ولكني كنت أشعر أيضاً أن لي على امرأتي حقاً يخولني مطالبتها بالإخلاص والطهر والحب!

وعيناي ـ عيناي كانتا لا تريان ما يجري أمام سمعي وبصري ـ أجل، كانت مشاعري ميتة بالنسبة إلى ذلك التجاوب العجيب الذي كان يتمخض عن الزمان بين سيبيل وريمانينز.

وما نفع التأسف على أمر فات؟ إنه القانون الأزلي، إنه قانون الكون وجهنا وسدد خطواتنا وجعلنا نخطئ ونصيب، وجعلنا أيضاً نصعد ونهبط، ولهذا فالكثيرون منا ـ من بني البشر لا يعتقدون بالحياة والموت!

ومرت الأيام ومضى من شهر أكتوبر أكثره، وأخذت الأشجار تتعرى مما كساها وجمّلها. وكان الطقس رائعاً دافئاً، كان كما وصفه الفرنسيون ـ صيف القديسين ـ وكان النهار في كل يوم صافياً مشرقاً، والليل عليل نسيم يشع فيه على المسكونة ضياء باهت يرسله البدر، ثم يرسل شطر منه بعد أن يأخذ قرصه في التقلص والانكماش على بعضه البعض.

وكنا نلوذ بالشرفة في تلك الأمسيات، أنا وسيبيل ولوسيو، وجرى مرةً ما لن أنساه مهما تنفس بي العمر. جرى شيءٌ عجيب بين لوسيو ومافيز كلير. فقد تناولت مافيز طعام العشاء معنا، وكان في القصر عدد قليل من الضيوف. فلما انتهينا من الطعام خرجنا إلى الشرفة وجعلنا نترشف أقداح القهوة ببطء ولذة.

وكانت مافيز في أحسن حالاتها وقد طفقت تخوض مضمار الحديث بمهارة وذلاقة لم نملك معهما أنفسنا من الصمت والإصغاء والتهام تلك الكلمات العذبة التي كانت الحسناء الرائعة تتلفظ بها.

وبرز البدر من المشرق يتهادى في حلة زاهية من النور السماوي، فخرجنا إلى الحديقة وتفرقنا هنا وهناك.

وتذكرت علبة طباقي، فرجعت أدراجي إلى القصر لاجئ بها. ثم نزلت الحديقة ثانية وتوجهت قدماً إلى الناحية التي تركت فيها رفاقي.

وسمرت على حين غرة إلى الأرض، فقد تناهى إلى سمعي صوت حديث يجري بهدوء بين رجل وامرأة.

وتبينت الصوتين فلهجة لوسيو الغنية النافذة لم تكن لتخفى عني، واللحن العذب الذي كان يخالط صوت مافيز كان هو الآخر شيئاً لا يمكن أن أخطئ فيه.

وجعلتني الدهشة أصيخ السمع ـ وتساءلت: أيمكن أن يتيم الحب قلب لوسيو؟ ـ وابتسمت، وأيقنت أني سأكتشف الآن أن هذا الرجل الذي يكره النساء قد طوعته امرأة وكبحت من جماحه.

وشعرت بلسع الغيرة، ودهشت لهذا الشعور الطارئ ـ كنت أتمنى أن لا يحب صديقي هذه المرأة، كنت أتمنى أن يتركها وشأنها ـ يتركها في سلام أحلامها وكتبها وأزهارها ـ يتركها في أمان مع طيورها وكلبيها وبيئتها البريئة النقية.

سمعت صديقي يقول: «دعيني أسدي لك خدماتي، أنت امرأة في ذهنك عبقرية وبودي لو مددت لك يدي في كل حين. أنت أبعد ما يكون عن الغنى فلأساعدك لتصبحي غنية. ولك شهرتك فذريني أضاعف منها. واعداؤك عديدون، فلأحطمهم، قولي كلمة واحدة وستجدينني أرغمهم على تعفير جباههم في الثرى تحت قدميك. ثقي مني واتبعي نصيحتي وستنجحين وستعتلين الذروة»

وأجابته مافيز بصوتها الموسيقى: «ما أجمل شهامتك أيها الأمير! ولكني لا أجد سبباً لحرصك على خدمتي. أنت غني عريض الجاه وسلطانك مبسوط ولكني جرياً على عادتي لا ألجأ إلى غيري في تذليل ما يعترضني من صعاب. وفوق ذلك فأنا قانعة بكل شيء، ولا أطمع في شيء آخر بل أتمنى على اللّه أن تكون نهايتي هينة سهلة.. والغنى أمر كريه، لأن الغني يفقد صوابه وأصحابه وشخصيته ـ يفقد كل شيء ـ تزول شخصيته ويبقى ذكره طالما بقي ماله. كثيرون هم الذين يحبون كتبي، وعن طريق كتبي يحبون شخصي ـ وأنا أشعر بهذا الحب وأسعد به وأبادله.. فقلوبهم تتجاوب مع قلبي، وهذا هو السلطان الذي لا أطمع في سواه»

«ولكنك نسيت أعداءك»

«كلا بل أني أصفح عنهم! وهم لا يستطيعون أن يسيئوا إلي طالما بقيت في منأى عنهم، ومتى كان ضميري مستريحاً فليس من قوة تستطيع أن تجذبني وترغمني على الاستسلام للخطيئة والكراهية. أن حياتي كتاب مفتوح، وفي وسع الناس أن يروا كيف أعيش وماذا أصنع. ومتى زللت أصلحت خطأي، والعداوة أمر طبيعي في هذه الدنيا، وكلما سما الإنسان كلما تضاعف عدد حاسديه، ولكن الشخص الوحيد الذي يستطيع أن يلحق بي الأذى كامن في قرارتي فهو أنا ـ أنا التي أستطيع أن أسيء إلى نفسي متى غلبت علي الشراهة والجشع»

وتحركت الأغصان وتحطم فنن، ورأيت لوسيو يتقدم خطوة من مافيز، ويقول: «أيتها الحكيمة الجميلة، أنت ماركوس أوريليوس النساء، ولكن ينقصك شيء في حياتك، ينقصك الحب ـ هذه العاطفة الجياشة التي تتداعى تحت وطأتها كل حكمة وفلسفة.. الحب يا مافيز ـ حب عاشق

مخلص ـ حب رجل أعماه حبك ـ هذا هو الشيء الذي لا تكمل حياتك إلا بإحرازه.. حياتك لا تسوى شيئاً متى أقفرت من هذه العاطفة.. فكري فيها.. سيتقدم بك العمر وستحتاجين إلى من يحبك. ومع السنين، مع تواليها ومرورها ينفض عنك الجميع وتمسين امرأة مهملة تبكي شباباً ولى، ووراءً غبر! أنت تشكين في كلماتي الآن، ومع ذلك فسوف يتضح لك أني على صواب؛ وسأهبك الحب ـ ليس حبي أنا ـ لأني لا أحب أحداً، بل حب أكرم رجل في أي بلد من بلاد العالم. ستختارين من تشائين، وفي أي وقت تشائين، ومن يقع موقعاً حسناً في قلبك يغدو بعلك.. ماذا؟ ماذا دهاك حتى نفرت مني ومن كلماتي؟»

فقد انكمشت على نفسها وارتدت خطوتين إلى الوراء وهي تحدجه بنظرة رعب وفزع.

وقالت: «أنت تخيفني.. ومثل هذه الوعود تبدو وهماً بل أضغاثاً ـ أنت تتكلم وكأنك فوق الإنسان، وأنا لا أفهمك أيها الأمير، وفي أعماقي شيء أقوى مني يحذرني ضدك.. فماذا أنت؟ وما الذي يجعلك تكلمني بهذا الأسلوب؟»

وارتعشت بعنف وتقبضت يداها على غصن شجرة.. وجمد ريمانيز كالتمثال الرائع وهو لا يبرح يحدد فيها طرفه المتأجج وعادت إلى الكلام: «لا أنكر أن الحب راودني في أحلامي ولم تتحقق الأحلام، فهل تحسرت وتلوعت؟ كلا.. كلا.. إذا أراد بي أن أقضي العمر بلا رجل فلن أنقم على العزة الإلهية، بل سأقنع بما قسم لي.. والعمل رفيق مخلص ـ ولدي كتبي وأزهاري ولهذا لا أشعر قط بالوحدة.. أما الحب فلا مندوحة منه، وسأشعر به هنا أو في أي كان آخر!»

ودنا ريمانيز من مكانها وأجابها: «في وسعك الانتظار حقاً يا مافيز كلير، فكري.. أيمكنك أن تتذكريني؟ وهل تنظرين إلى هذه الأيام بعد أن تمضي، لتري وجهي ليس هنا بل في مكان آخر؟ فكري! هل شاهدتني منذ أمد بعيد؟ في دنيا جميلة مضيئة نائية وعندما كنت ملاكاً، ولم أكن أنا ما أنا الآن؟ أنت ترتعدين، فعلام الخوف؟ إنني لن أؤذيك.. إنني أتكلم بضراوة أحياناً، ومرد شراستي ما يعاودني من ذكريات الماضي، وما يملأ قلبي عندما أتذكر، من شعور الأسف على ما فات وانقضى ـ وهذا الأسف يحرق روحي بنار أكالة ـ بنار أشد ضراماً من النار! وهكذا لن تقوى عروض الدنيا على إيقاعك في شرك التجربة ـ أنت أعجوبة حية، أنت أشبه بقطرة الندى التي تعكس في ذاتها الضئيلة الصغيرة جميع ألوان السماء، ثم تسقط إلى الأرض بلطف حاملة معها الرطوبة والانتعاش والحياة. أنا أعجز من مد يد المساعدة إليك فأنت ترفضين كل عون ولهذا يجب عليك أن تساعديني ـ أنت تصلين وتبتهلين إلى خالقك (وجثا على الأرض فتناول يدها وقبلها) فصلي من أجلي ـ أنت تعتقدين أن الله يسمع صلاتك، وكلما نظرت إليك أيقنت أنك على صواب في اعتقادك. أن المرأة الطاهرة هي التي تستطيع فقط أن تتيح الإيمان للرجل. صلي من أجلي، من أجل مخلوق سقط من عليائه وفقد نفسه ـ وهو الآن يجاهد فلا يبلغ وطراً، ويكابد الأمرين وسيف العقاب مسلط فوق رأسه، وهو يسعى إلى بلوغ السماء ولكنه يمكث كارهاً في جهنم الحمراء لأن الإنسان الملعون لا يساعده ولا يقبل عثرته! صلي من أجلي يا مافيز كلير! عديني بأن تصلي! وإذا فعلت رفعت هذا المعذب باعاً واحداً وقربته من مجده الذي فقد وخسر!»

وأصيغت والذهول مستول على مشاعري ـ أهذا هو لوسيو، الخاسئ

الخاسر؟ أهو هذا من عرفت؟ وكيف يجثو كمذنب نادم فيحني رأسه الشامخة؟.. ورأيت مافيز تسحب يدها من يده، وتقول باضطراب وحية:

«ما دمت تلح علي فسأصلي سأصلي وابتهل إلى اللّٰه أن يرفع عن قلبك ما يثقله من أوزار، وحتى يخفف هذا الحزن المريع الذي يلتهمك التهاماً..»

وقاطعها والأسى يشوب كل كلمة من كلماته: «الحزن! (وانتصب واقفاً) ايتها المرأة ـ أيتها العبقرية ـ أيها الملاك ـ مهما تكوني، أرجوك أن لا تتكلمي عن حزن واحد، ففي قلبي ألف حزن بل ألف ألف.. في قلبي مليون حزن بل مليون مليون! ـ جرائم الإنسان القذر، الخداع والنفاق والقسوة وهي صفات المرأة، طيش الشباب ونزقه، احتقار الخير، استشهاد الطيبة، الجشع، الشهرة، الكفر، إنكار اللّٰه ـ هذه هي أحزاني! هذه هي أحزاني، لأنها سلسلة من حديد تطوق عنقي وتغل يدي وتكبت شعوري وتخنقني خنقاً ـ هذه كلها وسواها تخلق حولي جحيماً تتلظى نيرانه، وعذاباً لا يخمد أواره.. ومع ذلك، وشهيدي الله.. أنني لا أبلغ في شري بعض ما بلغه الأحياء من بني البشر! قد أتعرض للإنسان بالتجربة الخالبة ولكني لا أحثه على الارتماء في أحضانها.. إنني أتقدم ولكني لا أهيب بهم أن يتبعوني، وعندما يتعقبون أثري يفعلون ذلك بمحض اختيارهم!»

وانقطع لوسيو عن الكلام وتململ في مكانه وتلدد ثم تابع يقول:

«يبدو عليك الخوف وليس هناك من سبب يثر مخاوفك. أنت تحوزين الصدق والطهر ـ وأنا أقدس هاتين الخلتين. وقد درأتني عنك، وسنفترق الليلة فلا نلتقي في هذه الدنيا. لن نلتقي يا مافيز كلير، ولن أعترض سبيلك.. أقسم على ذلك أمام السماء والنجوم والقمر!»

وتقدمت منه مافيز وسألته برفق وهي تلقي يدها على ذراعه: «وما

يرغمك على الابتعاد؟ أنت تتكلم كأن ضميرك يتوزعه الندم والخوف، فما هي هذه السحابة التي تظل فكرك؟ إن طبيعتك طبيعة إنسان نبيل وأشعر بأني أسأت إليك بأفكاري.. فاغفري لي ـ لقد شككت فيك»

«حسناً فعلت!»

وقبض على يدها وجعل يرمقها بعينين تشعان كحجرين كريمين وأتم: «وعندما أذهب، فكري في كرجل يستحق الرثاء أكثر مما يستحقه المشلول والجائع والعليل ـ لأن لكل من هؤلاء أمله في الحياة ولأني لا أمل لي! ومتى صليت من أجلي، صلي من أجل رجل لا يجرؤ على الصلاة، وأنت تعرفين الكلمات ـ ولا تدخلنا في تجربة ونجنا من الشرير ـ وأنت دخلت في التجربة هذه الليلة دون أن تشعري بها ولكنك نجيت نفسك من الشرير.. والآن وداعاً لك، وداعاً.. لن أراك في الحياة، أما في الموت ـ في الموت! لقد مثلت أمام فراش الموتى ولكني لن أكون حاضراً عندما تجودين بنفسك وأهلك تعرفين من أكون ساعة تصل روحك إلى مفرق الظلمة والنور!.. وعند ذلك ستشكرين الله بأننا افترقنا الليلة ـ كما نفعل وإلى الأبد!»

وأرخى قبضته فارتمت إلى الوراء مصفرة الوجه جاحظة العينين فقد رأت في جماله الحالك شيئاً فوق الطبيعة، أو تحتها!

ففي عينيه أشباح وأشباح، في عينيه نار متقدة، في عينيه لهيب وعلى شفتيه بسمة تتأرجح بين اللين والقسوة.

وفزعت أنا الآخر فارتعشت. وابتعدت مافيز، ابتعدت وهي تتلفت إلى الوراء حتى غاب شبحها عن ناظري.

وحاولت أن أنكص على عقبي بهدوء وسكون دون أن أشعر بوجودي، ولكني لم أخط خطوة واحدة حتى خاطبني لوسيو بصوت خفيض:

«أيها المستخفي، يا مستقطر الندى! لم لم تبرز إلينا أو تقترب منا حتى ترى بوضوح وتسمع بجلاء؟»

فثقل علي تلبسي ولم أجد مناصاً من الرجوع فدنوت منه مستحيياً خجولاً.

وقال وهو يشعل سيجارته ويتفرس فيَّ ببروده المعهود: «لقد شاهدت تمثيلية رائعة، وأنت مطلع على نظريتي بأن جميع الرجال وجميع النساء يباعون ويشرون بالذهب. وقد حلا لي الليلة أن أعجم عود مافيز كلير، ففعلت ولكنها ردتني كما سمعت ورأيت، ولما فعلت ذلك لم أر إلا أن أطلب منها أن تصلي من أجلي» وقلت وأنا لا أزال مرتبكاً: «لقد أجدت التمثيل يا صديقي حتى شككت في الأمر»

فأجاب وهو يضع يده في يدي: «دون شك، وكيف لا أفعل ذلك وبين الشجر صديقي يرقبان ويصغيان؟»

فهتفت وأنا لا أخفي تعجبي: «صديقان؟ من هما؟»

«أنت والليدي سيبيل.. وقد انسحبت سيبيل منذ دقائق كما تنسحب النبيلات عادة من دار التمثيل قبل الختام»

قلت: «أنت مخطئ-إنني لا أنكر تطفلي-ولمن زوجي لن تفعل ما فعلت..»

قالت: «وثق أني كما قلت لمافيز، أستطيع أن أدفع الناس للحب ولكني لا أستطيع أن أحب ـ فالحب في هذا الكوكب الحقير شيء وضيع دنيء..

وهو فضلاً عن ذلك شيء قصير الأمد أقرب إلى الحلم، وأنني في كثير من الليالي أحلم، وقد رأيت في الحلم مرة روحاً عيناها أكثر سطوعاً من الصباح، وقدها أرشق من اللهب ـ وهي تغني، وقد أصغيت لصوتها، وكان غناؤها رائعاً ولكن لا معنى له، كان شيئاً يشبه هذه الكلمات وهذا النغم ـ

إلى النور

إلى قلب النار

إلى اللهب المميت

ارتفع وأطير

والدنيا من تحتي تدور وتدور

وعجلاتها تضج وتصخب

وحول الشمس تحلق في الفضاء

وفوقي تنحي السماء

وقد انتشرت فيها النجوم

وأنا ملكة

ملكة الهواء والدفء

أحلق برايتي كجناحين منبسطين

وحيدة ـ وحيدة ـ

مع اللّٰه ودنياه وخليقته

وأتم كلماته بضحكة رنانة وقال:

«كانت روحاً عجيبة لأنها لم تر إلا نفسها والله والكون ولا شك أنها عميت عن العقبات التي يقيمها الإنسان بينه وبين صانعه»

وفرغ صبري وخيل إلي أنه مجنون يلغو ويهرف

وتراءت لنا في تلك اللمحة سيبيل بقوامها الممشوق، فقال هامساً:

«ها هو ذا ملاكك الحارس يأتي إليك!»

ملاكي الحارس!

وأي ملاك!

* * *

انقضّت الصاعقة فزعزعت حياتي. انقضت في الليلة التالية فجأة ودون إنذار. وجاءتني الكارثة فأصمتتني عندما تجرأت فحسبت نفسي سعيداً زال الشقاء من حياتي!

في ذلك اليوم ـ اليوم الأخير الذي تذوقت فيه معنى الكرامة لآخر مرة، اليوم الذي خيّل إليّ أن سيبيل قد استحالت فيه إلى امرأة نبيلة المشاعر، هادئة الطبع، رصينة عاقلة ـ عندما تبدت في حلّة زاهية من الجمال والحُسن، وكأنها تطمع في الاستيلاء عليّ، أو كأنها ترجو أن تأسر لب لوسيو ـ لا أعلم ـ أجل في ذلك النهار الذي بدا صبحه مشرقاً، وأخذ ليله يقرر حياتي ويحكم على مستقبلي، قضيت مع زوجي ولوسيو صديقي ساعات ممتعة بين الخمائل والدوح، فأكلنا وشربنا ونعمنا بحديث لوسيو وبغنائه، دون أن يكدّر صفونا مكدر، ثم أوينا إلى مضاجعنا نبغي الرقاد بعد أن داعب الوسن عيوننا

وكنت في الأيام الأخيرة قد انقلبت إلى رجل يحلو له قضاء الساعات الكثيرة في النوم، ولهذا ما كدت استلقي في فراشي الوثير حتى استولى علي النعاس فغبت في نومة لذيذة تخللتها الأحلام

والأحلام دنيا قائمة بذاتها؛ الأحلام جوّ الطيور، والطيور عقول تشرد في الليل فتحلق في كل أفق، وترود على كل سماء

ولكني استفقت على غير عادة، ففتحت عيني وتلفت حولي، فلم أجد سيبيل..

وخفق قلبي.. أين هي؟ إن الليل بهيم والساعة متأخرة، فأين زوجي؟

ووثبت في وجلٍ فارتديت ثيابي واندفعت إلى الباب ففتحته بهدوء وخرجت إلى الدهليز ـ فلم أجد أحداً

وكان الدهليز يؤدي بسلم خشبي إلى ردهة متسعة كانت تستعمل قبل ابتياعي للقصر كقاعة موسيقى. وكان القسم الأقصى منها مُضاءً بسراج زيتي

وتقدمت بحرصٍ في الظلام المرخي سدوله فلمحت شبحاً أسود مديداً تنعكس عليه أشعة القمر في خيوط متماوجة تتسلل من النافذة، وتناهت إلى سمعي المرهف أصوات خافتة لشخصين يتبادلان الحديث

وجفّ ريقي وارتعشت، وتقدمتُ كالوحش المفترس وأنا أكاد أختنق، وقد تزاحمت الأفكار الشريرة في رأسي واقتتلت في صراع رهيب

ورأيت وأنا أقف جامداً مصعوقاً ـ زوجي سيبيل في ثوب شفاف فاضح، وهي تجثو في خضوع وتطامن، وقد انتثر شعرها في تهدل متوحش، وتشابكت يداها في تضرع، وارتفع وجهها الممتقع ـ إلى أعلى ـ إلى شبح مائل أمامها كأنه النقمة ـ شبح لوسيو!

ونظرت بعينين محملقتين زائغتين... فماذا أرى؟ ومن هذه المرأة! أهي زوجي الزائفة؟ أو صديقي الخائن؟

وتمتمت: «صبراً ـ صبراً ـ فما الذي أرى سوى تمثيلية أخرى من تمثيليات هذا الصديق المدهش ـ صبراً.. ولأسمع ما يقال..»

ولصقت بالجدار وانصت لصوته، ولصوتها

وتكلمت ـ زوجي تكلمت! وفهمتُ كل كلمة نبستْ بها، وتحملتُ الكارثة الفادحة من غير أن أنطرح على الأرض فاقد الحياة من العار والشنار ـ من اليأس الذي اجتاحني في تلك الساعة عاصفته العاتية الهوجاء، كما لم تجتاحني من قبل عاصفة أخرى من انفعالات الحياة.. قالت وكأنها تستمطر الرحمة، وكأن الرحمة التي تستمطرها ألسنة من لهيب يلذعني ويلسع مهجتي.. قالت، ويا ليتها لم تقل:

«أحبك! أي لوسيو، إني أحبك وحبي يقتلني! كن رحيماً! ـ أشفق علي! أرث لحالي ـ أحببني لساعة؛ لساعة وجيزة! ـ وليس هذا بكثير، ثم افعل بي ما تشاء ـ عذبني، اطرحني جانباً، ارمِ بي على قارعة الطريق، إلعنّي أمام السماء ـ فلن أُبالي ذلك ـ أنا لك جسماً وروحاً ـ أحبك.. أحبك!»

أصغيت هائجاً يعربد في قرارتي شيطان مريد، ولكني زجرت هذا الشيطان قائلاً:

«صمتاً.. صمتاً.. إنها تمثيلية، ولها خاتمة!»

وانتظرت على مضض ـ مقهوراً، معذباً، متوتر الأعصاب، متلهفاً لمعرفة جواب لوسيو

وجاء الجواب مصحوباً بضحكة خافتة هازئة:

«هذا شرف لي، غير أني لا أستطيع أن أستجيب!»

وقفز قلبي بين ضلوعي من شدة الفرج، واستطعت بصعوبة أن أكتم ضحكة انتصار وظفر تكونت في صدري وأوشكت على الانطلاق

وزحفت سيبيل متقربة منه وقالت بخنوع:

«لوسيو ـ لوسيو! أفي جنبك قلب؟ أترفضني وتدرأني عنك عندما أبتهل وأتضرع؟ وعندما أقدم لك نفسي ـ جميع نفسي ـ جميع ما أنا، أو ما آمل أن أكون؟ أبمثل هذه الصورة تنفر مني وتشمئز؟ كثيرون هم الرجال الذين يضحكون بحياتهم لو قلت لهم ما أقوله لك ـ ولكنهم لا شيء بالنسبة لي ـ وأنت وحدك دنياي ـ ونسيم حياتي وكياني! ـ آهٍ يا لوسيو، ألا يتسنّى لك معرفة وإدراك مدى حبي لك؟»

واستدار نحوها بحركة هائلة أخافتني وأجابها بلهجة تشي بما يخالجه من غضبٍ مشوبٍ بالتهكم:

«أنت تحبينني؛ ومنذ اللحظة الأولى قفزت إليّ روحك المتقمصة جسدك ـ الروح التي استحقت اللعنة ـ هذه الروح الملعونة تعرفت على سيدها! أجل ـ على سيدها»

وندّت من صدرها زفرة محرقة وانحنى هو فاختطف يديها وضغط عليهما واستتلى:

«اصغي للحقيقة التي أصفك بها ـ أنت تحبينني ـ إن جسدك وروحك هما ملك لي إن أردت! لقد تزوجتِ والكذبة لاصقة بشفتك، وأقسمت

كاذبةً على الإخلاص، وأنتِ تعلمين أنك ستحنثين، وهكذا جعلتِ من البركة الزوجية كفراً ولعنةً! إن القبلة التي طبعتها على وجهكِ يوم زفافك مزجتْ دمائك بالنار وختمتكِ بخاتم العبودية ـ لي أنا! ولو أردت أنا.. ولو أحببتك كما أحببتني لما ترددت عن الفرار اليّ ليلة اعراسك ـ هذا إن اخترت اسم الحب لهذا الوباء المؤلف من الرجس والرغبة ـ اما الآن فاستمعي! انني أبغضكِ! نعم أبغضكِ كما أبغض سائر النساء! لأنكنَ تدمرنَ الدنيا ـ أنتنّ تحلن الخير إلى شر ـ أنتن تقلبن الاستهتار إلى جريمة ـ وبالإغراء الذي يتجسم في أعضائكن العارية وعيونكن الكاذبة تجعلن من الرجال كائنات حمقى جبانة متوحشة! وعندما تمتن يتسرب الإثم والجريرة من أشلائكن ـ هذه الأشلاء التي كانت يوماً ما أجساماً فارهة لذيذة.. ولا نفع لكنَّ في الحياة لأنكن سم الموت.. إنني أكرهكن كلكن! إنني أقرأ أرواحكن ـ إنها كتاب مفتوح ـ وهي موسومة بذلك الاسم المطلق على الإثم.. أنتن تتبوأن مركزاً عالياً كريماً في هذه الدنيا ولكنكن لا تتورعن عن بيع أنفسكن إلى الشيطان!»

وصمت لوسيو الرهيب، وطفقت أتتبع حركات زوجي وأتساءل عما لحق بكرامتها وزهوها، حتى ترضى لنفسها بهذا الامتهان، وحتى تجثو منكمشة تلقاء الرجل الذي ساطها بكلماته

وصاحت بصوت مبحوح: «لوسيو!.. لوسيو!.. قل ما تشاء ـ قل كل شيء عني ـ إنني شريرة، ولكن هل هناك يا ترى أي منفعة من الفضيلة؟ إنني عبدة الرذيلة لأن الفضيلة قاحلة ناضبة.. ولأن إنكار الذات لا يعقب إلا الشقاء.. إني لا أعترف بإله، وسوف أمضي مع الماضين بعد سنين، فلمَ إذن تريدني أن أفقد هذه المتعة؟ وهل يشق عليك أن تسقني من رحيق

حبك جرعة واحدة؟ ألست جميلة؟ وهل لا ينفع صدى نفسك ما أتمتع به من أنوثة ورواء؟ ألست رجلاً تعتلج في صدره الشهوة؟ اقتلني كما تشاء وبقسوة كلماتك، فأنا لا أبالي! أنا أحبك ـ أحبك!»

وقفزت واقفة وانتصبت، فبدا جمالها المتوحش كأنه شعور متجسم للحب الغاشم الذي يطلب ويطالب

وقالت والإغراء يتهادى في دلال مع صوتها: «أنظر إليّ! لن تجرؤ على ركل هذه الفتنة! لن تركلها بقدمك!»

وخيم الصمت وحملقت عيني في أسارير لوسيو، فرأيته يستدير ليواجهها بوجه ينطق بالويل ـ وكانت عيناه تأجّان أجيج الاحتقار ومع ذلك فقد ضحك ضحكة مجلجلة تجاوب المكان صداها وقال: «لن أجرؤ! ـ هذيان امرأة ـ صرخة حيوان كامن في أعماق حيوان جميل متنمر زاد فشله وإخفاقه من وحشيته حبك هذا تافه لا يستحق الالتفات.. ويا لضعة من يتقبله! يا لأسفاف من يبادله! أنتِ تباهين بجمالك؟ مرآتك تعكس جسداً مغرياً وسحراً وفتنة، إلا أن مرآتك كاذبة! وأنت لا ترين فيها انعكاس نفسك لأن هذا الانعكاس يملأ قلبك خوفاً وفزعاً ورهبة.. أنت لا ترين فيها إلا قناعاً فانياً آخرته الاختلاط بالتراب الذي وجد منه. جمالك! إنني لا أراه أبداً ـ إنني أراكِ أنتِ! وأنتِ بالنسبة لي شيءٌ تافه حقير. إنني أكرهك وأمقتك لأنك أسأتِ لي وحطمتني ـ إنني أبغضك لأنك أضفت عبئاً جديداً إلى أعباء العقاب الملقى على عاتقي!»

وتحركت سيبيل ومدت يدها، ولكنه أوقفها بإيماءة وإشارة وهو يصيح:

«قفي حيث أنت! خافي مني كما تخافين من الهول! أيتها السماء

القاسية ـ أواه إني أكاد أن أكذب نفسي ـ منذ ليلة ارتفعت ودنوت من سعادتي المفقودة ـ والليلة تجيء هذه المرأة لتهوي بي ثانية، ولتهبط لأهبط! وها أنذا أصغي لباب الفردوس يصفق بشدة. أيها العذاب الأزلي! يا أرواح الرجال والنساء اللئيمة! ألم يبقَ في قلوبكم أي خوفٍ من الله؟ وهل تزمعون أن تبقى أحزاني وتبقى آلامي وأبقى أنا المكسين أتضور وأترمض وأتيه في هذي الفيافي المظلمة؟»

ولكنها قالت وكأنها لم تسمع كلماته: «وماذا فعلت لك يا لوسيو؟ أنا التي أحبو على يدي وقدمي أمامك ذليلة صابرة، أنا التي أهواك وأتعذب في هواك، أنا التي ما قبلت الزواج من جيوفري إلا لأبقى على مقربة منك، أكافأ بمثل هذا العقوق وبمثل هذه البغضاء؟ ألا فاعلم أن حبك راسخ في قلبي حتى الموت!»

قال: «وبعد الموت، أتستمرين؟»

فأجابته بصوت متهدّج: «بعد الموت!..»

«نعم ـ بعد الموت! فهناك بعد الموت شيء آخر وأمك تعرف هذا!»

وأنّت سيبيل وحدّقت في وجهه. واستتلى هو:

«أيتها الحسناء، كانت أمك مثلك شريرة مستهترة، وهي مثلك أيضاً تبعت سبيل الغواية حالما ظفرت بثقة زوجها وموافقته! وقد اختارت أكثر من عشيق، وأنت تعرفين ما انتهى إليه أمرها. ففي قانون الطبيعة ما يثبت أن الجسد المضمحل هو نتاج العقل المضمحل ـ ولا شك أن وجهها في أيامها الأخيرة كان انعكاساً صحيحاً لروحها.. وأنت الآن ترتعشين من الخوف ومع ذلك لا تنكرين أن الشر الذي سكن قلبها

يسكن قلبك.. وإني أسألك مرة أخرى هل تحبينني وهل تستمرين في ذلك عندما تعلمين من أنا؟»

وكررت كلماته بشرود:

«عندما أعرف من أنت! أَوَلا أعرفك؟ أنت لوسيو، لوسيو ريمانيز ـ حبيبي ـ وصوتك هو الموسيقى التي تشنف أذني ـ وجمالك هو السحر الذي أعبده ونظرتك هي السماء.. السماء..»

وأتم هو بضحكة ناعمة:

«والجحيم، الجحيم.. تعالي، اقتربي مني!»

«ودنت منه، وأشار إلى الأرض وقال:

«ما دمتِ تحبينني فانطرحي على ركبتيكِ، اركعي، اجثي، اعبديني!»

وتهاكلت على الأرض وجثت مستكينةً، ورفعت يديها إليه وقالت:

«أعبدك بكل جارحة من جوارحي ـ يا مَلِكي! يا إلهي! كلماتك القاسية تزيد من عمق حبي.. في وسعك أن تقتلني ولكنك عاجز عن تغيير ما في قلبي! وإني أموت راضية أن قبّلتني مرة واحدة.. إني أتنازل عن روحي إن عانقتني دقيقة واحدة!»

«وهل في جسدك روح؟ ألم تتخلِ عنها؟ أيتها المرأة، لو كانت النساء طاهرات صادقات فلن يعتم الهناء المفقود أن يرجع إلى الدنيا، إلا أن معظمكن مجبولات على الكذب، يتظاهرن بما ليس فيهن، ويكتمن الشر والإثم، ويقترفن الموبقة، ويملأن الدنيا بأقذارهن.. أنتِ تقولين إنك توّاقة إلى حبي، أنت تعربين عن استعدادك للتضحية بحياتك من أجل ساعة

واحدة من حبي، ولكني لن أعذبك، أو اقتلك أو أشهّر بكِ على ملأٍ من الناس، او ألعنك أمام السماء أو أحبك، بل يكفيني أن أدعو إليك زوجك!»

وتأهبت للوثوب. وصاحت وهي تلهث: «لن تجرؤ على ذلك لن تفضحني..»

«أفضحك! إنك نطقت بهذه الكلمة متأخرة لأنك شهّرت نفسك بنفسك»

واستعر أُوار غضبها وانفجرت ثورتها فأضحت كوحش جميل بديع التكوين ـ وحش يرتجف ويهتز ويتحفز للانقضاض على فريسته

وصاحت بصوت جهير: «أنت تردني وتهينني! أنت تدوس على قلبي وتحتقر حبي وتضاعف يأسي.. ولكنك سوف تندم! أنا لك، أنا ندّك! وسأنتقم، سأنتقم لأني أحبك.. سأنتقم وقد اتخذت الأهبة!»

وبحركة سريعة انتضت من ملابسها خنجراً صغيراً ورفعت يدها إلى أعلى واستطردت:

«أحببني قلت لك! أحببني وإلا طعنت نفسي وصرخت ـ أي جيوفري لقد قتلني صديقك!»

وما أسرع ما قبض لوسيو على يدها واختطف المدية منها وهو يقول ضاحكاً:

«مكانك على خشبة المسرح أيتها السيدة!»

ودفعها إلى الوراء فتعثرت وسقطت. ولكنها عادت فقامت وخطت نحوه ببطء وهي تقول:

«أي لوسيو ريمانيز، أهنتني فاحتملت الإهانة كما كنت مستعدة أن أتجرع كأس المنون من يدك. قلت لي إنك تكرهني وتمجني ولا أزال حتى الآن أحبك! أنا لك فلا تقصني عنك، أنا لك فامحضني الحب وإلا قتلت نفسي.. فكر في الأمر، سأتركك لتفكر؛ سأتركك الليلة وطيلة نهار الغد لتفكر؛ إنني أحبك فأعطني المحبة، كن حبيبي ولن ندعه يعرف شيئاً. إياك والرفض، إنني لا أمثل دوراً، إنني أقول ما سيجري، وأعني ما أقول!»

«هذا رائع أيتها المرأة»

«سأنهي حياتي لأني لا أحتمل الحياة خالية من محبتك ـ إنني عطشى ولا يروي ظمأي إلّا رضاب شفتيك.. إنني جائعة ولا يشبعني إلا انضمامة ساعديك على جسدي! أيها القوي.. يا قوي الجاذب، يا قوي النظر، يا قوي اللسان، يا قوي البسمة، يا قوي الجمال ـ الجمال الذي يضعك في مصاف الملائكة ـ يا قوياً في كل شيء ويا قاسياً ـ يا قاسي القلب! وهل هناك في الدنيا رجل يضاهيك! عندما تتكلم أسمع الموسيقى، وعندما تغني يخيل إلي أني أفهم تسابيح شاعر السماء.. لوسيو! انتظرني غداً قرب كوخ مافيز كلير»

وحدق فيها صامتاً ولم يحر جواباً

ومضت تقول: «لقد سمعت كل كلمة قلتها أنت لمافيز كلير، تعقبت خطواتك وأصغيت لكلماتك. فيا ويحك! لكم نهشَتْني عقارب الغيرة في تلك الليلة! ولكني حمدت اللّه ـ حمدت اللّه الذي لم أحمده قط ـ لأني اكتشفت أنك لا تحبها! فإن انتظرتني علمت أنك لن تردني، وعلمت أنك ستحبني لساعة واحدة.. وهذا كل ما أطمع فيه ولن أخاف الموت!»

ورمت بنفسها على حين غرة على صدره وأحاطت عنقه بذراعيها ورفعت وجهها إليه.. وجن جنوني ـ أيصمد لوسيو أمام التجربة؟ أجل.. وها هو ذا يرخي من عنقه يديها.. إنه يبعدها عنه، إنه يقول:

«أيتها الملعونة في السماء والأرض أتريدين مني أن ألاقيكِ في ذلك الكوخ النقي؟ أتريدين مني أن ألوث عتبة الفردوس؟ هيهات.. هيهات.. إننا أقذر من أن نتخطى ذلك المكان الأمين الذي يفيء عليه هناء النعيم ويظله الإيمان بجناحيه!»

وضاق صدري، واجتاحت قلبي موجة عارمة من الغيظ والحنق، فأنصلت من مكاني وانقضضت على زوجي فجررتها من يدها وأبعدتها وأنا أقول:

«ابتعدي عن صديقي أيتها المذمومة! منذ ساعة ظننتك زوجي وخليلي، وألقيتك الآن شاة تبحث عن سيد جديد!»

18 ـ الويل الثبور

ضيعتني الحياة!

فاشتهيت الموت..

وقفنا نتبادل النظرات

أنا اللاهث اللاغب

ولوسيو الهادئ الناطق الأسارير بالاحتقار..

وزوجتي الحانثة، المتعثرة إلى الوراء، الخائفة، المرتعبة..

وقلت بعد لأي: «سمعتكِ! ورأيتكِ! رأيتكِ تحنين الهامة وتعفرين رأسك ذليلة مستجدية، وتركعين بخضوع المستسلم أمام صديقي الحميم..

«وأنا الزوج الأبله الغافل، أنا من لك قلبه، أنا الذي غررتِ به واختبلته.. أنا البائس الشقي الذي اشترى بماله أحقر تاجرة

«وهل تجسرين على تلويث كلمة الحب بلسانك القذر؟ رباه من أي طينة جُبِلتِ يا ناكثة، يا فاجرة! وكيف لا نستحيل نحن الرجال إلى مجرمين نلغ الدماء؟ كيف لا نقترف ونجترح الإثم وأنتن توسعننا خيانة؟

«أنا الذي أحببتك ـ أنا الذي هِمْتُ بك وكَلِفْت ـ أنا الذي كنت مستعداً للموت إذا كان الموت خير لك وسعادة!!

«أنا ـ وقد اخترتني دون سائر الرجال لتقتليني بغدرك!»

وقبضت على مخنقها، وضبثت به حتى أدميته، ثم أرخيت قبضتي، فنظرت إلي متحديةً وقالت:

«لمَ اقترنت بي؟ أمن أجلي فعلت هذا، أم من أجلك أنت؟»

وصمتّ، وكأن لساني تخشّب في جوفي..

واستتلت بلهجة المنتصر:

«أتزوجت بي لأنك تقت إلى سعادتي؟ أم لأنك رغبت في إضافة جاهٍ إلى جاهك؟ ألم أخبرك ما أنا؟ وهل عدلت عن ربط حياتك بحياتي؟ كلا بل واصلت الإعداد والاستعداد! ما أحببتك قط، ولم يكن في وسعي أن أحبك ولم أكتمك حقيقة مشاعري.. وسمعت، سمعت ما قلته الآن لصديقك.. وعلمت، علمتَ أنني رضيتُ بك طمعاً في الفوز ببغيتي الوحيدة في الحياة!

«إنني أعشق لوسيو، ولا أخجل من الجهر بعاطفتي! وكل امرأة غيري تضحي بالدنيا ـ بزوجها وأولادها ومالها، متى تسنّى لها بلوغ وطرها من لوسيو.. أو تدري من هو؟ إنه فاتن النساء قاطبةً.. وأنا.. إنني أموت من أجله.. إنني أفنى فيه.. وسأبقى على حبي له حتى تجف الدماء في عروقي.. ولك أن تطلقني إن استطعت.. لن أعترض، فحاول»

واستدارت لتذهب، وحملقت فيها كما يحملق إنسان وقف عقله في مكان واحد، وجمد فكره، وأصابته لوثة أضاعت حجاه

ولكن صوت لوسيو أوقفها فالتفتت إلى الوراء ورَنَت إليه بلحظٍ ملتهب

قال: «حالة عصبيّة عصيبة، ولكني لا أوافق على الطلاق ليس فقط حفظاً لاسم السيدة، بل درءاً للقال التي يلحقني منها الضرر كل الضرر.. فأنا بريء براءة الذئب من دم يوسف، وليس لي أي شأن في الحادثة»

فهتفت وأنا أضغط على يده بودٍ ومحبة: «بريء! أنت النبل مجسماً! أنت الصديق الوحيد الذي يرعى صداقته ولا ينكث بعهد صديقه! وشجاعتك أبلغ دليل على براءتك ـ شجاعتك جعلتك تصرح بما يعتمل في قلبك. لقد سمعت كل كلمة نطقت بها أنت ونطقت بها هي، هي الخائنة!»

فعارضني بقوله: «المعذورة، إن من غير اللائق أن تنعت الليدي سيبيل بالخائنة، فهي تتألم ـ من ـ دعنا نقول، من توتر وانهيار بالأعصاب! قد تكون مخطئة في فكرها؛ ولكن المجتمع لا يدين بما يدور في الخلد، إلا أنها بريئة في العمل، بريئة براءة الثلج مما يلطخ لونه الناصع!»

وشعت عيناه، وقلت:

«والعجيب يا لوسيو أنك تفكر بمثل ما أفكر فيه، أنت تشعر معي، ولكن، من المستحيل أن أجد لها العذر»

ثم انثنيت إلى سيبيل وقلت متأجماً وبصوت أجش مخيف:

«ألم أنقذك وأنقذ عائلتك من المتربة؟ ألم أنقذ أباكِ من ديونه؟ ألم أقدم لك وأخلع عليكِ أندر الجواهر؟ ألم تصبحي أكثر ترفاً وبذخاً من الملكات؟ كل هذا، كل هذا لم يكفِ ليجعلك تشعرين بواجبك تجاهي!»

فأجابت ببرودة وجرأة: «أنا لا أدين لك بشيء لقد أعطيتك ما ابتعت بمالك ـ أعطيتك جمالي ومكانتي الاجتماعية؛ وهذا يكفيك، ويجب أن تقتنع!»

وقال لوسيو: «لا أيتها السيدة، لا، يجب أن تكوني زوجة وفية»

قالت وهي ترمقه بعينيها المتحديتين: «وهل تظنني أرضى بالعيش معه بعد الذي جرى الليلة؟ وماذا ترى في؟ أأنا تلك المرأة الذليلة التي تقبل بالعار على يدي رجل، إن هي لم تحبه؟»

قال: «ليكن كلامك مقبولاً معقولاً، لا تكوني كسواكِ من النساء اللاتي لا يزن القول ولا يعلمن الفكر قبل أن يصدر عنهن الكلام. لن يفيدكِ في شيء إصرارك على موقفك، وخير لي ولك ولزوجك أن نسدل على الحادثة ستارة صفيقة حتى يبقى الأمر مكتوماً، وحتى لا تلوك الناس سمعتك»

ودنت منه وكأنها لم تفهم معنى كلماته، ومدت له يديها

وهي تقول:

«لوسيو! لوسيو! أيها الحبيب! أسعدت مساء! أسعدت مساء!»

ووثبت فوقفتُ بينه وبينها وأنا اصرخ: «أيتها الوقحة! يا قليلة الحياء! أتجسرين على ذلك؟»

فأجابت ببسمة عريضة: «لا، لا.. إنني أباهي الدنيا بحبي ـ بحبي لمثل هذا الملك العظيم! أنظر إليه! ثم انظر إلى نفسك في أقرب مرآة لكي ترى ما أنت عليه من الدمامة والصغار إذا ما قورنت به! والآن لا أرى غضاضة في أن أودعك كما ودعته ولكن أعلم أني لن أعيش معك»

وهتفت: «وأنا الآخر لن أقبل بالحياة معك يا امرأة!»

ومضت متلكئة ولكن برأس مرفوعة. وصحت أنا بصوت الولهان ـ

بصوت طير ذبيح: «لوسيو.. لوسيو.. يا صديقي! أظن أني أموت! لقد حطم قلبي!»

وشعرت وأنا أنطق بهذه الكلمات المتقطعة إن فراغاً مريعاً قاتماً انفتحت مصاريع أبوابه في أعماقي ـ وهويت فاقد الرشد

أواه! الرحمة.. الرحمة.. وقد جاءتني في غيبوبتي

غبت عن صوابي فلم أعد أشعر. غبت غيبوبة كاملة ويا ليتني ما أفقت! فإنني لما أفقت وفتحت عيني الكليلتين المتعبتين استعدت إلى الذاكرة ما حصل لي، فأننت أنين المكلوم

أنا الذي أدركت إلى أقصى غاية الإدراك الحقيقية التي لا تدحض عن الحياة الأبدية، أنظر الآن إلى المستقبل اللانهائي وقلبي واجف وعيناي مستعبرتان، وخوفي يقض مضجعي ويكحل بصري بالسهاد

لقد أضعت وقتي هباءً وركلت بقدمي الفرص الثمينة، ومع أن الندامة قد تعوضني عما فقدت، إلا أن الندامة أمرها طويل شاق

فمن السهل أن يفقد الإنسان مجداً من أن يظفر به. ولو استطعت أن أموت تلك الميتة التي يرجوها السلبيون ساعة اطّلعتُ على الحقيقة المُرّة لكان الأمر أفضل وأهون وأيسر

وهكذا لم تكن غيبوبتي إلا انصرافاً وقتياً عن شقوتي وبلوتي

ولما استعدت رشدي ألفيت نفسي في جناح لوسيو، وكانت النوافذ مفتوحة على مصاريعها وأشعة القمر تغمر الغرفة التي كنت فيها

وارتعشت وأنا أعود إلى الصحوة فقد تناهى إلى سمعي لحن شجي،

ففتحت عيني ببطء ورأيت لوسيو يجلس تحت ضوء القمر وهو يمرر أنامله على أوتار كمانه

وذهلت.. فكيف يقدر هذا الصديق أن يلهي نفسه بالموسيقى وصديقة المفؤود يتقلب ويتلوى من الألم؟ والإنسان مطبوع على الاعتقاد بأنه متى فدحه خطب وجب على الجميع أن يحزنوا ويشجنوا بل وجب على الطبيعة بالذات أن تكسو نفسها بمنظر بائس يوحي بالأسى والشقاء!

هذت هو جشعنا، هذا هو الإنسان الذي لا يحب إلا نفسه، الإنسان الأناني المستأثر الذي يموت والطموح ملء عينيه! ولما تململت في مضجعي، قال لوسيو وهو يرنو إليّ: «لا بأس عليك يا صديقي لا تُقلِق نفسك بالفكر»

وردّدت كلماته بمرارة مفرطة: «أقلِق نفسي! ولماذا لا تقول أقتل نفسي؟»

«لأني لا أجد سبباً يدعوك إلى قتل نفسك. ولو اعتقدت أن هناك ما يضطرك إلى ذلك لما ترددت عن حفزك إليه، لأن الانتحار أهون من الكآبة والقلق. وإني لأهيب بك الآن ان تنظر إلى المسألة كلها نظرةً هادئة رصينة متزنة»

«نظرة هادئة! أيضيع شرفي ثم تطلب إليّ أن لا أفقد رشدي؟ أنت تطلب الكثير ودون الذي تطلبه خرق القتاد!»

«أي صديقي، إنني لا أطلب منك إلا ما يُطلب من مئات الأزواج من الرجال. ففكر! لقد انحرفت امرأتك عن الجادة قليلاً بداعٍ من توتر الأعصاب وانهيارها. إنها لا تعرفني بل تعرف نظرتي وجمالي. وهي لا

تراني إلا كما أبدو لها. وحب المظهر الخارجي الجميل شيء مألوف لدى النساء، ولكنه يمر كما تمر السحابة في السماء الصافية. إنه مرض طارئ لا تلبث المصابة به أن تشفى وتبل. أما النتائج فهي مطمئنة لأن شرفها لم يُخدش بعد، ولأن سرها لا يزال طي الكتمان، لا يعرفه إلا نا نحن الإثنين. فلمَ إذاً تزمع أن تثير الضجة؟ إن جل ما يصبو إليه المجتمع في كل حين هو إضفاء السرية التامة على العواطف الوحشية والخلافات المنزلية حتى لا يطّلع عليها أحد. وفي وسعك أن تكون شر البريّة ولكن في الخفاء، ولو علم اللّه بما يجري فلن يسيء هذا إلى أحد لأن اللّه واحد عزيز صمد!»

وتراقصت في عينيه نظرة هزء وشر، فخفت وأجفلت، وخيل إلي أني أرى الشيطان الرجيم في هاتين العينين. وما لبث أن حرك يده الثانية فتصاعد اللحن المدهش. ثم رفع عقيرته بصوت حسن وأخذ يغني ويردد:

«متى عزفتِ عني بلحظٍ فاتر

فلمَ الكآبة والنساء كثير!»

وعاود الغناء مثنى وثلاث ورباع ثم قال لي وهو يومض بعينيه:

«هكذا أريدك يا جيوفري، ولو أنه من الصعب عليك في هذه الساعة أن تجاريني فيما أرتأيه. إنها الطريقة المثلى يا صديقي في معاملة النساء. إن امرأتك في نظر الدنيا بأسرها وفي رأي المجتمع كله فوق الشبهات: كقيصر. ولا يعرف شيئاً إلا أنت وأنا والله، لا يعرف شيئاً عن ساعة الجنون هذه إلا أنا!»

وأجبته محتدماً: «جنون! هذا قول هراء يا لوسيو.. إنه ليس بالجنون، بل إنه الحب الأعمى، لقد أكّدت هي، كما اعترفتَ أنت بأنها لا تجهل حبها»

«اعترفت بأنها مصابة بانهيار وتوتر في الأعصاب، لأن السواد الأعظم من النساء لا يحزن ذلك الشعور الحقيقي الجدّي، أنهن لا يشعرن إلا بالباطل، فاطمئن؛ إنهن لا يعلمن معنى المحبة العظمى. ورغبتهن الكبرى هي إحراز النصر ـ ومتى فشلن في إحرازه يهرولن هابطات في أخدود العار بجنون ـ بجنون مسعور! ولكن علينا أن نكبح جماحهن قبل فوات الأوان. فأصغِ يا جيوفري، سأذهب على التوّ إلى باريس أو موسكو أو برلين، سأغيب حتى ترجع الأمور إلى نصابها، بل سأغيب إلى الأبد. وهكذا تسنح لك الفرصة لإزالة ما شاب حياتك وحياتها من كدر»

«لا.. لا.. لن أفترق عنك! ولن أعيش معها! فخيرٌ لي أن ألزم صديقي من أن أعيش مع زوجة لا تقيم وزناً للشرف ـ مع زوجة زائفة!»

ونهض واقفاً وهو يزوي ما بين حاجبيه، ثم دنا مني ووضع يده على كتفي وقال:

«أنت تضعني في مأزقٍ حرج. في وسعك أن تهجر امرأتك، ولكن هذا يكون إجراء أحمق، يطلق إن عمدت إليه، ألسنة السوء من عقالها. وإني لأمحضك النصح في أن تتئد وتفكر قبل أن تبتَّ في رأي. رافقني غداً إلى المدينة واقضِ ساعاتٍ هناك معي فقد يتبدل رأيك وتتغير نظرتك. والآن هيا اذهب إلى مخدعك لتنام»

فاقشعر بدني وأنا أجيب: «أنام! أنام معها في حجرة واحدة! وهل جننت؟ وكيف أنسى؟ كيف أنسى ما حصل؟»

«فلا بأس عليك غداً من النوم في الحجرة المجاورة لحجرتي، وسأمزج لك دواءً مسكناً فهل تجرعه؟»

«لن أتردد في تناول السم من يدك! فلم تقدمه لي ـ ذلك السم ـ لأرتاح.. لأنام نومة أبدية.. لأنسى هذه الليلة التي حفّزت في قلبي جرحاً لا يندمل!»

رجع إليّ وعيي الكامل مع طلوع النهار فتذكرت والغصّة تخنقني جميع ما وقع لي، ولكني طرحت جانباً كل فكر بالتذرع بالعنف. ومع أن اليأس ملأ شغافي إلا أن ذهني قرر شيئاً لا رجعة عنه ـ قرر أن يهمل سيبيل، قرر أن لا يراها مطلقاً

وهكذا لم ألبث حتى توجهت إلى غرفة مكتبي وحررت هذا الكتاب:

«سيبيل..

بعد الذي ظهر منكِ أمس لن يكون هناك بيننا أي اتصال. أنا راحلٌ مع صديقي إلى لندن. ولن نعود. في وسعك المكث في ويلوسمير ـ فالمنزل لك ـ ونصف ثروتي التي خلعتها عليك ستمكنك من مواصلة ترفك وبذخك، وهذا ما تتوقين إليه

وإنني سأترك هذه البلاد عن قريب وسأحرص كل الحرص على ألا ألقاكِ. أما تعنيفكِ على انحرافكِ وسوء فعلك فلا جدوى منه لأنك ضائعة فقدتِ كل شعور بالخجل. لقد انحططتِ إلى الدرك، وانسقتِ مع عاطفة قذرة تلقاء رجل يحتقركِ ـ رجل يكرهكِ لأنه أبيٌّ مخلص ينفر من الخيانة والغدر والمُراءاة ـ ولا يمكنني قط أن أعفو عن الإساءة التي وجهتها إليّ، وأتركك الآن لضميرك ـ إذا كنتِ ذات ضمير

افعلي ما تشائين بحياتك فلست أكترث بعد اليوم بكِ. أما أنا فلن أدخر وسعاً في محو صورتك من مخيلتي وذاكرتي ونظري»

زوجك

جيوفري تمبست

وبعثت بهذا الكتاب إلى زوجي في مخدعها، ثم غادرت. ويلوسمير مع صديقي بلا ضجةٍ زاعماً لخدمي أن أموراً عاجلةً اقتضت سفري

ولما غاب عنا منزل طالما منيت النفس بأن يكون مرتع سعادتي ونعيمي قال لوسيو وهو يضغط على ساقي بتردد:

«ما أكثر ما مضني هذا الحادث، ويخيل إليّ أني العنصر الأول فيما ألمّ بك من سوء! ولو لم ترني الليدي سيبيل..»

فقاطعته: «لما كنت رأيتها أنا، فأنت الواسطة»

«أصبت.. وهذا يضاعف حزني؛ ولكأني أُلام بصورة غير مباشرة على ما حصل وشجر، على الرغم مما تمنيته لك من بُلهنية ورغد»

وابتسم واستتلى: «وكصديق وفيّ، أُلِحُّ عليك بالتزام جانب الصمت، أي بالتروّي والتأني، فإحداث الضجة لا ينفع لك أو لي أو لها»

«وهذا ما وطنت النفس عليه.. فاطمئن لأني أزمعت ركوب متن السفر؟»

«سقياً لك! اذهب إلى الهند في رحلة صيد، أو إلى إفريقيا لتعقب واقتناص الفيلة.. وهذا ما يفعله كل زوج خاست زوجته بعهده!»

وشاعت الابتسامة ثانية في محياه ولكني لم أبادله الابتسام.

واستطرد:

«أو رافقني إلى مصر، في يختي ـ اللهب ـ وسنذهب إن شئت إلى الإسكندرية، ثم نقضي أياماً وأسابيع في ذهبية رائعة في نهر النيل، فننسى النساء ـ هذه التماثيل البلهاء!»

وتمتمت راضياً: «مصر! النيل! فكرة نيّرة..»

«أجل، فكر.. أرض الآلهة ـ الأرض التي عاشت فيها أميرتي وعذّبت أرواح الرجال! أو من يعلم؟ قد نقع على اكتشاف.. قد نعثر على بقايا آخر ضحاياها! من يعلم؟»

وتجنّبت نظرته، وعادني ذكرى الحشرة المجنّحة المريعة التي أصر على أنها روح امرأة شريرة. وشعرت كأن هناك صلة خفيّة غامضة بين الحشرة المقيتة وبين زوجي سيبيل!

ولما اخترق القطار مشارف لندن وغشي ضواحيها ثم دنا من أحيائها المكتظة ارتفع عن كاهلي عبءٌ ثقيل من الهم، فطفقتُ أتأمل في السابلة وأنظر إلى الأبنية البعيدة والقريبة وأبتعد رويداً رويداً عن الذكرى الممضة

وتناولنا طعام الغداء في فندق سافوي. ودنا منا ونحن مقبلان على طعامنا وشرابنا رجل نظر إلينا مليّاً ثم جلس قريباً من مائدة صغيرة. وكان يحمل بيده كتاباً ما كاد يفتحه حتى علمت أنه كتاب مافيز كلير

وبهر بصري ضياء عجيب، واغرورقت عيناي ـ ورأيت الوجه المليح الصبيح، وجه مافيز كلير.. ورأيت عينيها الذكيتين، وبسمتها الحلوة ـ رأيت السلام، والهناء، والاستقامة، والطُهر والعفة

وغطيت بصري براحتي ـ وعلى الرغم من ذلك شعرت بأن لوسيو يترقبني ويتتبع حركتي وفكري. وقال يخاطبني:

«هناك شر كثير تختلج به قلوب النساء، ومع ذلك فثمة نساء تنضج مشاعرهن بالطيبة والعفة والإنسانية»

فلم أجبه

واستتلى: «في يومنا هذا نرى عدداً غفيراً من النساء يلغطن بمالهن من حقوق مع أن حقهن الأول والأسمى هو هداية وحماية أرواح الرجال.. وهذا تتجاهله النساء.. هذا ما يضربن به عرض الحائط.. والرفيعات، أي نساء الطبقة الارستقراطية يوكلن تربية أطفالهن إلى خادمات جاهلات، ثم يصيبهن خيبة كبرى متى شبّ هؤلاء الأطفال وعقولهم سخف وخرق وجنون. ولو كنت أنا الحاكم المطلق التصرف في هذا البلد لسننت قانوناً أرغم فيه كل أم على رعاية وحماية طفلها كما حكمت الطبيعة لذلك. ولقررت أن كل امرأة لا تصدع بأمر هذا القانون تُدان وتُسجن وتُهان. فتكاسل النساء، وقسوتهن، وغرورهن، وجشعهن، هو السبب الأول والأخير فيما وصل إليه الرجال من انحطاط في الخلق، وأفن وبله!»

ورفعت بصري فحدقت في وجهه وأجبت: «والشيطان هو المحرك.. ثق أن الرجل يعاف المرأة الطيبة، أنظر حواليك إلى ما يسمى المجتمع، كم من الرجال في هذا المجتمع الفاسد ينتقون نساء ملطخات ويطوون كشحهم عن الطاهرات النقيات؟ ومافيز كلير مثل حي وبرهان دامغ لا يدحض!»

«لكم تفكر في مافيز كلير أيها الصديق! ولكنها صعبة المنال. إنها لا تبغي الزواج، مع أن الجميع يفكرون فيها ويشعرون بوجودها»

«وهذا أدعوه حباً جماعياً، وهو لا يوفر لها تلك الحماية التي تنشدها المرأة»

«أتود أن تصبح عشيقها؟ أتستطيع؟»

«أنا! عشيقها! يا إلهي! إن مجرد الفكر بأن أصبح عشيقها معناه الكفر!»

«أصبت، إنه الكفر، وهو أشبه شيء بسرقة الكأس المطهّرة من الكنيسة؛ بل قد تنجح في سرقة هذه الكأس ولكنك تخفق دائماً في الظفر بمافيز كلير، إنها بضعة من الله، تسمع ما لا نسمعه نحن، وتشع بنورها السماوي «على سائر الناس، ولا يلطخ عقلها شائبة، إنها فوقنا!»

وتململت في مكاني ضجراً، فضحك لوسيو ونهض واقفاً وهو يقول:

«لقد سئمت الحديث يا صاح، ولك ملء الحق، فهيا إلى مكان آخر»

ووافقته على فكرته فذهبنا إلى حانة صغيرة لا يؤمها إلا المختارون من الأغنياء، فجلسنا في ركن هادئ واستأنفنا الحديث، ولكن في اتجاه آخر.. وتحدثنا عن مصر فأعربت عن ميلي إلى مرافقته في يخته عندما يبدأ فصل الشتاء. ولم يشيع وقتاً بل شرع قلمه وجعل يكتب برنامج الرحلة كما طفق يخط رسالة مطولة إلى صديق له ينبئه فيها بما أزمعنا عليه

وبينما انا جالس في صمت أنظر إلى صديقي وأحاول ما وسعني الأمر أنا أنأى بفكري عما فرق هذا الفكر وبدده، إذ بصبي يدنو مني فيناولني رقعة مختومة ويقول:

«هذا لك يا مستر تمبست»

واختطفت البرقية ففضضتها، فإذا فيها مكتوب:

«ارجع على التو. وقع حادث مؤلم ولا أستطيع أن أفعل شيئاً في غيبتك ـ مافيز كلير»

فأصبت بقشعريرة ـ وسقطت الورقة إلى الأرض. وتناولها لوسيو فقرأها ثم قال بعبوس:

«يجب أن تذهب وسأنتظرك في الفندق»

وهرولت إلى محطة القطار فامتطيته، ولما رأيت نفسي اقترب من ويلوسمير تنبهت فجأة إلى ما غاب عني، ودهشت كل الدهش عندما تساءلت عما جاء بمافيز إلى قصري

وترجلت من القطار فلم أجد أحداً بانتظاري. فأخذت عربة أجرة وحثثت الحوذي على الإسراع

ووصلت أخيراً إلى مدخل القصر فطالعني وجه مافيز الملائكي وقد انطبعت عليه مسحة شحوب وأسف

وقالت لما رأتني مقبلاً نحوها: «ها أنتذا تأتي أخيراً، فحمداً لله!»

ووجف قلبي، وارتعدت فريصتي ـ أهناك كارثة جديدة؟

ألم يكفِ ما أصابني ونزل بي؟!

19 ـ الموت

أمسكت بيديها وهتفت:

«ما الخطب؟»

ونظرت حولي فإذا بالقاعة تغص بأشخاص انطبعت علامات الرعب في أساريرهم. وكانوا يتهامسون بما ينمّ عن الحيرة والقلق. فأنبأني حسي أن ثمة فادحةٌ حلّت ببيتي؛ وما عتمت أن أهبت بمافيز أن تتكلم

فأجابت وهي تطرق:

نخشى أن يكون قد حاق بسيبيل مكروه؛ فباب مخدعها مرتج ولا يتسنى لنا اقتحامه. وقد طار صواب خادمته لما أعيتها الحيلة فسارعت إلى منزلي. والمنافذ هنا مرتفعة عن الأرض كثيراً ولا يوجد في الجيرة سلم يفي بالغاية، وليس هناك من يستطيع أن يصل إلى النافذة، وقد رجوت بعض الخدم أن يقتحموا الباب عنوةً ولكنهم أحجموا خائفين، وهكذا لم نجد مناصاً من الابراق اليك»

وما شعرت إلا وانا أثب وثبة الجنون فأصعد الدرج واقترب من باب المخدع الذي ترقد فيه سيبيل، وأصيح بصوت جهير:

«سيبيل.. سيبيل..»

وردد المكان صدى صوتي. وتبعتني مافيز ووقفت إلى جانبي. وجاء عدد من الخدم

وهتفت ثانيةً: «سيبيل..»

ولمّا لم نستمع إلى ما ينبئنا بوجود الحياة في الداخل أمرت الخدم أن يأتوني بمطرقة حديدية ضخمة جعلنا نطرق الباب لنحطمه. ومضت الدقائق والباب المتين صامد لا يتزحزح، والمزلاج الأصم قوي لا يلين، ولكننا تابعنا عملنا حتى رضخ الحديد فانفتح الباب، ودخلت.. دخلت لوحدي

وكانت الظلمة شديدة في الحجرة فأخذت أبحث عن مفتاح الكهرباء ولكنني لم أعثر عليه لكثرة ما انتابني من قلق، واصطدمتْ يدي بأشياء كثيرة أعرفها، ولكني تابعت البحث وأنا أحدق في الظلام. واقشعر بدني فجأة ـ ما هذا؟ من هذا الشبح؟ من هذا الذي يقف طويلاً شامخاً في ركن الحجرة؟ إنه يشع ويتلألأ، وهو ينظر إلي ساخراً ويشير بيده!

وصحت مرة أخرى: «سيبيل!»

ولكن صرختي كانت حشرجة هامسة لم يسمعها أحد ولم أسمعها أنا أيضاً!

وتخبطت في الغرفة كالمجنون. وبينما أنا أدور على نفسي إذ بيدي تلمس جسداً ناعماً،و إذ بي أشعر بهذه اليد تتخشب وتموت الحياة فيها.. وقفزت بحركة عجيبة إلى الوراء واتكأت على الحائط فوقعت يدي على مفتاح الكهرباء فأدرته،وفاض النور وغمر الضوء المكان،وشاهدت سيبيل، شاهدتها مخلوقاً شديد الإصفرار جالساً تلقاء المرآة وهو يحملق بعينين مفتوحتين جاحظتين

وصحت لاهثاً: «سيبيل!يا زوجتي..!»

وماتت الكلمات على شفتي.. هل هي زوجتي؟هذا التمثال المتجمد الذي لا يني ينظر إلى شخصه في المرآة؟

وحدقت في الوجه الذي لا يتحرك وتساءلت عما إذا كانت هذه المرأة الرائعة هي سيبيل ـ هذا الشيء الميت كان يتسم ابتسامة شيطانية ـ هذا الشيء ارتسمت على شفتيه الزرقاوتين بسمة جهنمية وبان في عينيه رعب قاتل رهيب

وضبثت بمخنقي يد خيالية أصرخ وعيناي تغيمان:

«مافيز!مافيز كلير!»

وفي أقل من غمضة عين وفتحتها كانت مافيز معي..وفهمت كل شيء،فتهالكت بجانب المرأة الميتة واستغرقت في بكاء مر

وجعلت تردد بصوت تقطعه الزفرات: «آه، ياللفتاة المسكينة! يا للفتاة الشقية التي لم يقدّر لها الله من يهديها ويرشدها!»

ونظرت إليها بحزن شديد. وبدا لي الأمر كله عجيباً مدهشاً ـ بدا لي حزنها على غيرها أمراً غير طبيعي. وكانت النيران مندلعة في دماغي وكانت أفكاري متضاربة متصارعة. وشخصت إلى زوجتي الميتة بعينيها المحملقتين وبسمتها الشيطانية،ثم حولت بصري إلى تلك المرأة الحية ذات البسمة الملائكية والطبيعة الإنسانية، وذات العبقرية المتحمسة في كل جزء منها، وأحسست بحافز قوي يدفعني دفعاً إلى مخاطبتها بما جاش في صدري وتمخض عنه فكري.

ولم ألبث إن قلت لها مهيباً:

«انهضي يا مافيز، لا تجثي هناك!اذهبي من هذه الغرفة ـ غيبي عن ناظري! أنت. لا تعلمين حقيقة هذه المرأة التي تزوجت ـ ظننتها ملاكاً فكانت شيطاناً رجيماً ـ أجل يا مافيز إنها شيطان! انظري إليها كيف تحدق بشخصها في المرآة ـ أتستطيعين أن تصفيها بالجمال الآن؟إنها تبتسم كما ترين وكما ابتسمت ليلة الأمس..آه» أنت تجهلين كل شيء مما حدث ليلة الأمس! اذهبي قلت لك، اذهبي!»

وضربت الأرض بقدمي واستتليت:

«هذا الهواء ملوث وسمومه فتاكة، فاحذري السم يا مافيز، إنه زعاف يرديك إن لم تسرعي هاربة. اذهبي عجلي، وانبئي أهل الدار بأن سيدتهم لفظت أنفاسها. اسدلي الستائر والسجف، اظهري كل علامات الأسى والوله والحداد! افعلي ذلك كما يفعله الناس المراؤون الدجالون في كل مكان وفي كل آن»

وقهقهت..قهقهت بصورة مريعة ومضيت أقول وصوتي ينخفض ويرتفع كانفعالي وهياجي: «أخبري الخدم أن سيدتهم ستشيع إلى مثواها بالأبهة التي تعشقها.. ستشيع كملكة.. فالمال وفير! أكثري من الطعام والشراب وليأكل الجمع ويشربوا ما شاء لهم هواهم ذلك.. أرجوك، ليفعلوا ما طاب لهم، وليقصفوا إن شاءوا، وليغنوا وليرقصوا إن أرادو ـ ليفعلو كل شيء وليتركوني ـ معها ـ فلدينا الكثير مما نود أن نقوله ونتبادله!»

ونهضت مافيز واقفة وقد انطبعت على أساريرها آيات معبرة عن الخوف والفزع. ورمقتني بنظرة تفيض حزناً ورعباً وقالت:

«أتبقى وحيداً معها؟ وهل تقدر على ذلك؟»

«يجب أن أبقى.. فأنا وهذه المرأة أحببنا كما يحب الاجلاف المتوحشون، وتزوجنا كما يتزوجون، بفارق واحد هو أن رئيس الدين بارك زفافنا.. ثم افترقنا عدوين متخاصمين ـ ومع أنها خامدة الأنفاس، إلا أني أود أن أقضي الليل معها ـ وسأتعلم الكثير من صمتها! إنها لي الليلة وستكون لكم غداً!»

واغرورقت عيناها بالدموع وأجابتني ملتاعة:

«شرودك يا سيدي يحجب عنك الحقائق.. لو تعلم، لو تعلم كيف ماتت؟»

فقلت: «لا أسهل عليّ من ذلك، هاك قارورة السم التي جرعت منها ما قضى عليها، وهاك أوراقاً كثيرة كتبتها بعد أن قرّ رأيها على الانتحار، أنت كاتبة يا مافيز كلير وتعلمين ما يجب لي ويجب عليك فغادريني واتركيني»

ورنت إليّ بنظرة عطف ورثاء واستدارت ببطء لتذهب وهي تقول منتحبة: «ليعنك الله، ليدخل السلوى إلى قلبك!»

وما كدت اسمع كلماتها الأخيرة حتى تغلغل إلى عقلي روح شيطان فقفزت إليها وقبضت على رسغها وصحت:

«لا تذكري الله! لا تذكريه في هذه الغرفة، وأمامي وأمامها! لم فعلت ذلك يا مافيز؟ لم استنزلت اللعنات على راسي؟ إن عون الله معناه العقاب، والتعزية باسم الله معناها الهول! إنني لا أؤمن بالله، إنني أؤمن بقوة خفية تطاردني وتلاحقني وتحاول ان تطحنني طحناً؛ وكانت سيبيل تجاريني

في فكري ورأيي، لأنها كانت تتساءل عن علة وجودها في أهابها الشرير وبروح من روح الشيطان!»

وارتعشت مافيز، وما أسرع ما اندفعت خارجةً وكأنها تفر من روح شريرة تريد بها الأذى

ودرت على نفسي دورتين اثنتين، ورفعت ذراعي إلى أعلى وحملقت بعيني، وقلت بصوت جهير:

«والان يا سيبيل! نحن لوحدنا لا ثالث معنا ـ وحيدان مع روحينا الآثمتين ـ أنت ميتة، وأنا حي! وخوفك مني قد زال، وجمالك انطفأ، ولم تعد بسمتك قادرة على إثارتي، فماذا لديك من الكلام؟ سمعت مرة أن الموتى يتكلمون أحياناً، ولي عليك حق ـ حق أوجدته خيانتك، خيانتك التي قوضت الحياة، وها هي خيانتك في أوراقك، في هذا الاعتراف الذي سطرته قبل أن تموتي»

وجمعت الأوراق المبعثرة ثم تهالكت على الأريكة وأخذت أنظر إليها وأفكر فيها لا يفكر به إلا إنسان أصابه من عُصف بعقله وأودي بتفكيره

وقلت بعد قليل: «والآن يا سيبيل،اعترفي بخطاياك،أنا هنا لأصغي وأستمع،وما لهذه المهابة التي تكسوك إلا أن ترغمني على الإنصات،فهات ما عندك من حديث الغدر»

وعصف الريح في الخارج..خارج المنزل

واهتزت النوافذ وارتعشت ذؤابات الشموع

وانتظرت.. وانتظرت.. وانتظرت..

حتى إذا خفتت الأصوات واستكانت العاصفة..

وحتى إذا سكن الكون ووقدت الطبيعة

وحتى إذا ألقيت نظرة أخرى على زوجتي الميتة..

وحتى إذا أيقنت أنها سمعت ما قلت..

شرعت في القراءة..

* * *

هذا ما قرأت.. كل كلمة وكل جملة..

هذا ما قرأت.. بلا مقدمة أو تمهيد..

قالت:

* * *

قررت أن أموت ليس عن عاطفة وجد أو شعور قديم، بل بمحض اختياري، ولأن موتي أمسى ضرورة ماسة

دماغي الكليل أضنته مشكلاته ـ وجسدي أتعبته حياته، ولا بد لي من الراحة

فكرة الموت ـ ومعناها الإنحلال والوبال ـ هي فكرة محببة لدي وإني لمسرورة من أني أستطيع بمشيئتي أن أخرس خفقة قلبي، أن أصمت إلى الأبد هذه الثورة المضطرمة في دمي ـ حتى ترتاح أعصابي المعذبة

صغيرة كما أنا، صغيرة مليحة لا أحب الوجود ـ الوجود الذي استحال في مثل ومضة برق إلى وجه حبيب وعينين براقتين، وقسيمات كقسيمات

إله، وبسمة لا تضاهيها بسمة ـ وجودي استحال إلى شخص اتجهت إليه جميع مشاعري وأماني قلبي

شخص أضحى دنياي وحياتي وكينونتي ـ ولكنه ولّى عني ـ ولم يعد لحياتي معنى

بلى، لم يعد لوجودي معنى من المعاني.. وكيف لي أن أحتمل سأم الساعات التي تمر ببطء؟ والأيام الطويلة، والأسابيع المديدة والأشهر والسنون.. كيف لي أن أحتملها؟ ويلاه!

كيف لي ذلك؟ وهل أستطيع أن أصبر على الحياة مع معتوه مأفون ثقيل الظل؟ أأعيش مع زوجي هذا؟

قال لي في كتابه الأخير أنه لن يراني ثانية..و لو كان قد قدح زندي، وسبر طبيعتي، وتغلغل في عاطفتي، وبذل جهده لإرشادي ـ ولو كان أظهر أي علامة من علامات المحبة السامية التي يحلم بها الإنسان أحياناً ولا يلقاها إلا لماماً، لشعرت بالشفقة والرثاء والإحترام، وما ترددت عن طلب المغفرة لأني رضيت به زوجاً..

ولكنه عاملني كما يعامل الرجل محظية مأجورة ـ أي أنه قدم لي الطعام والكساء والمال والجوهر مقابل ما حازه وظفر به ـ إلا أنه لم يمنحني تلك العاطفة الحنون ـ لم يظهر في أية لحظة ما يؤكد لي أن في أعماقه غريزة إنكار مستمدة من المعيد الإنساني، ولهذا فأنا لا أدين له بشيء

أنه ذهب، وحبيبي ذهب، وأنا حرة فيما أريده لهذه النأمة المسماة حياة ـ وهي لا تزيد عن كونها خيطاً واهياً

أنا امرأة شقية لا أصدقاء لي ولا أتراب

أنا امرأة الحظ امتلأ قلبها بالرذيلة

أنا أقف على جرف هاريستوري في أعماقه دنيا الموت والموتى. ولحدي مفتوح، وقد التفت إلى الوراء فرأيت السنين التي عشت مبسوطة أما ناظري بمراتبها ودرجاتها وفصولها

وأرى نفسي طفلة أرتع وامرح في هذا المكان بالذات ـ في ويلو سمير، وأرى كيف بدأت حياتي من هنا لتنتهي اليوم إلى هنا

طفلة مدللة مترفة لها كل شيء ولا يضن عليها بشيء.. حتى إذا بلغت العاشرة أصبحت أفهم أشياء كثيرة عن الحب والغرام والغزل

وكان الكهول يداعبونني ويجلسونني على ركبهم ـ كانت الخُمرة تفقدهم رشدهم فيطعمون بي أنا الطفلة! وكانوا يعضون على شفتي الصغيرتين بشفاههم الناضبة، وكنت اختنق كلما قبلني واحد منهم!

ياللوحوش! أضلوا طفلة بريئة ساذجة قبل أن تضلها السنون فتذلها كما أذلتني وتمرغ وجهها بالمياه الآسنة كما مرغت وجهي

وكانت حاضنتي تنهل هي الأخرى من ينبوع كل لذة، وكانت خادمة أمي تشترك معها في عيشها

عشت في دنيا الأحلام؛ ثم استيقظت، فرأيت الطفولة لأستحيل إلى امرأة ناضجة ـ ولكني عندما أصبحت امرأة ناضجة كنت أناهز السادسة عشرة فقط، وقد صحبني أبي وأمي إلى المدينة لاختبر عادات وطباع المجتمع قبل أن أصبح نهائياً ـ صالحة للاندماج فيه والانصهار في بوتقته... وتعلمت، تعلمت بل أتقنت هذه العادات والطباع

في البدء لزمت فتيات في مثل سني إلا أنهن يعرفن من أمور الدنيا أكثر مما عرفت يومذاك، أي أن نضوجهن بذّ نضوجي. ثم أعلمني أبي فجأةً أننا خسرنا ويلو سمير إلى الأبد

ولم أكن أدري في تلك الأيام أن في الدنيا فارقاً بين الغني والفقير، أي أني كنت أعيش في بيئة لم تعرف إلا البذخ والترف، وكانت المتربة أبعد ما يكون عنها. فلما أفضى ابي إلي بنبأ الكارثة أسودّت الدنيا في عيني ـ فويلوسمير عزيزة عليّ، لأنها كانت موئلي منذ نعومة أظفاري

وذرفت الدموع، واجتاحتني موجة هائلة من الحزن المشوب بالخنق، ولم ألبث حتى انقبلت إلى فتاة قاسية عنيدة.. ولم أكن أميل إلى أمي، لأني كنت أراها في فترات متباعدة، فهي غائبة دائماً، تزور صديقاتها، وتقضي أياماً في منازلهن. ولهذا فأنا لم أصب بالذهول حينما حل الكساح القتال بجسدها، فشلّها وألزمها الدار إلى آخر العمر

وطفقت أخرج إلى النوادي والمجتمعات، واختلط بالسيدات والفتيات، وأرى ما يشده البصر والبصيرة.. وأزمعت بعد قليل أن أقنع وجهي بقناع الجمود حتى لا يعرف أي إنسان حقيقة ما يخالجني من أحاسيس، فلما فعلت وثقت في النساء كافة، وأمن جانبي، وجعلن يدعونني إلى منازلهن لأساعدهن في الحفاوة بعشاقهن، والاعتناء بهؤلاء العشاق الذين كانوا ينتهزون فرصة غياب الأزواج فيأتون ليقضوا وقتاً سعيداً ممتعاً!

وإني لأتذكر امرأة اشتهرت بما كانت تملكه من حلي ثمينة لا تقدر بمال، وبصداقتها الوثيقة بالملكة.. إني لأتذكرها وهي تقبل عشيقها على مرأى مني، فلما أبدى العاشق بعض الملاحظات عن وجودي، أجابته العشيقة هامسة:

«إنها سيبيل إيلتون فقط، وهي غبية لا تفقه شيئاً!»

وبعد ذهابه قالت لي ضاحكةً: «إنه مثل أخي، أقبله دائماً كما أقبّل أخي!»

عجيب أمري! لم أفكر بهذه الأمور التافهة وأنا أتأهب للموت لأخلص من أباطيل الحياة؟..

ما هذا؟ تغريد عندليب في الخارج؟ ما أجمله من عصفور! وهو سعيد، ويجب أن يكون هانئاً لأنه ليس بإنسان...الدموع تملأ عيني، وأنا أصغي إلى هذا اللحن الحنون، وأفكر بأن صاحبه سيعاود الصداح غداً عندما أكون قد زلت وتلاشيت!

* * *

عبادتي الأخيرة أوحت بها العاكفة. فأنا لست نادمة، بل أرحب بالموت الوشيك. ولو ندمت لما أقدمت. وينبغي عليّ أن أكمل ما بدأت، فهذا تحليل لنفسي، عسى أن أعمل به إلى الحد الذي تظهر لي فيه الحقائق، فأعلم السبب الذي أفضى بي إلى هذه النهاية،وإن كان هناك ما يرفع عن كاهلي بعض الثقل الذي أنوء تحته ـ فهل كانت ثقافتي خاطئة؟أم أني ولدت والشر في ساعة واحدة؟

وناداني أبي إليه وأنا على عتبة الثامنة عشرة، وقال لي إن الديون أرهقته، حتى غدا يستعين بالدين فيقترض المال بالربى لكي لا يشتهر أمره فيفضح ـ فالمرابون اليهود لا يرحمون، وهم متى نكل المدين بالوعد أقاموا الدنيا وأقعدوها..

ثم أخبرني في صراحة أن المرابين لم يقرضوه إلا بعد أن اطمأنوا إلى

أني ـ انا ابنته الجميلة ـ سأقترن برجل كثير المال يعمد دون تردد إلى إقالته من عثرته!

ومضى أبي يتكلم فأعرب عن أمله بأن أكون عاقلة في تصرفاتي، فأبادر متى أحبني أحدهم ومال إلى اتخاذي زوجة، إلى إحاطته علماً بذلك ليتأكد هو من أن الرجل موسر في وسعه بذل المال اللازم... وهكذا أدركت أني فتاة للبيع!

وسألته بعد أن أنهى حديثه: «أتريدني أن لا أقيم للحب أي اعتبار؟

فضحك ملياً وأجاب بأنه من الأسهل عليّ أن أحب غنياً من أن أحب فقيراً. ثم أنبأني بعزمه على استضافة امرأة أميركية ذات ثروة تدعى ديانا شسني، وأن هذه المرأة ستدفع له ألفي جنيه في العام وطاشت سهامي، وتولاني غضب شديد، واصابني الهياج فأفلت زمامي من يدي وهاجمت أبي، وسلقته بلسان حاد

وقد شدهه غضبي، فارتاع أيما ارتياع. ولكن ذلك لم يبدل الحال، بل جرى كل شيء كما رسمه هو ولما أراده..

ولكا جاءت الأميركية، انطويت على نفسي وتجنبتها، وتجاهلتها. ورأت هي هذا الازورار، إلا أنها توسلت بجميع الأساليب للتقرب مني. فلما أعيتها الحيلة بادلتني نفوري على طريقتها الخاصة

واحتقرتها منذ البدء، فهي امرأة تافهة حقيرة.. ولكنها كما أيقنت لن تلبث حتى تصبح ربة الدار وحاملة اللقب الزائف! فأبي يؤمن بأنه شاب يافع، وهو ينتظر موت أمي بصبر نافذ!

قلت.. انطويت على نفسي.. فلما فعلت استعنت بالكتب على تزجية وقتي. وما هو إلا قليل حتى أضحت هذه الكتب مصدر متعتي ولذتي

وقرأت ذات يوم كتاباً لامرأة لم أفهم معانيه لأول وهلة.. فلما أعدت الكرة، طوحت به في حنق واشمئزاز ـ فالكتاب محشو بالبذاءة، وهو درس الشيطان لكل شاب وشابة، درس لشيطان في أصول الانحراف عن الجادة، والأخذ بالموبقة

طوّحت بالكتاب وأنا ناقمةٌ على تلك الصحف الحقيرة التي أطّرته وقرظته.. على أن هذه الدعوة إلى قراءته، التي طالعت الصحف بها القراء، أغرتني على تلاوته للمرة الثالثة، فلما استجبت لداعي الفضول بدأت أشعر باللذة والحبور، وما عتمت حتى ابتعت عدداً من الكتب الشبيهة التي سودتها يد الكاتبة الملوثة وارتأضت نفسي شيئاً فشيئاً على الارتياح إلى هذا اللون من الكتب، وارتاشت هذه النفس لتطير في جو مفعم بأحلام الشهوة!

وأود أن اشرح ما لهذه الكتب الضارة الشريرة من تأثير سيء على فكري وروحي ـ هذه الكتب التي فاقت نتيجتها المميتة أقوى من السموم المعروفة وافتكها

كنت اقرأ لساعة ثم أرخي الكتاب وأغمض عيني فأحلق في جو فسيح من الخيال مسرحه الآراء الآثمة التي استعرضتها في تلك الصفحات

ولكني كنت في مقام منازعة بين شتى المشاعر.. وناء قلبي حتى ثقل بتلك الآراء الوحشية الضارية التي تصور طبيعة الإنسان بصورة الرزيلة المستشرية، والفاحشة المتناهية.. فهل الإنسان أحط في أحاسيسه ونزعه من الوحوش والضواري؟

وجرتني الآراء المسفّة إلى درك لا يدانيه درك في انحطاطه، ونهلت من إلحاد الكاتبة، وكفر الشاعر، وزندقة المؤلف... واستهنت بالله، وجعلت السموم القاتلة تحدث مفعولها المخيف في قراراتي، وتحفر في دماغي كلمات نارية من الكلمات الشيطانية التي أطلقها الزبانية سخرية من الخالق وتهكماً على السيد المسيح

أنني مشرفة على نهايتي، ولا أبالي بما يحدث لي، بيد أني أتساءل ـ من أجل أولئك الذي يخشعون أمام الله، عن عذر أولي الأمر في إطلاق الحرية لكل عابث تسول له نفسه الأمّارة ان يطعن في الدين ويقدح في الديان، ويثلب كل مذهب كريم أسننه الله في كتبه

يا إلهي!كنت يافعة طرية العود، ولكني أخذت شيئاً فشيئاً أقبل بشغف على قراءة الكتب الآثمة ليختلط دمي شيئاً فشيئاً بكل ما هو شرير وآثم وداعر، ومهما كانت عليه روحي في أول أمري من السمو، فقد أخذت تتداعى وتنهار وتضعف وتموت.. وتفترق عن دماغي تلك الفضيلة التي تخلق مع الإنسان يوم مولده ـ فهؤلاء الشعراء والكتاب الذين قرأت لهم دربوني على الاندفاع بكليتي في أخدود وعث تتخلله العقبات، فكانت النتيجة تسممي وانهياري

والرقابة الفارقة في سباتها هي المسؤولة عن هذه الجريمة البشعة، الرقابة التي أستنها القانون أرخت قبضتها عن الكتّاب المجرمين»

فغذوني غذوا سواي من آلاف القراء بآرائهم الفاتكة، حتى أصبحت أنظر إلى الرجال نظرتي إلى الوحوش، ولا أؤمن بشرف أو فضيلة أو صدق ـ وأصبحت قليلة الإكتراث بكل شيء خلا شيئاً واحداً،وهو الإحتفاظ بطريقتي التي نسجت خيوطها بنفسي ـ طريقة الحب والهيام!

فقد أرغم وأقصر على الزواج برجل ينفر منه قلبي، ولكن هذا لن يغير في قليل أو كثير من عزيمتي على استباحة المحرم وإغراق نفسي في بحر لجيّ من الحب ـ وليس هذا الحب الذي وضعته نصب عيني، ما عرفه الأطهار من العلاقة الفاضلة التي تشج بين قلبين، بل الحب الذي تشوفت إليه الأبصار هو الحب الداعر الفاجر المنطلق من كل قيد الذي بشر به كتّابي الأثيرون!

مثل هذه الأفكار التي ساورتني في ذلك الحين كانت كفيلة

بسلب الكثيرين من الأخيار من اتزانهم لو علموا بها، ولكني حرصت على كتم ما يجيش في صدري

واشتهاني الرجال ولكنهم خافوني، لأني لم أشجع أياً منهم علماً مني بأن الحبيب المتشرد متى جاء أنبأني حسي على الفور بمجيئته!

وكانت الأكثرية من هؤلاء المتوددين يشبهون إلى حد كبير القردة بحركاتها وتصنعها ـ فهم متأنقون خليقون نظيفون، إلا أنهم كانوا دون تمييز يبتسمون نفس الإبتسامة، وينظرون نفس النظرة، فيا للأقزام!

ولما ناهزت الثامنة عشرة أخذت إلى البلاط لأقابل الملكة، والشخص الذي يحظى بهذا الشرف الذي تغوص فيه الرقة والخلق الحسن ـ فيا لهم من منافقين! وقد ضحكت يومذاك ضحكاً متواصلاً، فالمرأة التي صحبتني إلى البلاط كانت أماً لولدين نغلين غير شرعيين! ولم تكن هي الوحيدة بما عرفت به من أخلاق منحطة قد أمت قصر الملكة في ذلك اليوم، بل كان هناك أيضاً عدد لا يستهان به من النساء اللاتي طبعت حياتهن بطابع الموبقة

وقد وقفن في إجلال أمام العرش وكأنهن عينات مثلى من عينات الفضيلة والكمال!

الإنسان المرائي! عرفت فتيات عريقات هفون مرة أو مرتين فإذا بأولي الأمر يحولون بينهن وبين البلاط وسيدة العرش..

وهن أي المحرومات خصهن اللّٰه بجمال فنان، ولا شك أن جمالهن

جرّ عليهن نقمة تلك النسوة الآثمات اللواتي استأثرن بهذا الشرف

وأماطت في الأيام أشياء جديدة عجيبة، فالمال كما اكتشفت هو لعبة حواء، المال كما أيقنت هو قبلتها ومنيتها من البدء إلى النهاية.. ولا أستثني الرجال من هذه العبودية، ولا أستثني نفسي أيضاً، ولا أستثني أبي وكانت لي صديقة لم تلوثها هذه الأدران لانها قضت نحبها قبل الأوان. وقد أهدتني قبل وفاتها كتاباً ألفته امرأة تدعى مافيز كلير، وقالت لي:

«إقرأيه يا سيبيل» ففيه ما لا يوجد في سواه من الكتب، فيه أخلاق، وفيه أدب، وفيه ترفع، وفيه إنسانية،

وضحكت ساعتذاك ولكني أخذت الكتاب فقرأته. ولم أجد في الكتاب ضالتي من المتعة، وإن وجدت فيه أشياء أخرى غريبة عني وعن فهمي وإدراكي وحدثتني نفسي بالبحث عن الكاتبة ففعلت.. وعلمت من هي مافيز فأحببتها ومقتها، ولكن هذا الشعور المتعارض لم يؤثر في يقيني من أنها امرأة طاهرة فاضلة لا تلحقها الأدران ولا يلوثها الدنس

إنها قريبة الآن وفي مَكِنَتي أن أفتح نافذتي فأهتف باسمها، في مَكِنَتي أن ادعوها إلي في هذه الساعة الحرجة الفاصلة.. ولم لا أفعل؟ لم لا أطلب إليها المجيء فقد تبدد بكلماتها هذا الشقاء الذي ينهش قلبي ويفري كبدي

* * *

وفتحت النافذة ودعوتها وقلت: «مافيز!»

نطقاً باسمها ثلاث مرات بنعومة ورقة، فلم يجبني أحد، لم يجبني إلا عصفور يتهادى على فنن، وكان جوابة حاسماً عندما صدح بالاسم..قال بلغته:

مافيز! إنها لن تأتي، واليوم لا يريد اللّه أن يجعلها رسولاً إليك»

أواه! إنها في منأى عني بفكرها وإحساسها. إنها لا تدري ما يمزق صدري، فيا ويحي!

* * *

لأرجع إلى الوقت الذي غزا أحب فيه قلبي ـ الحب المشبوب الخالد! لكم غلى في فؤادي يومذاك من النيران المتلظية! ودمي، دمي أصبح شعلة متقدة! وعقلي، عقلي الملتهب جعل يحلم في الصحوة والمنام بتلك اللذة التي تقت إليها!

رأيت لوسيو، وخيل إلي يوم رأيته أن عيني ملاك نظرتا إلي من عليائه وأفسحتا في مهجتي مجد الأزل!

وجاء معه صديقه فكنت لا أكاد ابصر به ـ جاء صديقه المليونير المأفون جيوفري تمبست،فابتاعني وأضحى زوجي أمام القانون!

* * *

رفعت نظري عن الأوراق ورمقت الميتة الساكنة المحدقة في المرآة، فتراءى لي أنها تتقمص شيئاً فشيئاً وجه أمها البشع

وهتفت بملء صوتي: «كيف أحببتها؟ كيف أحببت هذه الجيفة؟ حقاً

كنت مجنوناً، كنت مجنوناً لأني قنعت بالاستيلاء على جسد امرأة! ولا شك أن الشيطان نفسه يهرب من حضرتها لو أُنبئ بأنها ستكون شريكته بعد الموت!»

وخفقت ذؤابة الشمعة، وابتسم الوجه، وانفرجت الشفتان، وضيق الموت خناقه عليَّ، فأغمضت عيني ثم فتحتهما وعاودت القراءة

***

أطلقت العنان لجيوفري بعد أن رأيت لوسيو ريمانيز، وكان أبي قد حدثني عنه قبل أن أراه، وكنت لخزيي أعلم أن هذا الأب استدان منه المال الكثير

وأفهمني أبي قبل لقياه بيوم واحد أن الفرصة سنحت لي لاختيار الزوج اللائق، وأن علي الآن أن أسعى للظفر إما بلوسيو أو بصديقه جيوفري ـ فكلاهما غني لا حد لماله الكثير!

ولم ألبث حتى علمت أن لوسيو لن يتزوج قط واستنتجت من هذا أنه يؤثر أن يكون حبيب عدد من النساء لا زوج امرأة واحدة. ولن يقلل هذا الإكتشاف والاستنتاج من حبي له، بل زادني تصميماً على تصميم، حتى وطنت النفس أخيراً أن أكون إحدى عشيقاته إن لم أنفرد لوحدي بفؤاده

وزففت إلى جيوفري وأنا أزمع أن أستعيد حريتي في التصرف بعد أن أطمئن إلى زوج غني غبي. فالرجال يتخذون محظيتهم من المتزوجات، ولن يشذ لوسيو كما أثق عن هذه القاعدة. بيد أن كهانتي أخطأت،وظني اصطدم بالحقيقة العجيبة، مما أفضى بي إلى هذه النهاية المروعة

وقد عجزت عن إدراك الباعث لحبيبي على احتقاري كل هذا الإحتقار. فالعادة السارية المفعول في عصرنا هذا هي أن تعشق المرأة على زوجها، فماذا يدعوه إذن إلى النفور مني، وتلك العادة

تفشت في الأوساط كافة؟فهل معنى هذا أنه يشمئز من النساء كلهن؟ وما دام حبنا لا يعرف به إلانا، فهل يضير هذا في شيء؟ألست جميلة؟ وما الضرر من ذلك؟ أيوجد إله يراقب ويعاقب؟ ألم تنبئني كتبي أن لا وجود له؟كتبي التي قوضت حياتي.. كتبي التي أباحت الحكومة البريطانية قراءتها؟ ويلاه! ما المصير؟ ما المصير؟!

❋ ❋ ❋

زادتني الآن حركة غير عادية.. خيل إلي أني سمعت صوت لوسيو يناديني، وقد جست خلال الحجرات باحثة عنه، ثم تركت باب هذه الحجرة مفتوحاً. ولكني لم أجد أحداً، وأنا وحيدة..

لوسيو.. من هو لوسيو؟ أمير.. كما يقول الناس، وأني أصدق، مع أن أمراء اليوم تافهون في المظهر والباطن، وهو أعظم بكثير من أن يكون مجرد أمير!

ومن أين جاء؟من أي مملكة؟ ولأي أمة ينتمي؟ لا أعلم، وهو لم يقل لأحد شيئاً..

إنني أرنو إلى المرآة.. لكم أبدو جميلة! وعيناي.. إنهما نجلاوان فاحمتان! وهذه الحمرة الطبيعية التي تلون شفتي وخدي بلون الخمر! وجيدي الأملد البض.. ما أشد الإغراء الذي تنطوي عليه ثناياه! كل هذا حزنه لأفتن به الرجال، ولكن حبيبي، حبيبي الذي شغفني حبه لا يرى فيه شيئاً من الإغراء،ويدرؤني عنه في قسوة واستهجان...

لقد جثوت بين يديه، وبكيت وتضرعت ـ وعبدته، وقدمت

له نفسي وروحي، ولكن بلا جدوى! فأي شيء بقي لي إلا الموت قال لي: «الصبر...» فماذا أراد؟ ومتى نلتقي؟ وكيف؟ وأنا أدنو بسرعة من الموت؟

* * *

فتحت صندوق الجواهر وأخذت منه الحق المميت الذي أودع فيه أحد الأطباء سماً نافعاً قتالاً، ونظرت إليه متأملة فإذا به من غير لون ولا تزيد كميته عن محتوى ملعقة صغيرة، ولكنها ملعقة فيها من القوة ما يحيل نور عيني إلى ظلام، ويغلق إلى الأبد تلك المشاهد المدهشة التي تخص بها الخليقة. ثم تناولت الهدية التي قدمها لي لوسيو،وهي سوار مرصع، فوضعتها في رسغي ـ وكانت في شكل أفعى ملتوية

إنني أرتعش، ليس من البرد أو الخوف، بل من التوتر والإنفعال

هذه الشمس الساطعة..هذا الدفء اللذيذ ـ لكم شاهدت الشمس أشخاصاً يموتون كما أموت أنا، دون أن يشوب قرصها أية مسحة من حزن ـ إنها عظيمة لا تتغير.. وإنها أبعد من أن تنال..

جميلة رائعة، ولكن قلبها يخلو من نأمة الشفقة!

* * *

إنني مستعدة ولم يعد هناك ما يقال،، لا عذر لي فأنا كما صنعت ـ امرأة متكبرة ثائرة، لا أجد في الحب الطليق معرّة ولا في تبادل الشكوى كفراً... أنا متوحشة، ولا شك في أن أولئك الكتّاب والشعراء قد أسهموا إلى حد كبير في تحويل حياتي عن مجراها

الأول.. تزوجت كما تتزوج أكثر النساء ـ طمعاً بالمال وأحببت، كما تحب معظم النساء ـ بحافز من الإغراء الجسدي.. وأموت كما تموت من على شاكلتي من بنات حواء، حتف أنوفهن أو بمحض رغبتهن..

الحق بيدي، وها أنذا أرفعه إلى فمي، ولكني أعود فأرخي يدي، فثمة ركز خفي صادر من وراء ظهري.. ولويت عنقي فرأيت شبح أمي في المرآة! وكان وجهها مخيفاً متقلصاً ينظر إلي وكأنه يبغي أن يلتهمني! فقفزت واقفة واندفعت نحوها... ولكنها اختفت!

إنني أرتجف وأرتعد.. وأشعر بقشعريرة مثلوجة تسري في ظهري، ودون أن أحس صمغت منديلي بالعطر ومسحت به جبهتي لأستعيد قوتي.. ما هذا؟

لأستعيد قوتي! تباً لبلهي، أأخاف من الدوار وأنا مقبلة بسرعة على البوار؟

إنني لا أؤمن بالأشباح، ومع ذلك أقسم على أني شاهدت أمي..

هذا العبير القوي الذي فاح من منديلي ذكرني بباريس، كما ذكرني بالشاب المليح الذي قدمه لي.. وتضرج وجهي من الإنفعال، وسرتني الذكرى، ولمعت عيناي ورنوت إلى محياي في المرآة، فراعني جمالي وهالني ما أنا وشيكة على اقترافه

* * *

ودارت في خلدي فكرة الصلاة ـ قد تكون الفكرة من قبيل المرآة، ولكن، ماذا يضيرني لو فعلت؟ ومع ذلك فقد نفر

قلبي من الفكرة نفوراً شديداً، فكيف أجثو لأطلب الرحمة والمغفرة، ولأقول:

«رباه أنا أنتحر فاصفح عني لأني انتحر من أجل الحب!» ثم لمن أصلي وأنا لا أؤمن برب ولا بقوة خفية قادرة على كل شيء؟

لن أصلي، أنا عنيفة لا أقر بالخطأ، ولهذا وطنت النفس على المضي إلى المجهول دون أن أبدل من طباعي

تباً لمن أعمى بصري وأضل بصيرتي! لو كنت مؤمنة لهان الخطب! أواه! إني صغيرة ولكني شريرة!

* * *

شخصت إلى الحق الذي خلا من سمه كالمشدوهة أو كالمجنونة..

لقد جرعت محتواه بسرعة وثبات كما كنت أجرع الدواء. كان السم هو المذاق محرقاً. تألمت ولكن ألمي زال الآن. وسأجلس أمام المرآة لا تتبع حركة الموت المتغلغل إلى جسدي!

أمي معي هنا ـ هنا في هذه الغرفة! وهي تنتقل في كل مكان بقلق واضطراب وتأتي من الحركات ما ينمّ عن هياجها، ولكنها لا تستطيع أن تتكلم. لقد هرولت وراءها لأمسك بها فلم أستطع إلى ذلك سبيلا. وصحت: «أمي، أمي!». ولكن فمها بقيت شفتاه منطبقتين.و اجتاحتني موجة من الفزع فانهرت على الأرض جاثية وتوسلت إليها أن تذهب. غير أنها ابتسمت ابتسامة مرعبة! وفقدت صوابي.. واستعدته بعد لحظات، استعدته وأنا أتلوى على الأرض من الألم الشديد. وجعلني الألم القاتل أقفز على قدمي، وجعلني أعض على شفتي حتى أنبثق منهما الدم

ولما خفّت وطأة العذاب شاهدت أمي تقف هادئة بجانبي وهي تنظر إليّ... في تعجب وأسى وتحاملت على نفسي فجلست حيث أجلس الآن، وأدركت أن أمي لم تكن موجودة، أدركت أني محمومة أهذي

* * *

هذا مريع، أنا أكتب وأمعائي تتمزق وأنيني يتصاعد من فمي خافتاً نائحاً. إنه سم زعاف حقاً، فالألم لا يضاهيه ألم..

إنني أهتز كريشة في مهب الريح وقد تبدلت سحنتي فاحتقنت وانكمشت وذهبت قسامتها

جحظت عيناي واحمرتا. واندلع في دماغي أوار مستمر ـ إني أضطرم وجوفي يجف. لقد شربت جرعات كبيرة من الماء ولكن ظمأي يزداد مع مرور الثواني

الشمس محرقة وكأنها شمس الجحيم. رأسي يسبح في الفضاء.

إنني أختنق أين الموت؟ أما لهذا العذاب من آخر؟ ألا تذهب أمي؟

أكافح بشدة حتى لا أسقط في الهوة الفاغرة فاها، إلا أن أمي

سدى تشل حركته. بصري يغشاه الضباب. والعذاب المريع يزول بسرعة إنني أنتشي وأشعر بالمتعة التي يشعر بها الثمل

ما بال الخوف ينتابني على حين غرة؟ ماذا لو كان الموت غير ما وصفه العلماء؟ ماذا لو كان طوراً جديداً من أطوار الحياة؟

الهلع! إن قلبي يجب وجيب الهلع..زال ألمي، ولكن

شيئاً أسوأ من الألم ساورني.. شيئاً من شعور غامض لا أدري +++..

إنني أموت.. وهذه الأصوات الهادرة من أين أتت؟ إن أمي تزداد اقتراباً مني.. إنها تمد إلي يديها..

* * *

يا إلهي!... دعني أكتب ـ أكتب ـ ما دمت قادرة على الكتابة! دعني أمسك إلى أطول زمن ممكن بالخيط الواهي الذي يصلني بالدنيا ـ أعطني الوقت ـ الوقت اللازم قبل أن أنساب خارجة من دنيا الحياة إلى ظلمات تتراكم ثقيلة كثيفة

دعني أكتب للآخرين عن الحقيقة المريرة كما أراها وألمسها ـ ليس هناك شيء يدعى الموت! كلا! كلا! بلى ليس هناك موت ـ ولا أستطيع أن أموت ـ إنني أنصلت من جسدي، أنصلت ببطء، ولكني لا أموت ـ إنني أحمل حملاً إلى حياة جديدة غامضة شاسعة!

وأرى دنيا لا عهد لي بها، تملؤها الأشباح السوداء التي لها شكل وليس لها شكل ـ وهذه الأشباح تسبح نحوي وتشير إليّ! إنني واعية ـ إنني أسمع، وأظن أنني أرى! الموت هو حلم إنساني، وليس له وجود حقيقي ـ لا شيء في الكون إلا الحياة!

أيها الشقاء المكفهر ـ لا أستطيع أن أموت!

علام صدري يضيق بنفسي؟ ولم يهتز القلم في يدي؟ ولكنه لا يزال يمطر كلماته وكأن قوة خفية تحركه

هذه الحشرجة ليست عذاب الإحتضار بل علامة الميلاد!..

تجرني وراءها ولا أستطيع أن أتخلص من قبضتها، إنها تحدثني وتقول،

وتضحك وكأنها تبكي: «تعالي يا سيبيل! تعالي يا روح الطفلة التي حملت في أحشائي، واجتمعي بحبيبك!»

ومع ذلك لبثت أقاوم وأنا أرتعد وأحدق في الظلام الذي غشي عيني

الظلام يهبط من كل مكان فيلفني بحلكته..

الظلام يجتاحني كالعاصفة، أو كالسهام المنقضة، أو كالمطر الغزير

* * *

ذرني أكتب يا إلهي.. ذرني أكتب بهذه اليد الميتة... لحظة واحدة، أعطني إياها يا ربي حتى أسطر الحقيقة المخيفة عن الموت

إنني أحيا، أحيا حياة جديدة الآن لأترمض على نيران اليأس والفزع.. وفوق كل هذا أعلم أن الله الذي شككت بوجوده، الله الذي تعلمت كيف أتنكر له، الله الذي كفرت باسمه، موجود وسيبقى أزلاً خالداً!

لقد أضاءت الحقيقة لي ما غيبه عني المضللون.... آلاف من الأموات أخذت الآن تهيب بي بإسم الحيّ القيوم!...

إنني تأخرت! تأخرت! وها أنذا أهبط وأهبط، وتزداد الظلمات التي تحيق بي كثافة وحلكة... والنار، النار ذات الألسنة الحمراء أخذت تندلع في كل مكان بل أخذت تندلع في جسدي وعقلي

* * *

أيتها اليد، استمري في الكتابة! يا روحي المضناة أكملي رسالتك حتى تكون عبرة لمن يعتبر... إنني عرفت أخيراً من أحبه قلبي!

من اخترت، من عبدت!... الرحمة، الرحمة يا إلهي!.... إنني أعلم الآن من يطالبني بأن أعبده، من يجرني إلى تلك الدركات والمهاوي.... إلى تلك الدنيا المتلظية النيران!....إن اسمه...

* * *

هذا ما كتبته سيبيل، ولم تستطع أن تنهيه كما رأيت!

فقد رأيت لطخة حبر سوداء تغطي مكاناً في أسفل الورقة الأخيرة، وكأن قوة غير منظورة نزعت القلم من يد الميتة نزعاً عنيفاً

ونهضت وقلبي يرزح تحت ثقل الهموم، وفرائصي ترتد من شدة ما انتابني من الألم، ونظرت إلى زوجتي الميتة، فخفت ونكصت إلى الوراء وكأن يداً خفية أخذت تلطمني على وجهي

ولما استدرت لأغادر الغرفة قيد نظري رأس الأفعى الملتوية على رسغ سيبيل، فانتابني الدوار وخيل إلي الوهم أن الرأس أخذت تتحرك

وخرجت أخيراً دون أن أودعها الوداع الأخير، خرجت وفي قلبي قوتان متعاكستان تتصارعان وتقتتلان

ولكني خرجت وأنا أناجي نفسي فأقول:

«إنني حي وعلي أن أرعى حياتي... وهي ميتة ولست أبالي»

20 ـ الرحلة

أمرّ مرّ الكرام على الهزة التي أحدثتها وفاة زوجي سيبيل.

لم تكن هناك هزة بمعناها الصحيح، بل بمجرد هزة مفتعلة ثارت مما تكلفه الناس تكلفاً من الحزن على الغصن الرطيب الذي قصفه القدر قبل ميعاده!

أما إذا توخينا الحقيقة فأنا لم أجد إنساناً واحداً صادق الحزن، بل وجدت رجالاً يهزون أكتافهم كلما ورد ذكرها في الحديث ويشعلون لفافاتهم ويبادرون إلى تغيير الموضوع لأنه موضوع مكدر يحبون أن يتجنبوه

أما النساء فقد سرّهن زوال سيبيل واختفاؤها من الميدان،

شأنهم في ذلك شأن جميع بنات حواء حتى أفسحت لهن إحداهن من الجميلات بإختفائها،المجال للتقدم والظهور!

فالقاعدة التي لا تتبدل هي أن الناس في كل زمان ومكان لا يتخلون عن طموحهم في زوال منافس لهم، لأن زواله يتيح مكاناً مرموقاً لغيره!

ومتى كنت محبوباً، أو متى كنت ذا جمال غض باهر، أو متى كنت تتمتع بذكاء نادر، فلا جرم أن نصف المجتمع يتمنون لك الموت السريع، بينما النصف الآخر يبذل جهده ليحيل من حياتك جحيماً متلظي النيران!

أما الذي يحس بالفراغ متى زلت من عالم الوجود، فهو الشخص

المتعلق بك المخلص إليك الذي لا يداهنك ويتملقك ـ أي الشخص القانع بصحبتك المكتفي بودك،الذي لا يبحث عن منفعة يجنيها من وراء هذه الواشجة التي تربط بينكما ـ وهذا شخص نادر الوجود قلما نلقاه وقلما نصدقه

شكراً لسخائي ـ فكل ما يمت بصلة إلى انتحار سيبيل قد سوي بفضل مالي بطريقة مرضية. فلكونها كريمة نبيل عريق وزوجة مليونير،شهد طبيبان شهيران أن موتها سببه غلطة مؤسفة في تناول الدواء. وهذه الشهادة استغلتها الصحف التي نالها من مالي جانب كبير، فأسرعت في مديح الرحلة وسرد فضائلها وحسناتها. كما أنها رأت في عقار النوم مادة تنبهها من سباتها، فشرعت أقلامها وخاضت في بحوث لا نهاية لها من استنكار هذا الدواء وتحذير الناس من مساوئه ومضارّه.

أما الجنازة الرسمية فقد كانت مبعث سعادة لكثير من الأشخاص الذين رتبوا أمورها ـ فبائعوا الورد مثلاً نالهم من وراء ذلك مال طائل حتى أن ما هيل فوق جدثها من الزهر كان أشبه بتل كبير!

أما اللورد إيلتون والدها فقد بدا في حالة من الحزن والأسى جعلت الناس كلهم يرثون له، ويشفقون عليه. ولكنه كما أثق لم يحزن على ابنته لانها كانت العقبة الأخيرة التي تعيق طريق زواجه بديانا شمسني

ولم تظهر ديانا من الحزن أكثر مما يظهره الأميركي.. بينما تلقت شارلوت فيتزروي نبأ المصيبة بصبر إنسان مؤمن يفوض أمره إلى الله ويجهر في كل حين أن ما يجري لنا مكتوب لا يتبدل وأن اللّه له في عباده شأنه الخاص!

وكنت أنا بصفتي زوج المتوفاة، الشخص الذي تركزت عليه الأنظار، وقد تأنقت يومذاك وكسوت محياي بنظرة الحزن والتفكير العميق

ولم يأت لوسيو بل وجه إليّ كتاباً أعرب لي فيه عما انتابه من اليأس والقنوط

وهكذا، كانت الجنازة حديث المجتمع كله بل حديث المدينة بأسرها ـ فسارت الجياد المجللة بالسواد نخبنا نحو الكنيسة، واستقبلنا في محراب الصلاة رجل الدين ومساعدوه،كما خف بالموكب عدد كبير من رجال الصحافة ـ وقد بادروا في اليوم التالي إلى وصف ما حدث بطريقة مغايرة لحقيقة ما حدث!

ولما انتهت المراسيم والطقوس فقلنا راجعين إلى ويلوسمير لتناول طعام الغداء. ولن يغيب عن بالي قط ما كان اللورد إيلتون يحدثني به طريق العودة. فقد أقبل عليّ الشيخ المرزوء بفتاته الوحيدة بمقال مستفيض عن النساء والخمر كما أنه أطلق بعض النكات وابتسم

قلت إن الجميع لم يحزنوا بصدق وإخلاص بل تظاهروا بما لم يشعروا به..ولكني أخطأت، فمافيز كلير كانت صادقة في حزنها وألمها. لم ترسل مافيز أكاليل الزهور كما فعل الآخرون بل حضرت بنفسها ووقفت بعيدة عنا في المقبرة. ولما أخذت الجماهير تغادر المكان تقدمت هي بتؤدة فأقامت صليباً خشبياً صغيراً فوق اللحد.

وعزمت في تلك الساعة أن ألقاها قبل مغادرة البلاد مع لوسيو إلى الشرق لاطلعها على حقيقة ما جرى

وجاء ذلك اليوم الذي قمت فيه بما عزمت عليه. كان يوماً ماطراً

مقروراً، وجدت أثناءه مافيز في حجرة مكتبها جالسة قريباً من المدفأة،وقد ضمت إليها كلبها الصغير، بينما أقعى الكلب الكبير على الأرض وأخذ ينظر إلى سيدته بولاء ومحبة

ونهضت لما دخلت وتقدمت لملاقاتي وقد نطقت عيناها بالرحمة والرثاء بينما ارتسمت على فمها العذب خطوط دقيقة من العاطفة السامية الإنسانية. وجلسنا بعد أن تبادلنا بضع كلمات من كلمات المجاملة، وأخذت أنا أتتبع حركتها وهي تضع قطع الخشب في الموقد

وماعتمت أن قلت: «أخالك تعرفين جيداً أن قصة

الأقراص المنومة لا أساس لها من الواقع بل هي أسطورة مختلفة أقتضتها الظروف حتى لا يعلم والدها بأن سيبيل قضت على نفسها»

وانثنت إليّ مافيز بنظرة مرتبكة قلقة وقالت:

«لقد جزعت جزعاً عظيماً وخشيت إن...»

فقاطعتها بانفعال: «لا يوجد هناك ما يخشى منه أو يؤمل فيه لقد انتحرت، وهل تعلمين لماذا؟ لأنها ضاقت ذرعاً بقسوتها وانحطاطها.. ولأنها عشقت صديقي لوسيو ريمانيز»

فصاحت مافيز صيحة ألم ثم جلست وقد زاد بياض وجهها وأخذت ترتعد بشدة

واستأنفت أقول: «في وسعك كما أثق أن تقرأي بسرعة لأنك كاتبة، والكاتب يُفترض أن ينتهب الكتب والمخطوطات بعقله وبصره.. اقرأيها الآن لتعلمي من هي سبيل ولتعلمي إن كانت رغم جمالها تستحق الشفقة والحزن!»

وقالت مافيز: «المعذرة، فأنا لا أقرأ ما لا يوجه إلى شخصي»

«ولكن هذه الأوراق موجهة إليك ـ إلى كل إنسان ـ وقد ورد اسمك فيها. وإني لأهيب بك أن تقرأيها. وأطلب رأيك فيها وأطلب نصيحتك، فقد تقترحين عليّ ما يخلق بي كتابته على شاهد اللحد الذي أزمع أن أبنيه تخليداً لذكراها العزيزة!»

وغطيت وجهي بيدي لأخفي تلك البسمة التي خشيت أن تفضحني لدى مافيز إن شاهدتها. وأخذت مافيز الأوراق وطفقت

تقرأ فيها ما خطته سيبيل في ساعة الموت

ومضت الدقائق في صمت لا يقطعه إلا فحيح اللهب في الموقد، وتنفس الكلبين، وخفقات قلبي المتعب. وكنت أختلس النظرات إلى المرأة الضيئلة الجسم التي طبق صيتها الخافقين. طفقت أتأمل في يدها الدقيقة الرقيقة وأفكر في أولئك الرجال الحمقى الذين يتراءى لهم أن في وسعهم تحطيم نساء كمافيز كلير. ورفعت طرفي إلى عقائصها الذهبية فآمنت أن هذا الرأس الرائع لم يخلق إلا ليكون مرفوعاً شامخاً يعلو بقية الرؤوس

وهكذا أفقدت نفسي في حلم من أحلام اليقظة، وأخذت أحلق في سماء شاسعة واسعة رأيت فيها أشياء كثيرة لم أرها من قبل! وأدركت أن الله أحياناً يجبل إنساناً نادراً في عبقريته وطيبته وسمو روحه، وأن هذا الإنسان النادر المثال كتبت له جنة الخلد والمجد السماوي. وعدت إلى التأمل في مافيز وفي وجهها وقدمت، ورأيت عينيها تستعبران قليلاً، ورأيت عبرات لؤلؤية تنحدر من مقلتيها، وتساءلت ـ لماذا تبكي هذه المرأة؟ ماذا يدعوها إلى سكب الدموع؟

وأخافتني منها حركه مفاجئة، رأيتها تلقي الأوراق من يدها وتثب واقفة على قدميها وتقول وهي تنظر إليّ بفزع وكأنها ترى شبحاً مخيفاً:

«أواه، أنت أعمى لا تبصر! وإلا لرأيت المعاني والمباني.. ألا تستطيع أن تفهم؟ ألا ترى ألدّ عدو لك؟»

فرددت بذهول: «ألدّ عدو؟ وما شأن أعدائي أو أصدقائي

باعتراف زوجتي؟ لقد تقلبت عاطفتها بين السمّ والحب، حتى اختلط عليها الأمر فلم تعد تفرق بين الموت والحياة، وقد قرأت اعترافاتها ورأيت أنها أضحت مجنونة تهذي بالموت كأنه الحياة، وتهجس بذكر الحياة كأنها الموت، ولكن ذاك لا يعنيني في شيء فأنا مخدوع مغرر بي

وأجابتني مافيز بصوت متهدج ينضح بالشفقة والإنسانية:

«لا تكن متحجر الفؤاد أيها الصديق فكلمات سيبيل المسكينة المعذبة بينت لي ما قامته من ألم ممض مروع. ألا تؤمن بحياة قادمة؟»

«بلى، انا لا أؤمن بمثل هذه الترهات»

«وهل تصدقين هذيان المحتضر؟ لقد كانت تقاسي تباريح الفشل المسموم، وهكذا كتبت ما كتبته ونيران السم والحب الفاشل تندلع في أعماقها...»

«أراني غير موفقة في إقناعك بالحق والصدق.. وأنت كما أرى متألم مصاب بانعدام الثقة بما اتضح وجوده.. وأعلم أنك ستتألم أكثر مما تتصور ساعة يحين الوقت الذي تعلم فيه عن يقين أن هناك بعد هذه الدنيا دنيا ثانية... إنني ملمة بنظرياتك، وقد شاركتك فيها زوجتك قبل وفاتها، ومع

ذلك فإنها اقتنعت بخطلها في ساعتها الأخيرة! ولن أجادلك أو أناقشك لأنك واقع تحت سلطان عدوك ولا تستطيع إنسانة ضعيفة مثلي أن تنتشلك من هذه الوهدة المخيفة!»

«عمن تتكلمين يا مافيز؟»

«عن عدوك.. عدوك! وقد خيل إلي منذ لحظة أنه واقف إلى جانبك! ويخلق بك الآن، يخلق بك قبل فوات الأوان أن تستمع إلى هذا الصوت، صوت سيبيل ـ فما تقول سيبيل؟ تقول ـ الرحمة يا إلهي ـ أنا أعلم من يستعيذني ويجرني جراً وراءه إلى دنيا النار المتأججة..إن اسمه...»

فقلت بلهجة من يتلهف إلى معرفة شيء: «إنها تقف عند هذا الحد ولا تكمل، فما اسمه يا ترى...؟»

وردت علي مافيز بصوت عميق مخيف: «اسمه لوسيو ريمانيز! ولا ادري من أين أتى، ولكنه من زبانية الشر ـ شيطان له أهاب انسان جذاب ـ شيطان مدمر محطم! وقد انصبت لعنته على رأس سيبيل في اللحظة التي اجتمعت إليه. وهذه اللعنة تحوم الآن فوق رأسك! فابتعد عنه إن كنت حكيماً.. اغتنم هذه الفرصة ولا تمكنه من رؤية وجهك!»

وارتعدت فريصتي، إلا إني تجلدت وأجبت:

«هذا محال يا مافيز كلير، فلوسيو صديقي الحميم، وإخلاصه فوق الشبهات..»

وقصصت عليها ما رأيته في الليله الأخيرة عندما ارتمت سيبيل على قدميه

ولكنها هزت رأسها وقالت بحزن:

«هذا لا يغير اعتقادي بمحال الرجل وحبّه، فصديقك الحميم هو

ألدّ عدو لك! المعذرة يا صاح، المعذرة إن طلبت إليك مغادرة منزلي، وإني لأتمنى لو لم أقرأ أوراق سيبيل فقد آلمتني المعرفة ألماً عظيماً»

وأخذت الأوراق من يدها ثم التفت إليها وسألتها في شيء من التهكم:

«وماذا أكتب على شاهد الضريح؟ ألديك اقتراح بالكلمات اللائقة؟»

فطأطأت رأسها وأجابت باستكبار:

«أكتب عليه ـ من يد قاسية إلى قلب محطم ـ! فهذا يلائم الفتاة الميتة، ويلائمك أنت، أيها الرجل الحي!»

ودلفت مافيز خارجة، ونظر إليّ الكلب الكبير متحدياً وكأنه يحثني على الذهاب. ولكن بقيت في مكاني وحدثت نفسي بصوت مرتفع فقلت:

«إنها امرأة، مجرد امرأة! إنها تلومني على انعدام شفقتي وتنسى أن سيبيل آفة! هكذا هي الدنيا ـ دنيا السماء ـ فالمرأة يجب أن يرثى لها، أما الرجل فيترك في العراء، في برد الشتاء، في ثلج صحراء العاطفة والفكر الجرداء!»

وارتعش جسدي، وانحبس صدري، وأخذت عيناي تجولان في الغرفة. وتضوع الأرج، أرج الأزهار المفتحة الأكمام في الحديقة، وهمست أناجي نفسي:

«لو عرفتها، لو عرفتها أولاً لأحببتها!»

ولكني تذكرت في تلك الفينة اني أبغضتها يوم عرفتها، بل قبل أن أعرفها، وأني حسدتها وهاجمتهت وذبحتها..

فماذا كانت النتيجة؟

شهرة مضاعفة، وصيت يصل إلى الجوزاء، وعبير يضاهي هذا العبير الذكي الذي يملأ صدري الآن!

فماذا كانت النتيجة؟

بعد أسبوعين وقفت على ظهر يخت لوسيو «لوسيو» ـ وهو مركب لا يضاهيه مركب آخر في مخر البحار الشرقية والغربية، هو مركب أعجب كل من شاهده، فليس لدى الملوك ما يماثله ليس لدى الأباطرة ما يدانيه في زخرفته وأثاثه ورياسه بباعث من الميل إلى وجود شخص آخر يحبني

وكان اليخت بالإضافة إلى ذلك أعجوبة المراكب كلها في سرعته الخارقة. وكان محركه الكهربائي موضع دهشة وتساؤل كل إنسان متعمق في علم الآلة

أقلعنا بعد ظهر ذلك اليوم الذي أنفقت فيه مع لوسيو على مغادرة الشاطئ الإنجليزي، وسرعان ما احتوانا اليمّ، فشق فيه «اللهب» طريقه كالسهم.. وبهدوء، وسكون

وكنت قبل ذلك قد نزلت للورد إيلتون عن ويلوسمير وخلعت على خدمتي جوائز سنية

ولم أهب اللورد ذلك القصر حباً به أو طمعاً في إدخال السعادة إلى قلبه في خريف عمره، بل إني وهبته القصر والمزرعة حتى يعرف الجميع أن الكاتب المغمور قد أغرق اللورد العريق بجميله، وفي هذا مافيه من دلائل

الاحتقار التي وإن باتت تافهة ضئيلة إلا أن تأثيرها عظيم على القلوب والمهج... ولا شك أن اللورد سيقضي أياماً شقية في هذا القصر، ولا شك أن ديانا شمسني ستصبح شقية هي الأخرى بعد أن تغدو سيدة هذا القصر، وبعد أن تخلف سيبيل في إدارة شؤونه وفي احتلال ذلك المخدع الرهيب الذي شهد الدقائق الأخيرة المروعة لحياتها قبل أن يحرق السم الزعاف قلبها ويفتت كبدها

وكنت قد جئت بفنان إيطالي ليقيم لسيبيل تمثالاً فوق ضريحها وكان هذا التمثال الذي وضعنا رسمه بعناية وحرص، في هيئة ملاك، ووجهه يشبه وجه سيبيل

ومهما كانت المرأة شيطانة أثناء حياتها إلا أن الإنسان مضطر يحكم النفاق الإجتماعي أن يحيل منها هلاكاً عندما تنتقل إلى عالم الموتى

وجاءتني أخبار مؤسفة من أستراليا قبيل إبحاري برفقة لوسيو، فقد تناهى إلى علمي أن جون كارنجتون الصديق الذي أرسل إلي خمسين جنيهاً تلبية لطلبي أثناء إملاقي، فقد تخرمه الموت على حين غرّة وهو يعبث بمناجم ذهبه، فقد سدت جميع فتحاته فجأة فمات مختنقاً بلهب الذهب الذي أشقاه في أيامه الأخيرة!

ولو سمعت هذا الخبر منذ بضع سنين لألم بقلبي هم شديد. بيد أني الآن لما سمعته هززت رأسي ولم تحرك في الكارثة أية خلجة من خلجات الرثاء والشفقة

والناس تموت بكثرة ونحن نعيش في عجلة، فلم الحزن إذن؟ كلنا ميتون زائلون، فلم الحزن إذن؟

هذا ما ناجيت به نفسي ـ لقد ذابت إنسانيتي ـ أذابتها نيران طمعي وجشعي.. ذابت إنسانيتي فغدوت حجراً لا يشعر ولا يحس.. ذابت إنسانيتي ولم يعد يحركها إلا ذكرى مافيز كلير، ومع ذلك فلم تكن هذه الإنسانية تتحرك على ذكراها إلا بباعث من حب النفس ـ

ويرثي لي ويعزيني ـ بباعث من الطموح حتى أستطيع أن أقول:

«هذه المرأة التي رفعتموها إلى أعلى مراتب الشرف وتوجتم رأسها بأكاليل الغار، تحبني.. فهي إذن لي وليست لكم».. هذا هو الطمع بعينه، أما الإنسانية فقد انعدمت تماماً ونضب معينها كما قلت!

وتعرض شعوري نحو ريمانيز أيضاً لتأثيرات شتى.. فسلطانه عليّ لم يزل كما كان قبلاً إلا أني أخذت أجد نفسي ممعناً أحياناً في دراسة دقيقة لشخصه وحركاته..

كنت أحبه وأعجب به الا أن شعوراً خفياً كان يعتمل في صدري في هذه الأيام بالخوف منه وبالنفور والإشمئزاز. ولكن هذا الشعور سرعان ما كان يتبدد ليحل محله شعوري القديم بمحبته والثقة به

وتضاربت هذه المشاعر بشدة وعنف بعد أن ركبت معه متن البحر، وطفقت أرى أموراً كثيرة غابت عني من قبل. كما أن أميل خادمه الذي لم أمل إليه أبداً أصبح في نظري الآن كريهاً مخيفاً.. إن جميع الملاحين بدوا لي كأشباح تروم البطش بي!

ومضت الأيام وشعوري بالوحدة يزداد ثقافاً.. كنت أقف بمفردي على ظهر اليخت عندما يرخي الليل سدوله، وأرفع نظري إلى السماء فلا أجد فيها ما يلهمني ويوحي إلي بالطمأنينة

ودهمني في إحدى تلك الليالي صديقي لوسيو فربت كتفي بيده وقال ملاطفاً:

«أراك مللت الرحلة يا جيوفري ـ بل أراك مللت السماء الأزلية

والبحر الأزلي. ولا شك أن الرجل يشعر عندما تجابهه الحقيقة، بضعته وخسته وضعفه..ومع ذلك فاعلم يا جيوفري أننا نسابق الريح بسرعتنا.. أعلم أننا نطير طيراناً في هذا البحر المتلاطم!»

ولم أجبه بل تأبطت ذراعه ومشيت معه صامتاً مطرقاً

وقال لوسيو وهو ينظر إليّ بحنو ومحبة: «كنت تفكر بسيبيل..ولقد تحاشيت الخوض في قصة امرأة جميلة فاتنة ـ أجل،امرأة رائعة الجمال... والجمال يخضع للإغراء.. الجمال...ومع ذلك، لو كان في قلبك ذرة من إيمان لاعتقدت بأنها الآن ملاك!»

فجمدت في مكاني وحدجته بنظرة ينبعث منها شرر الغيظ،

وأجبت:

«ملاك!.. أم شيطان؟ من هي يا ترى؟قل.. قل يا لوسيو، يا من اعربت أحياناً عن إيمانك بالنعيم والجحيم!»

ولم يجبني لوسيو، إلا أن نظرته الحالمة تألقت في عينيه وارتسمت على شفتيه

وتابعت أقول: «تكلم.. تكلم.. أشيطان هي أم ملاك؟

قال: «أي صديقي، المرأة ملاك هنا وفي أي مكان آخر؟»

وقهقه بأسى. وقلت: «لو كان هذا إيمانك، فيا لك من مسكين تستحق الرثاء!»

قال: «لم أحدثك عن الإيمان، وليس لي مذهب خاص»

قلت: «بل لك مذهبك، وأخاله فريداً بين المذاهب..

وقد عاهدتني مرة أن تميط لي اللثام عن حقيقتك، أو تذكر وعدك؟»

قال: أجل، وإني أسألك.. هل أنت مستعد للإصغاء

إلى ما أقول؟ كلا يا صديقي العزيز، كلا.. فأنت على غير استعداد.. فمذهبي سلبي إلى حد كبير، بل هو يتناقض كلياً مع معتقداتك السلبية! ـ إنني أؤمن بالله كخالق إيجابي قادر على كل شيء!»

قلت: «وهل حقاً نؤمن برب؟»

قال: «اللّه القدير...»

ورفع بصره إلى السماء، واستتلى

«هذا السحاب المتحرك ببطء يحجب عنا ملايين الأكوان الغامضة الخفية..وهنا، تحت هذه اللجة شبح آلاف المخلوقات..

ومع ذلك تقف أنت هنا ـ أنت الحقير ـ المخلوق الضئيل ـ المخلوق الضعيف ـ تقف لتتساءل في شك وريبة عن الله!»

وقلت في هدوء: «وهل تعتقد بوجود جهنم؟وبوجود الشيطان؟»

ولم يجر جواباً.. ومضت دقائق كثيرة ولوسيو مخلد للصمت، مسترسل في الفكر..

ثم استدار نحوي، فإذا في عينيه نار بحرقة من الشقاء.. ومع ذلك فقد ابتسم حينما قال:

«أؤمن بوجود الجحيم!وكيف لا؟ أنا أؤمن، وأنا أقرّ بوجود النعيم ـ فمتى كان هناك علو كان انخفاض، ومتى كان نور كانت ظلمة... أما عن الشيطان فهو عدو الإنسان، ولكن ينبغي أن لا نصدق نصف ما يرجف عنه ويقال.. إنه شقي بائس، إن حزنه لو قدر الحزن أن يوزن، يرجح على حزن ألف ألف ألف إنسان من بني البشر، الشيطان مسكين يا جيوفري...»

فقلت: «مسكين؟.. ألا يهلل بسعادة كلما سقط إنسان في حمأة الإثم؟»

«أخطأت، أخطأت.. فالتهليل للخطيئة عمل يتقنه الإنسان المعتوه فقط، لأن السعادة لا تنتج عن الشر، وإلا لنتجت الفوضى عن السر الإلهي! وهذا لا يكون، لأن الحكمة الخالدة تهيمن على هذا الكون، وعلى سائر الأكوان... أما الشيطان المسكين فقد حرم من السماء، حرم من جنة الخالدين، ليظل مئات الأجيال يصغي إلى أصوات الملائكة من بعيد، وليبقى إلى ما شاء اللّه شارداً في فيافي الظلام، لا يتذوق طعم السلام، ولا يدنو من رحاب اللّه لأن الإنسان القاسي الباغي يزيده بعداً بضلاله، وينأى به إلى الأبد عن تلك الظلال الظليلة بفسقه وفجوره، إن الإنسان القذر يجره إلى أسفل، يجره دائماً دائماً.. إنها أسطورة يا صديقي، ولكنها الحقيقة.. وقد افتدى المسيح الإنسان بدمه، فليتعلم الإنسان كيف يفتدي هذا الشيطان المعذب!»

فقلت وأنا جاحظ العينين فاغر الفم: «ما هذه الأحاجي التي تنطق بها يا لوسيو؟»

«ألا تفهم ما أقوى؟ فاسمع إذن.. متى كان الإنسان صادقاً بغرائزه نحو خالقه، ومتى كان كريماً، فاضلاً، شجاعاً، قانعاً، فلا شك أن لوسيفر ابن الصباح سيتعلم معاني المحبة، فتفتح عندئذ أبواب النعيم في وجهه!»

وزادت دهشتي فصمت صمت من أفحم، مع إني لم أفقه ما يعني.

المدينة حضارتها على جميع المدن والإمصار، إلا أنها لم تسبق التاريخ ببدع من المعتقدات كما فعلت إنجلترا وفرنسا في عصرنا هذا...

فقد تفنن الناس في هذه الأيام في الكفر بالله والقدح باسمه علا شأنه ـ فهذه المدينة... المدينة المؤمنة... لم تكفر بنعمة ربها، بل وثقت بنفسها كما وثقت بحاكمتها ـ حبيبة المليك! لقد كانت هذه المرأة المثالية أشبه بمافيز كلير في عبقريتها، وعدالتها، وذكائها، وطيبتها وصدقها... وخيم الهناء على هذه الربوع، وأضحى المكان جنة وارفة الظلال... ولكن المجد العظيم أضمحل بسرعة عندما توفى الله المرأة الطيبة!»

فسألته مستغرباً: «وكيف تعرف هذه الأمور يالوسيو؟ من أين لك هذه المعرفة؟»

قال: «بالدرس والتحصيل.. قرأت للأقدمين، وتصفحت المخطوطات المختلفة، واستنتجت أن الحياة استمرار للحياة... والآن، هل تريد أن ترى المدينة الجميلة في عهدها الغابر؟ هل تريد ذلك؟»

قلت: «وكيف؟ كيف يتسنى لي ذلك؟»

قال: «استسلم إلى سلطاني فأنيمك مغناطيسياً، وأعدك برؤية معالم هذه المدينة العظيمة في عصرها الذهبي!»

وأذهلني كلامه، ولكن لهفتي إلى سبر قدرته جعلتني أستجيب له، وأبدي استعدادي للخضوع والرضوخ والصدوع بأمره...

ونهض لوسيو من مكانه وقال بصوت جهير:

«... عظيمة... أوقف الذهبية، فسنقضي الليل هنا»

وامتثل عظيمة للأمر ـ وعظيمة رجل شرقي هائل... كان يتلفع بثوب أبيض أنيق... وقد أحنى هامته باحترام، ووضع يده على جبهته، ثم مضى ينفذ الأمر

ونظر لوسيو إليّ في صمت.. ولفنا السكون.. وكان سكوناً رهيباً، وكان مفزعاً...

وتباطأ انسياب الذهبية، ثم توقفت، فهدأت حركتها تماماً...

ووقف لوسيو وشرع يحدق في عيني ويطيل التحديق، حتى أحسست بأن البريق الذي ومضت به عيناه يكاد يحرق وجهي...

لقد جذبني قوة قاهرة في هاتين العينين، كما تجذب عينا الأفعوان عصفوراً مسكيناً لا حول له ولا طول!

وشلت حركتي رويداً رويداً.. وأخذ شعوري يتلاشى شيئاً فشيئاً... وطفقت السماء والقمر والماء تدور بي كلها كالدوامة الهائلة.. وعجزت عن الحركة وكأني سموت إلى المقعد

ثم خيل إليّ على حين غرة أن ذاكرتي صفت صفاء عظيماً، وأن ذهني نشط كما لم ينشط من قبل

وطرق سمعي صوت موسيقى

وبدت لي المدينة الرائعة باهرة في أضوائها، متألقة في إشعاعها

كانت المدينة مشتعلة بنور لألاء..

المدينة الجميلة!

21 ـ الرؤيا

الأبنية الشاهقة التي تناطح السحاب! الشوارع المزدحمة بالرجال والنساء المتلفعين بالثياب البيضاء وذات الألوان المتعددة، والمحلاة باللآلئ والجواهر! الأزهار النابتة على أفاريز البيوت والقصور، المنضوعة الأرج، الذكية الرائحة! الأشجار والدوح والأيك الغليظة الجذوع، الوارفة الظلال، الكثيرة الأغصان المورقة! الجسور الرخامية التي تطوق مجرى النهر! الموسيقى التي يتردد صداها بين الخمائل والحدائق!

كل شيء جميل عرض لي، فشاهدته ورأيته بوضوح وجلاء لا مزيد عليهما. فتلقائي ـ أي في المكان الذي وقفت ـ امتد أمامي

طريق عريضة تتوسطها حلقات فسيحة، ويستوي على جانبينا حدائق مرتفعة

وفي كل مكان ناعورة تقذف المياه إلى السماء، وفي كل ناحية أناس يتحركون ويتحادثون؛ والإزدحام شديد،والضوضاء مرتفع، والدنيا في حالة نشيطة دانية

وفي كل مكان من الجهة الشمال شاهدت باباً حديدياً ضخماً يحرسه عدد من تماثيل أبي الهول، ورأيت في الداخل حديقة غناء، وسمعت أصوات فتيات يغنين لحناً عجيباً، وقد حمل النسيم صوت الغناء إلى أذني.

ودنت مني تلك الموسيقى التي تناهت إليّ في أول الأمر، ودنت ودنت.. وشاهدت جماعة عظيمة تقترب وهي تحمل المشاعل والورود والأزهار

ثم بدت لي جماعة من الكهنة في مسوح متلألئة تبرق في ثناياها فصوص الجوهر. وكانوا يتحركون صوب النهر، وقد أحاط بهم عدد كبير من الفتيان والفتيات... بينما تعقب أثرهم من كلا الجانبين تمادات مبرقعات بالبياض، مشكلات بالرياحين، يتهادين في مشيتهن ويخطرن دلالاً، وهن يمرجحن المباخر الفواحة

وتبع الموكب هذا عن كثب، شخص ملكي بين صفين من العبيد والخدم.. فعرفت أنه ملك هذه المدينة الجميلة

ووقف الكهنة، واستمر الملك يمشي حتى توسطهم وهتفت الجموع، وقرعت الأجراس، ودقت الطبول، ومزقت الأبواق بضجيجها الفضاء الشاسع

ووضع الحمالون هودجاً فخماً على الأرض، وبرزت منه امرأة

هيفاء تشع بالنور والفتنة، كما تبزر جنية رائعة من زبد البحر! ولكنها.. كانت مقنعة هي الأخرى ـ فتألمت، وتلهفت، وهفت نفسي إلى استجلاء طلعتها..

وهتفت وأنا أتضور من العذاب:

«احسري نقابك.. أواه! احسري النقاب ياروح المدينة الخالدة! احسريه لأقرأ في عينيك سر السعادة!»

ولكن دعائي لم يثمر... وضجت الموسيقى فصخت سمعي بضجتها.. واعمت الأنوار التي فاضت من كل مكان، وشعرت أني أتقلب في بحر

زاخر من الفوضى اللانهائية، حيث أنهمك في تعقب القمر الهارب باستمرار مني، كما تراءى لي!

وصحت صوتاً عظيماً، وفتحت عيني.. ووقع طرفي على لوسيو وهو يجلس في استرخاء وهدوء وينظر في ظلام الليل، ويرسل الطرف إلى الضفة الرملية التي وقفت ذهبيتنا تجاهها..

صحت صوتاً عظيماً، ثم ارتميت عليه وأنا أقول:

«أين هي؟.. ومن هي؟..»

ونظر إليّ في صمت وسكون، ثم تخلص مني، وهو لا ينفك يحدق في وجهي

وقلت أنا: «لقد رأيت كل شيء ـ المدينة.. الكهنة.

الشعب.. الملك! ـ رأيت كل شيء إلا وجهها!فلماذا؟لماذا اختفى وجهها حتى لا أراه؟»

واغرورقت عيناي بالدموع! ـ وتأمل لوسيو في وجهي وكأنه يتمتع بما يشاهده من انطباعاتي، ولم يهتم أن قال وهو يبتسم:

«أيها الروحاني الدجال!وكأني بك تحتال على النظارة بخفة دمعاتك! أم نراك مرهف الحس مصقولة حتى يؤثر فيك طيف عابر؟»

فأجبته متماثلاً:«أتعني أن الذي شاهدت في غفلتي هو مجرد فكرة ألمت بي كشرارة منبثقة من عقلك وإرادتك؟»

قال: «بكل تأكيد! فأنا أعلم ما كانت عليه المدينة الجميلة ولهذا استطعت أن أرسمها على قرطاس مخيلتي وأقدمها لك، أو بالأحرى

أقدمها لبصيرتك! فللإنسان بصيرة في أعماقه ـ ولكن الإنسان يعيش ولا يشعر بهذه الميزة الكامنة فيه التي أهمل أمرها وطرى كشحه عنها»

وعجزت عن الرد ولذت بالصمت مكتفياً بما قلت وبما تلقيت من كلام؛ ثم غادرته هابطاً إلى حجرتي لأنام، إلا أن أفكاري كانت مضطربة مختلطة. وأخذت شيئاً فشيئاً أشعر بالخوف المريع يغزو قلبي وأحاسيسي ـ بخوف عميق ـ وكان شعور الخوف هذا مبعثه يقيني من أني غدوت محكوماً، مأموراً مساقاً بقوة قاهرة لا يوجد فيها شي دنيوي

واضطربت ظهراً لبطن، وانكمشت على نفسي وأنا أرى بعين مخيلتي نظرة لوسيو إلي.. إنه رهيب! ولكم ارتعدت فريصتي في حضرته في هذه الأيام

والمدينة الجميلة هي إحدى الفصول العديدة التي قفّ لها شعر رأسي، وأوحت لنفسي بالخوف والفزع

إنه كتلة مدهشة ولغز محير

إنه ساحر أكثر من السحرة.. وملك أكثر من الملوك إنه يحتقر الإنسان واحتقاره للإنسان أشد من كل احتقار!

ومع ذلك كنت أعجب به وأحبه

مع ذلك، ورغم خوفي ورعبي مازلت أحبه وأفكر بحديثه الطلي وبفلسفته وبحكمته

مع ذلك كنت لا أطيق الفراق عنه..

ومع ذلك تضاعف ذلك الحزن وذلك الإنقباض وذلك الإرهاق في أعماقي!

وكرهت نفسي هذه الرحلة النيلية وودت لو عدنا أدراجنا، ولكني لم أجسر على مفاتحته بما ساورني، واستمرت ذهبيتنا تمخر هذا العباب حتى وصلنا الأقصر

وهناك جرى ما ضاعف رغبتي إلى الرجوع. فقد مكثنا في تلك المدينة بضعة أيام زرنا أثناءها المتعلقة وما يجاورها، والآثار القديمة في طيبة والكرنك. وكان الرجال ينقبون عن الآثار طيلة ساعات النهار

وأخرجوا إلى النور بعد ظهر أحد الأيام تابوتاً مطلياً طلاءً فاخراً. ولما فتحوا التابوت شاهدنا فيه مومياء كاملة لفت بالأقمشة الثمينة المحلاة بالذهب.. وكان لوسيو بارعاً في ترجمة الكتابة الهيروغليفية وقد قرأ ما خط داخل النعش، وفيما يلي ترجمة ما قرأ:

«راقصة في بلاط الملكة أمينارتس التي قضت على نفسها بالسم لما اقترفته من آثام جسام أحالت سعادتها إلى شقاء وحياتها إلى بلاء

وقد مزجت السم ودافته بأمر الملك وفي حضرة منفذي القانون.

وكانت في العشرين من عمرها!»

ورفع لوسيو رأسه وأجال طرفه فينا وهو يبتسم ثم قال:

«يمكننا أن نغبط أنفسنا لما حزناه من تقدم في عصرنا هذا.. لنر ما هي ومن تكون»

وأخذ الرجال يزيلون اللفائف، وتهدل شعر المومياء. وعندما أقبلوا على الرأس يعالجونه بعناية وحرص، وانتهوا من إزالة آخر ضمادة انتابني شعور فتال كدت من وطأته أن أنهار ـ انتابني ذلك الشعور حالما لمحت الوجه، وكدت لولا قليل أهتف بأعلى صوتي:

«سيبيل...»

لقد كانت هي.. إنها هي بعينها.. سيبيل.. فما هذا الشبه؟»

وامتلأ صدري بالطيب المنبعث من المومياء، وانتابني دوار وصداع فترنحت وكدت أهوى إلى الأرض، ولكني تماسكت وتجلداً أخفيت وجهي بكفي ونكصت إلى الوراء

وأيقنت في تلك اللحظة أن العبير الذي فاح من جثة سيبيل وهي ميتة، وهو نفس الأرج الذي سطع من هذه المومياء!

واسترعى لوسيو انتباهي وهو ينحني فوق النعش ويعبث بغطائه ثم يستخرج من مكان خفي قطعة من الذهب الخالص بحجم الرصيعة الكبيرة، ودنا مني وقطعة الذهب في يده وقال:

«هذه هي الراقصة الحسناء في عنفوان صباها.. أنظر إليها ألا ترى في قسماتها سحراً وفتنة؟»

وتناولت القطعة من يده وتفرست فيها وأنا أشعر شعور من

يحضره الموت فقد رأيت في قطعة الذهب وجه سيبيل.. أجل رأيت سيبيل بعينها

ولا أذكر كيف استطعت أن أقضي الساعات بعد تلك الحادثة الرهيبة. وفي المساء انفردت بلوسيو فقلت له:

«ألم تر الشبه؟ ألم تبين تلك العجيبة التي لا مثيل لها؟»

«أجل رأيت ما رأيته أنت، فالراقصة المصرية تشبه زوجتك الراحلة.. ولكن ما بالك تنهار وتضعف وتفقد كل قوتك؟ إن التاريخ يعيد نفسه،

ولـم لا تعيد الجميلات أنفسهن إذن؟.. ألا فاعلم أن الجمال له توأمان وقد يفترق التوأمان فيظهر أحدهما منذ ألف سنة ويظهر الآخر منذ سنة!»

* * *

أصبت بالسقم فلزمت فراشي وأنا أئن وأتألم مما أصابني ولحق بي. واتفق وجود طبيب في الفندق فاستدعاه لوسيو ليفحصني ويعالجني. وقد جسّ الطبيب نبضي ثم هز رأسه ونصحني أن أغادر مصر على التوّ

واغتبطت لنصحه، ولـم أستطع كتم ما خالجني من سرور..

أجل فرحت وانتشيت وأخذت أتخيل نفسي أرتع في وبلوسمير أو في حدائق أخرى من بلادي.. رأيت نفسي أبتعد بسرعة عن هذه الصحراء المرعبة التي عاش فيها رجال ونساء لم يعرف التاريخ مثيلاً لهم.. ورأيت بعين مخيلتي آلاف المومياءات اللاتي أبصرن النور بعد ظلام آلاف من السنين... وارتعشت ولو تعدت واختفت أرجو لوسيو أن يتخذ الأهبة للعودة إلى القاهرة ثم إلى الإسكندرية

وما هي إلا ساعات معدودة حتى انثنت الذهبية راجعة بنا؛ وبعد يومين أو ثلاثة أيام كنا على ظهر (اللهب) في طريقنا إلى فرنسا

ومضت الأيام، فبللت من مرضي ورجعت إليّ ثقتي بصديقي كأقوى ما تكون الثقة. ولكن ما تبع تلك الأيام، ما تبعها من أحداث جسام لا تنسى ولا تمحى من الذاكرة جعلني أنقلب إلى مجنون، بعد أن أوشكت أن أفقد الحياة، الحياة الحقيقية، أو الحياة الأزلية التي لم أعترف لها بوجود من قبل

ففي إحدى الأمسيات وبعد نهار مشرق انساب فيه اللهب بسرعة خاطفة فوق اليم، أويت إلى مخدعي وأنا أشعر الراحة والهناء والصفاء

كانت أحزاني تتلاشى بسرعة، كنت أنظر إلى المستقبل بتفاؤل واستبشار، كنت أترقب المستقبل بأمل وثقة. كنت كمن يبعث حياً، وكنت والحق يقال أفكر بمافيز كلير، وأزمع أن أبذل الجهد كله لأظفر بها زوجاً وحليلة ـ إنها المرأة اللائقة، إنها لي ولن تكون لغيري!

واستسلمت للكرى، وحلمت. وكانت أحلامي هادئة، ولكني استيقظت في منتصف الليل، وحملقت بعيني الجاحظتين في شعلة كروية حمراء تملأ قوتي. وداخل حسي لأول وهلة أن اليخت يحترق، وما عتمت أن شعرت بقوتي تنهار وبأعضائي تشل وتتصلب، وانتصبت سيبيل أمامي! انتصبت سيبيل بوجهها وقامتها، شبحاً رهيباً ينظر إلي ولا يتحول عني!

سيبيل، شبح متوحش، معذب، مرتجف، عار، يشير بيده، ويومىء برأسه بيأس وقنوط. وكان وجهها كما شاهدته ليلة موتها.. وكانت عيناها المتألقتان تشعان باليأس والشر والتهديد!

وكان يلف رأسها وعنقها إكليل من نار مضطرمة تهتز ألسنتها الحمراء وتخفق، ثم ترتفع، وهي تتوهج وتصغر وكأنها أفعوان يتلوى على نفسه..

وكانت شفتاها تتحركان ولا تنطقان.. واختفت سيبيل!

وأخالني فقدت صوابي لأني عندما تنبهت من رقادي الطويل كانت الشمس تتكبد السماء

وعاودتني الرؤيا في الليلة التالية، شاهدت سيبيل كما شاهدتها في الليلة الأولى تتعذب وتتألم وتلتهمها النيران الأزلية

وبلغ عذابي حداً لا يوصف. ولكني أخفيت الأمر عن لوسيو ولم أخبره أن سيبيل تمثل لي كل ليلة

وطفقت أتناول أقراص النوم، فكان العلاج عقيماً لأني كنت أنتبه من رقادي في ساعة معينة لأرى الشبح الرهيب اليائس القانط المعذب!

ولم يكن هذا كل شيء، ففي أحد الأيام والشمس ساطعة دلفت إلى قاعة الجلوس الكبيرة في اليخت، ولكني بهت شديداً ساعة رأيت صديقي القديم جون كارينغتون يجلس إلى مائدة صغيرة وهو يكتب أرقاماً حسابية

دهشت، ولكني صحت كالمذهول: «جون...»

ورفع صديقي رأسه فإذا الحزن يتمثل في عينيه، وإذا به يبتسم

بأسى ثم يزول.. وارتعدت فريصتي، واهتزت يداي، واختجلت عيناي. فأغمضتهما حتى لا أرى شيئاً أغمضتهما وأنا أشتهي الموت..

حادثة وأي حادثة! حياتي غدت جحيماً! سيبيل تطوف بي في الليل وصديقي يمثل في النهار! هول فوق هول! يا لقلبي! كيف أصمد؟ كيف أحيا وأعيش؟

إنني مريض، إنني مدنف.. وهذه الأشباح ماهي إلا مقدمة الجنون.. إنني أسير بخطى متعجلة إلى تلك البؤرة التي يتلوى فيها من فقد عقله وإدراكه! إنني أفقد الصواب وعلي أن أعود إلى إنكلترا قبل أن يذهب عقلي كله.. ولكن، يجدر بي أن أكتم الأمر فلا أخبر لوسيو حتى لا يبتسم في تهكم أو في رثاء

ورأيت في تلك الليلة أن أنام على ظهر اليخت، فمن يعلم، قد يبعد عني الهوار المنعش أطياف الليل؟ ولكن عذابي تضاعف في تللك الليلة، وتنبهت من رقادي كالعادة.. لا لأبصر سيبيل فحسب بل لأشاهد أيضاً تلك الأشباح الثلاثة التي ظهرت لي في لندن ليلة انتحار الفيكونت لينتون

إنها نفس الأشباح، إلا أنها كانت في هذه الليلة تنظر إلي! ومع أن شفاهها لم تتحرك فقد كانت كلمة (العذاب) تتماوج في الأثير، وقد سمعتها وكأنها تقرع الفضاء قرعاً، أو كأنها جرس الموت يردد البحر أصداءه.. وكانت سيبيل بوجهها الذي هو وجه الفناء وقد أحاطت به النيران، تبتسم لي! ـ كانت تبتسم ابتسامة العذاب والندم!...

رباه! ـ لن أحتمل، لن أقوى على الإحتمال!

ووثبت من مكاني واندفعت إلى حافة اليخت... فيجب، يجب أن أقفز إلى اليمّ....

ولكني واجهت أمييل يعترض سبيلي فوقفت كالمأخوذ.

وقال أمييل: «سيدي! أنا طوع أمرك!»

وحدقت في أسايره المظلمة ـ ثم انفجرت أضحك، وقلت:

«طوع أمري! تقول أنك طوع أمري؟أتستطيع أن تساعدني؟ كلا، كلا...»

وتأمل الرجل في صامتاً؛ وتابعت أنا القول:

«إنني ذاهب إلى مخدعي، ولعلي أستطيع أن أنام هناك، وضحكت مرة أخرى ضحكة مدوية مجلجلة ثم رجعت القهقرى متعثراً مترنحاً

وما كدت أجتاز عتبة قمرتي حتى رتجت الباب وتناولت مسدسي وأنا أهمس وكأني مجنون يكلم خياله:

«ضغطة خفيفة وينتهي كل شيء! وأفوز بالسلام ـ فلا أشعر بالألم، ولا أشعر بخوف ـ وأنام... أنام....»

ورفعت يدي إلى رأسي... ولكن الباب فتح بغتة واقتحمه لوسيو؛ وقال وهو يقف أمامي: «لم أفكر قط بأنك مستيقظ منهمك في عمل ما!إنني ذاهب ولن أقلق راحتك!»

وابتسم، وتمثل في بسمته شيطان مرير. واشمأزت نفسي فأرخيت يدي وقذفت بمسدسي إلى المائدة وأنا أقول محتدماً متأجماً:

«أتقول ذلك!أتقوله وتزعم أنك صديقي؟»

وحدق لوسيو في وجهي... واتسعت مقلتاه، وغدت

عيناه شعلتين براقتين ـ غدتا شعلتين فيهما سخرية، وفيهما حزن، وفيهما بأس!

وقال: «وهل ظننت ذلك؟ لقد أخطأت فأنا عدوك!»

وخيم علينا صمت رهيب. وارتعشت وشعرت بجسمي يبرد ويتجمد. وعدت إلى مسدسي فتناولته ووضعته في حقيبتي ثم رفعت إليه نظري فرأيت ما طاشت له سهامي

رأيت شبحه المديد يزيد طولاً وعرضاً

رأيته ينحني فوقي وينبسط ويتسع وكأنه شبح جبار، أو كأنه سحابة مكفهرة تنذر باقتراب العاصفة!

وغامت عيناي وحجب النور عنهما ظلام ثقيل

وسقطت إلى الأرض فاقد الوعي!

22 ـ السلام لك يا إبليس

رعد وضوضاء وحشيّ ـ وميض البرق ـ هدير الموج العظيم بجباله الواثبة إلى أعلى ـ وأفقت على هذه الثورة العاتية للعناصر التي أطلقتها الطبيعة في صخب مجنون كأنه الموت يرقص رقصته الأخيرة ـ أفقت وكل عضو من أعضاء جسدي يرتعد ويتشنج

ونهضت متحاملاً، ووقفت في وسط حجرتي الصغيرة المظلمة وأنا أحاول جاهداً أن أسترجع قواي المتضعضعة المتبعثرة

كانت الأضواء مطفأة والليل الدامس البهيم لايضيئه إلا وميض البرق على فترات

وتناهى إلى سمعي أصوات صياح فوق رأسي، وكأن من يحدث هذه الأصوات جماعة من المجانين.. كانت صرخاتهم أشبه بصرخات أهل الشر، أو أشبه بصرخات الشياطين ـ كانت صرخاتهم تتحول من أصوات المنتصرين إلى أصداء المكلومين، إلى أنين وزفير، وكأن من فوقي يقاسون برحاء الألم إلى حد لا يتاق!

وكان اليخت يقفز ـ كأنه هو الآخر مجنون ـ إلى الأمام وإلى الوراء.. كان كل شيء يعربد عربدة رهيبة، كان كل شيء يضج وكأنه وحش مسعور تاه في هذا الخضم المزبد فهام على وجهه يصرخ في بهيم الليل صرخات الويل والثبور.

وحدث ولا حرج عن الريح العاصفة ـ كانت الريح تصفر وكأنها شيطان يتعذب ـ كانت تعول وتئن وتنتحب وكأنها تتقمص جسداً يقاسي أهوال العذاب.

ونسيت كل شيء، نسيت ما يكتنفني وما يطرق سمعي، ولم أتذكر إلا أني مهدد بالموت والفناء..و حاولت أن أفتح الباب، ولكني أخفقت في محاولتي، فأنا سجين.. سجين في مركب صديقي!

وجن جنوني، فطفقت أضرب على الباب بقبضتي الإثنتين، وأصيح وأهدد.. ولكن عبثاً ضاع مجهودي، فقد ران الصمت علي أخيراً ولم يستجب لي أي مخلوق وكأن المركب خال من بني البشر، وكأنه مسكون بالأرواح الشريرة فقط.

وخيل إلي أن العاصفة تشتد، وأن البرق لا يفتر، وأن الرعد يقصف باستمرار.

ولكن هذا الرعد كان غريب الجرس وكأنه مفتعل، وكأن اللذين افتعلوه هم الذين يحدثون هذه الضوضاء فوق رأسي.. وأصغيت، أصغيت صامتاً، وسمعت.. سمعت من يقول: «أيها الهامدون إلى الأمام!»

وتبع ذلك قهقهة متنافرة النغم. فضاع صوابي وأصغيت إلى مزيد من الكلام.. وعلى حين غرة ارتفع صوت مجلجل يكلمني من وراء ظهري، فخيل إلي أن الظلمة نفسها التي تكتنفني قد أطلقت ألسنتها لتكلمني.

كان الظلام يقول: «أيها الهامدون، إلى الأمام! افتحوا الكون، اخترقوا العاصفة، اقتحموا القدر، انصلتوا من الموت إلى يوم المحشر.. افعلوا كل ذلك، وستنبعثون..» وطاشت سهامي، فحملقت لأرى المتكلم، فشاهدت الألسنة مندلعة وكأنها ألسنة من نيران!

ولهفت نفسي واستولى على كل جارحة من جوارحي خوف قتال ـ هذا ما أستطيع أن أصف به الخوف الهائل الذي دهمني في تلك الليلة الرهيبة ـ وسقطت منكفئاً على وجهي، بيد أني ما عتمت حتى قمت من مكاني وجثوت في مسكنة ومذلة وصليت أجل صليت لله الذي قضيت العمر وأنا لا أؤمن به ولا أترك فرصة تمر دون أن أنكره فيها ـ صليت بلا كلام، فقد اعتقل لساني في حلقي ـ فأنا كما أيقنت أعيش في وسط الجحيم ـ كل شيء يؤكد أني في جهنم! ولم أملك نفسي من الجثو وأنا أرتعش وأرتعد من الغرق. وانبعث على حين غرة صوت الجان المخيف.

المقبل من بعيد ـ صوت جعل ينقى رويداً رويداً، حتى تبينت الكلمات، فكانت كلمات تهتف بها آلاف الحنجرات... كانت هذه الألسن الخفية تردد بصوت عظيم يصم الآذان:

«تباركت يا شيطان...تباركت يا شيطان!..»

وأرهقت السمع محملقاً يكاد قلبي يقفز من مكانه لسرعة خفقته..

وخيّل إليّ أن الأمواج كانت تهتف هي الأخرى:

«تباركت يا شيطان!...»

وزعق بها الريح، فابتلعها الرعد، وقصف بها قصفاً مزعجاً:

«تباركت يا شيطان!...»

وسطرها البرق بأحرف من نار، وبطريقة ثعبانية!..

ولف رأسي لفة سريعة ودار في مكانه...و أصابني الدوار..حتى تراءى لي أن هذا الرأس يوشك أن ينفجر

إنني مجنون..لا ريب في ذلك.. وإلا ماذا دهاني حتى جعلني أسمع مثل هذه الألفاظ؟

وبقوة لا أعهدها رميت بثقلي كله على الباب، فلم يستجب لي الرتاج أو يلين المزلاج..و أعدت الكرة، ثم همت بإجراء المحاولة لثالث مرة، لولا أني لدهشتي، رأيت الباب ينفتح على مصراعيه بقوة وعنف، ويدلف منه لوسيو وهو متشح بملابس ثقيلة قاتمة.

وقال وهو يرمقني مقطباً متجهماً:

«اتبعني يا جيو فري، فقد حانت ساعتك!»

وزايلتني البقية الباقية من رباطة جأشي، وغرقت في لجة هائلة من الذعر لوجوده، فمددت إليه يديّ متضرعاً وقلت ونفسي تغثو:

«بحق الله...»

ولكنه أخرسني بحركة متكبرة صلفة وهو يقول مقاطعاً:

«وفر عليك مشقة الإستجداء! ولا تتوسل إلي باسم اللّه أو باسمك، أو باسمي.. بل اتبعني!»

وتحرك وكأنه شبح أسود، في دائرة عجيبة من الضوء ـ وتبعته أنا مشدوهاً، مترنحاً، أرتعد هلعاً... تعقبته كظله حتى وصل إلى قاعة الجلوس، فألقيت نفسي وحيداً معه ومع الموج الهادر المتلوي على بعضه وكأنه ثعابين توشك أن تلسع وتميت..

وتهالكت على مقعد من المقاعد الكثيرة المبثوثة، واستدار هو فنظر إليّ متأملاً، ثم فتح إحدى النوافذ ـ فاندفعت إلى الداخل موجة عظيمة

أغرقتني برذاذها الملحي.. ولكنني لم ألق إليها بالاً، بل بقيت جامداً في مجلسي، وبقيت عيناي محددتين في تقاطيع هذا المخلوق العجيب الذي زاملته وواددته ردحاً طويلاً.

ورفع هو يده بحركة من يمين وينهى وقال:

«رجوعاً إيه يا شياطين البحر والريح! يا خدمي وحشمي..يا أرواحاً غير نادمة لرجال مضوا ودرجوا في كفن النسيان!

«يا من ضاعوا في الموج أو لفتهم العاصفة بريحها... رجوعاً إلى مثواكم، رجوعاً.. فالساعة لي أنا وحدي...»

وسمعت، والخوف آخذ مني كل مأخذ.. ورأيت والهلع مستحوذ على مشاعري.. سمعت الهدير ـ هدير الموج المرغي المصطرع، يصدر بالأمر، ورأيت الجبال العظيمة التي كانت تلتطم بالمركب فتزعزعه، تنكس رأسها وتستكين وتهدأ.

سكنت العاصفة وخمدت مياه البحر، وانساب اليخت انسياب الأفعوان، في حركة لينة سريعة.

وانحسر الغمام عن القمر فأضاء الدنيا وتدفق نوره إلى الردهة وسمعت وأنا شارد اللب تلك الأصوات المتقهقرة ـ أصوات البحر والريح.. أصوات الأبالسة تصيح:

«تبارك اسمك يا شيطان!»

وواجهني لوسيو بعينيه البراقتين ـ واجهني باشعاع يبهر البصر ويشده النفوس ويستولي على الألباب، وقال:

«وهل عرفتني الآن؟ هل عرفتني أيها الرجل الذي أغراك وميض ذهبي فأشقاك؟ أم تريدني أن أخبرك من أنا؟»

وتحركت شفتاي، ولكن الكلام جمد عن لساني.. ولاح لي أن تلك الفكرة المتذبذبة بين الشك واليقين، الفكرة المخوفة المرعبة لم يتبلج لي فجرها المضيء بعد، فتخبطت في ظلام الشك والتردد، أو بالأحرى في مكث خارج حدود الإحساس المادي الذي يجعل الإنسان يثق في شيء محسوس.

ومضى يقول: «كن ما تكون، كن أحمق وكن أعمى.. كن ميت الإحساس.. ولكني آمرك أن تعلم أني بمشيئة الله ـ تلك المشيئة التي لا ناقض لها ـ أصبحت سيدك، وغدت رادتك صفراً لا تملك منها مقدار ذرة! إنني أختارك واحداً من ملايين عبيدي للتعلم في هذه الحياة الدرس الذي ينبغي على الجميع أن يتعلموه ـ فاستعد، أرهف الحس، كن يقظاً لتسمع النبأ ـ اسمع ما أقول!»

وبذلت جهدي لأتكلم، ولكني عجزت عن النطق ـ إنسان ـ إنه صديقي، كان ولا يزال، رغم أنه جابهني بعداوته..و لكن، ولكن ما هذا الإشعاع الذي يحيط بحاجبيه؟ وما هذه النيران المندلعة في عينيه؟

واستطرد يقول: «وإن أنت لم تعرفني، إن أنت لم تشعر بأني أنا أنا... موجود هنا هنا.. فما ذلك إلا لأنك لن تعلم ولن تشعر! أنا أدهم الرجال عندما يسبحون حمداً بظلام أرواحهم وأبصارهم! هكذا أجيء، وهكذا أغدو صديقاً لهم، أراودهم على آخرتهم، وأزين لهم الشر والباطل... أجيء إليهم بالشكل الذي يحلو لي، أو بالأحرى، الذي يحلو لهم،

وأكيف نفسي حتى ترتاح إلي نفوسهم.. وقد أطلقو عليّ أسماء كثيرة، وصورتني كنائسهم بتلك الصورة المخيفة.. أنت إنسان تعيش في هذه الأرض وتنكر وجود هذه القوة السرمدية التي كونت الدنيا والفضاء، ونفخت فيهما الروح..لقد شاء اللّٰه لحكمة فوق الإدراك أن يسدل بين الإنسان وبين تلك القدسية العجيبة ستاراً من الغموض، فلم يعد الإنسان يرى بوضوح، ولأنه عمي عن الرؤية فقد شك وارتاب...أيها المجانين، تعطون الخيار فتختارون الأسوأ... يأتيكم اللّٰه بروح رحيمة لينقذكم، وآتيكم أنا من أدنى أعماق الجحيم ـ أنا روح التمرد والعصيان ـ آتيكم من هناك فتتبعونني وتضطهدون تلك الروح الرحيمة، بل وتهدرون دمها الطاهر...و ها أنذا أعيش إلى الأبد، أعيش بينكم محبوباً مقرباً، ولو أنتم صعرتم لي خدودكم مرة واحدة لانتهت حياتي هنا، ولانتهت بالتالي شقوتي، وحانت ساعة الخلاص!»

واهتز جسدي كريشة في مهب الريح ـ وطفقت شيئاً فشيأً أدرك ما أرى وأسمع..أخذت أدرك أني في حضرة مخلوق فوق المستوى البشري، ومع ذلك أيقنت أني في حضرة روح شريرة متمردة متعذبة!

واستتلى:«وأنت يا جيوفري تمبست، يا من نبتت في قلبك مرة كلمة صالحة ـ كلمة العبقرية التي أسبغها اللّٰه عليك..الفيض النقي الزاخر الذي أضفاه خالقك على روحك ـ لقد ركلت النعمة وشئت أن تستغلها كشيء دنيوي تافه..كشيء تتمتع به لنفسك ولا تخصصه لله!.. لقد ساقتك القوانين السماوية بلطف ورقة في الجادة المستقيمة فاجتهدت وعكفت على النهل من ينبوع الحكمة ـ وقاسيت وأنت تجتاز هذه الجادة القويمة من المحن ما صقل روحك وأرهف حسك.. إن العذاب هو سلاح المعركة ـ معركة

التجربة الكبرى ـ ولكنك هزمت وسرعان ما احتقرت مشيئة السماء.. وجن جنونك مما ألفيت نفسك غارقاً فيه من الفقر والإدقاع.. ولم تصبر على ضيم، وكنت لا تتردد في نكران الله، كنت مستعداً أن تشتم اللّٰه ثم تموت! ذهبت طيبتك وتلاشت كما تتلاشى السحابة الخفيفة، وتطلعت بعينين زائفتين

وبنفس منهومة إلى لون الذهب من بعيد.. وتلهفت إليه..و نلته أخيراً، نلته ونلتني!»

وخيل إلي أن قامته تضاعف طولها، وأن وجهه أشرق بنور غير ذلك النور السماوي الذي نسمع به، ونظر إلي نظرة مفعمة بالهزء واليأس، وعاد يقول:

«أيها المعتوه أنذرتك وأنا آت إليك! أنذرتك يوم التقيتك، قلت إني لست كما أبدو لك،..أو تذكر لما تصارع الخير والشر في أعماقك ما قلته لك؟ أو تذكر أني حثثتك على التروي حتى تسلك طريق الهداية التي تنيرها الحاسة السادسة؟ ألم أنبهك ألف مرة إلى ما يخلق به عمله؟ والآن أعلم أنك لم تعد مخيراً، فأنت مكبل بالحديد ـ بحديد المذلة ـ لقد قيدتك خيوط الشبكة وكانت شبكتك ملاييني التي أغدقتها عليك ـ إن الرجل الذي خلفها لك كان رجلاً شقياً أعماه البخل فباع روحه إلى الشيطان... وقد قتل نفسه لشحه، ولكنه يعيش ثانية، يعيش كما سوف تعيش أنت!»

ودنا مني وهو يحدق في وجهي واستتلى:

«المال كالعبقرية ـ يوهب لا لتتمتع به النفس بل لتنفع به من يحتاج إليه.. فماذا يا ترا فعلت لغيرك من الحسنات بمالك؟.. كتابتك، كتابك

الذي أنفقت عليه الآلاف، لم تنفق كل ذلك المال، إلا لتتذوق طعم الشهرة التي حرمتها.. وزواجك، زواجك كان الحافز إليه طموحك وتهافت نفسك على الشهرة.. ولما تزوجت يا تمبست ألفيت نفسك تحيا في صحراء ـ فقد خلت حياتك من الحب ولم يبقى فيها إلا ذلك التكلف المخيف..و ابتعدت عن الله أكثر فأكثر.. فيا لك من جشع! ولقد اصطفيتك عبداً لي لأنك أناني جشع لا تتورع عن الكفر إذا كان في الكفر ما يحقق أهواء نفسك الحوباء!»

وصمت، ونظر إلى وجهي المصفر الذي تفصد منه العرق، ثم عاود الكلام فقال:

«أجل أيها المأفون! ظننتني صديقاً، وكان خليق بك أن تعرفني عدواً لدوداً! لأن كل ما يراود شخصاً على فصائله يكون ألد أعدائه! ومع ذلك فقد اصطفيتني دون سائر الخلق، فوجبت علي خدمتك ـ أنا وأتباعي... بيد أنك أيها الغافل أغضيت عن الأخطار، ولم تر وجهي على حقيقته السافرة...و لم تحاول حسر السجف عن الألغاز... لم تشأ أن تميط اللثام عن كل سر من الأسرار، وإلا لعلمت من كان في خدمة ضيوفك ليلة إعراسك في ويلسمير، وإلا لأدركت من كان يعزف ويغني ويرقص يومذاك، وإلا لأيقنت أني كنت أقف وراء كل مصيبة تبعت اقترانك بسبيبيل...»

وزفرت من كل محرور، وأخذت أتلدد في مكاني كالسليم الذي لدغته أفعى.... أخذت أتململ وأتضور.

وأتم هو والنار من فمه مع كل حرف ينبس به:

«قبحاً لك ولجميع الناس أيها الرجل! أنا.. أنا المعذب.. أنا الذي لا أرى في أفقي قبساً من أمل... أنا الذي أهز الكون.. تتمادون أنتم يا بني البشر في تعذيبي وإيلامي...و تصمونني رغم ذلك بالشر والإثم، تصمونني بما وسمتم به أنتم..و لو كنتم جبلتم من الفضيلة لاستردت فردوسي المفقود.. لو كان بينكم أشخاص ينبذونني نبذ النواة... لو كان بينكم من يركلني بقدمه..لو كان بينكم من يصمد في وجهي ويدوس على إغرائي، لاسترجعت كرامتي المهدورة في أسرع من رمش الهدب..و لكن.. آه.. ولكن..»

ودفن رأسه الجميل بين راحتيه. ولكن ما عتم أن رفعه ثانية وقال:

«تعال.. تعال..»

ثم دنا مني.. وأردف:

«تعال.. اتبعني.. لقد سقط القناع عن وجهي.. لقد عرفتني الليلة، فاتبعني.. وستعلم كل شيء.. ستعرف هوية من لازمت طويلاً في غمامتك الغرّارة التي انجابت الآن.. ومن جبت معه هذه البحار.. من.. من.. أجل ستعلم حقيقتي أيها الجاحد فضل الله.. أنني خير منك لأني أعترف به تعالى.. أما أنت.. أنت..»

ولعلع الرعد، فصمّ أذني وتحطمت جميع النوافذ، واندفعت العاصفة إلى الداخل تزأر وتعربد... لقد ثارت العاصفة من جديد.. وهاج البحر. وترنح المركب، وكأنه يترنح من الهول الذي يقيم فيه!

وغشيت بصري ظلمة قاتمة لعينة، وشعرت بأيد قوية ترفعني رفعاً وتحملني حملاً وتطير بي إلى ظهر المركب.

وفتحت عيني في قنوط، ولكني لم أستجر الله ـ وكيف استنجد به وأنا من أنا من الناكرين الذين سخروا بالعناية السماوية؟

كيف أفعل ذلك..؟ كيف أطلب الرحمة؟..

ورأيت حولي دنيا متجمدة ـ كان الصقيع الأبيض يكتنف كل شيء ويحيط بكل شيء.. كان كل شيء يبدو كأن الشمس لم تشرق أبداً على الخليقة

وأطلّ عليّ القمر الحزين، فطارت نفسي شعاعاً.. أطل القمر الباكي، فتنازعني عامل خفي باطن.. ونظرت إلى لوسيو، فلم أبصر به.. نظرت إليه، فلم أره، لم أر لوسيو.. بل رأيت ملاكاً!..

23 ـ الطريق المجهول

ارتفع هذا الشخص ذو الإشراقة الخفية الغامضة القاسية الذي شع في تلك الهنيهة كما تشع نجوم من نار... وكان الوجه مصفراً إلا أن النيران كانت تنبثق منه... كانت العينان مفعمتين بالألم الذي لا ينطفئ، وبالندم الذي لا يوصف، وباليأس الذي لا يقدر!

كانت أساريره هي هي كما عرفتها من قبل، كانت أساريره وتقاطيعه كما عهدتها ـ لم تتغير أو تتبدل، إلّا أنّها أضحت وكأنها من الأثير وإلى الأثير!

لم أشعر بأي ألم جسماني، إلّا أن روحي كانت يقظةً متهافتة وكأنها تحتضر لتموت.

وأدركت شيئاً فشيئاً أن هناك آخرين يحيطون بي، فلما أجلْتُ الطَرْفَ رأيت جمهوراً غفيراً من الناس ـ رأيت وجوهاً متضرّعةً وأخرى وحشية النظرة... رأيت عيوناً تنطق بالألم والعذاب.. ورأيت أيادي تمتد إلي في تضرّع واستجداء وتهديد..

واكفهرّ الفضاء، وأخذت الأطياف تحلّق وتطير.. أخذت الأجنحة المشتعلة الأطراف تمرق في الفضاء وكأنها ومضٌ خاطف مخيف..

وهو.. عدوّي.. الذي اتكأ على السارية، أصبح محاطاً بآلاف الأجنحة هذه.. وانبعث فجأة من طيّات الصمت المتجمد، صوت حزينٌ موسيقي يقول:

«إلى الأمام يا أمييل! قُد السفين إلى الأمام! إلى حدود الكون!»

ورفعت طرفي الكليل، وتساءلت: «أهذا حقاً أمييل؟ أهذا هو الرجل الذي مقتته نفسي بالغريزة؟ ـ هذا الكائن المتجهّم الكالح العابس وكأنه القدر المميت! فإن كان هو أمييل، فهو أعتى الأبالسة قاطبةً!

إن في وجهه آيات بينةٌ من الرعب والألم الدائمين، وأن هذا الهلع الراسخ والألم الذي لا يريم قد غيرا روحه وشوها منظره تشويهاً سريعاً!

إن تاريخ الجريمة مسطور في نظراته المفجوعة! فما هو السر؟ ما هو العذاب المبرح الذي مزقه تمزيقاً؟ وهل لأي كائن حيّ أن يحدس السبب؟ هل لنا نحن الأحياء من بني البشر أن نعلم ما ينطوي وراء هذه النظرة؟

وأدار أمييل الدفة بيدين معروقتين، وتشققت جدران الجليد من حولي، وانهارت بأصوات كهزيم الرعد.

وهتف الصوت الجهير الحزين مرة ثانية:

«إلى الأمام يا أمييل، إلى الأمام.. إلى المكان الذي لم تطأه قدم إنسان! طرّ.. طرّ إلى نهاية العالم!»

وكثف الهواء، وامتلأ الجو بالوجوه المخيفة، واصطفت الأجنحة القاتمة، وغدت كأنها العاصفة الي لا تسكن ـ غدت الأجنحة كالعاصفة، ومزق الفضاء صرخات وأصوات بكاء.. مزق الهواء عويلاً حاداً يتصاعد من جميع الجهات.. نحيب وعويل بكاء مرير.. أنين.. أنين..

اندفع المركب إلى الأمام بقوة وعزم، واستمر يخترق الجدران الثلجية ويحطمها تحطيماً

اندفع المركب محمولاً على أجنحة الأبالسة والشيطان في بحر خاضع لسلطان الشر.. في بحر مشدوه مثلي.. في بحر مزبد وكأنه يلفظ أنفاسه تحت وطأة النقمة التي حلت به

فإلى أين؟ إلى أين المصير؟ وهل أجرؤ على التفكير؟ ألست مائتاً؟

وهذه الدنيا التي أرى ألا تختلف عن الدنيا التي أعرف؟

إلى الأمام.. إلى الأمام.. أنمخر العباب؟ أم نطير ونحلق؟

وهذا القوام الماثل أمامي، هل يتسنى لي تحويل ناظري عنه؟

وعيناه.. ألا أبصر بعينيه؟ إنهما يتكلمان.. إنهما يفيضان بسرد تاريخ دامٍ من صنوف مصنّفةٍ من العذاب!

وهكذا ألفيت نفسي أقف وجهاً لوجه مع اليأس ـ وهل لليأس أرجل يقف عليها؟ عجب! انني أراه أمامي بوجهه الجهم.. إني أرى اليأس!

وما هو إلّا قليل حتى اجتاز (اللهب) بن المنطقة المثلوجة وشرع يسبح في بحر دافئ كأنه البحيرة التي تتوسط دائرة من الجبال والتلال

ورأيت على الجانبين شواطئ مزدهرة مزهرة، كما شاهدت من بعيد هضبات تضيء بنور الغسق.. وسمعت صوت الموجات الصغيرة تلتطم، بصخور خفية، وتتمتم كأنها تنطق.. وانتشر العبير في الهواء العليل.. وهبت نسمة رخاء.. فهل هذا هو الفردوس المفقود؟

وتناهى إلى سمعي على حين غرّة أصوات سقسقة، فأرهفتْ أذنيّ، وكان لما سمعت تأثير السحر على مشاعري ـ كان الصداح أغنية خالدة، واغرورقت عيناي، وتزاحم في خلدي خواطر كثيرة، وعادتني

الذكرى، عادتني ذكرى الأيام الخوالي، وهفت نفسي إلى الدنيا.. إلى الأرض الحبيبة!

فرص الحياة ـ عجائب الحياة ـ شمسها وقمرها ـ كل ذلك طوف الآن في مخيلتي وتراءى لي أنه أعظم ما خلقه مبدع الأكوان

ولكن أين لي الفرصة لأرتدّ راجعاً؟ وهل لي أن أستعيد الماضي؟

أنا.. أنا العاثر الحائر.. أنا الرجل الذي كفّ بصره فلم يرَ إلا المباذل والأهواء والشرور

أنا المسكين الذي كفر بنعمة ربّه، وأنكر ربّه، وأنكر وجوده

وغرّد العصفور واستمر يغرّد بصوته الملائكي.. ولمحت فجأة مخلوقاً أو طيفاً ينساب من خلال الأجنحة المتكاثرة ـ رأيت امرأة بيضاء تتسربل بالبياض وتموج عقائص شعرها الطويل على كتفيها وصدرها.. ودنت من المركب ثم رَنَت إليّ بوجهها الحزين.. وكانت سيبيل! ولمّا حملقت في هذا الوجه الجميل الكئيب رمت بنفسها على أرض المركب وجعلت تنتحب ولهفت نفسي... ورأيت بعين مخيلتي بلمحةٍ خاطفة هذه المرأة المعذبة كملاك طاهر بريء لو قُدِّر لها أن تفوز بحب رجل شريف مخلص يهديها سواء السبيل ويرشدها إلى المحجة! ورثيت لها، ولم أكن قد رثيت لها وهي حية ترزق!

وتتابعت الوجوه التي أعرفها ـ تتابعت وجوه الموتى، وكلها قد انطبع عليها حزن هائل لا عهد لي بمثله ـ حزن كأنه النار الأكالة التي لا ينطفئ وقدها!

ورأيت وجه أبي أيضاً وكان هو الآخر شاحباً مصفرّاً متألماً.. واقشعر

جسدي ـ فهل يا ترى يتبع ذلك مرور أمي التي حملتني وأرضعتني؟ هل حشرت أمي الحبيبة مع هذه الزمرة الخاطئة؟

ولكن، حمداً لله.. إنها ليست هنا ـ إن روحها النقية لم تضلّ السبيل بل مرقت مروق السهم إلى الفردوس!

وارتفع الصوت المخيف للمرة الثانية:

«لنقف هنا، لنقف هنا حيث لم يجرؤ رجل ضعيف أو قوي من رجال الدنيا على المجيء، هنا حيث لم يجسر مثل هذا الرجل على ارتكاب الفاحشة.. هنا، البقعة الضائعة فوق الأرض التي لم يهتدِ إليها إثم إنسان وإفكه! هنا نهاية العالم! وعندما يعثر الإنسان، عليها ينفخ في الصور وينشر الموتى ويعلن يوم الحشر، وحتى ذلك اليوم تبقى هذه البقعة طاهرة بعيدة عن الرجس!»

وتصاعد من أمكنة مختلفة لحن شجي، وشعرت أني أتحرر من قيودي، ولكني لم أتحرر من مرأى عدوي اللدود، فقد حدد هذا الشيطان المريد عينيه المشعتين في وجهي، وأقبل من بعيد يحدثني ويقول:

«يا رجل، لا تخدع نفسك! لا تظن أن أهوال الليلة هي خدعة حلم! أنت في صحوةٍ تامة ولست سابحاً في أضغاث! وهذا المكان ليس بالجحيم ولا بالنعيم.. هذا المكان ليس بشقة الحرام الفاصلة بين الإثنين ـ بل هو زاوية من دنياك الخاصة التي عشت فيها..

«لقد أزفت الساعة وأنت الآن على مفرق طريقين، ولا مندوحة لك من الاختيار ـ اختيار سيدك ومولاك! إنني أبدو لك كملاك الآن وكنت متسربلاً بأهاب بني آدم.. وقد لبست لكل حال لبوسها، ورافقت كل فئة

ودرجة من فئات الناس ودرجاتهم، وتكيفت بحسب بيئتهم، وعشت معهم فمالأتهم وجذبتهم إليّ جذباً..

«واستسلم الجميع إلى ما أريد، أو إلى ما فرض علي أن أريد..

أما أولئك القلائل الذي تمكنوا من قهري فقد ارتددت عنهم جذلاً مجبوراً.. وسأبقى هكذا آلاف السنين، سأبقى إلى أن يصبح الإنسان مثالياً كاملاً فاسترجع ما فقدت من فردوسي.. لك الخيار يا هذا، فاختر بين نفسك معي وبين اللّٰه خالقك!».

وتراءى لي أن السؤال دوّى في أذني دوي الرعد القاصف..

وارتعشت من أعلى رأسي إلى أخمص قدمي.. ورمقت عدوي المخيف فرأيته يحدجني بنظرته الثاقبة المنتظرة ـ وبهت شديداً عندما شاهدت في بؤبؤ عينيه شخصاً هو أنا ـ شاهدت شخصي يخرج من عينه ويقف كما أقف أنا!

أنا مخير بين اللّٰه وبين الشيطان!

وعرضت لي في تلك الهنيهة جميع فصول حياتي وكأني أراها في مرآة مجلوة.. رأيتني وأنا طفل أحبو، ثم ترعرعت، ثم شببت عن الطوق، ثم أصبحت كاتباً يعيش على مبدئه ويحيا متزهّداً يتذوق رحيق الجمال من كلماته.. ثم غنياً موسراً انصلت من ذلك الإطار الجميل الذي أقامه لنفسه ـ خرج من ذلك الإطار وانغمس في الحمأة حتى غرق فيها، وحتى دفن في غمرتها الملوثة.. رأيت شروري وآثامي.. رأيت أنانيتي وأثرني.. ورأيت كفري وإلحادي..

أواه، لكم تألمت في تلك الفينة الخاطفة.. وتأهبت وفتحت فمي ووجدت الصوت، ووجدت القوة، ووجدت الإيمان، وصحت بأعلى هذا الصوت البائس:

«الله وحده! الانحلال على يده الرحيمة خير من الحياة بعيداً عنه! الله وحده اختار!»

وتردد الصدى، وتجاوبته أذناي...

ورطب الهواء وشع الكون...

وكسا وجه عدوي ضوء ساحر خُيِّل إليّ أنه بسمة الفجر

ورفعت رأسي إلى السماء فشاهدت مجداً عظيماً وسمعت صوتاً نقياً قوياً يقول:

«انهض يا لوسيفر يا ابن الصباح فهنا بين يدينا روح ترفضك.. انهض فقد غنمت خطوة نحو الخلاص!»

وأخذ المركب يغوص في اللجة، شعرت به يهبط قليلاً قليلاً، فأخذت أتمتم وأردد: «الله وحده.. الله وحده»

وأصابني الدوار وأيقنت من اقتراب النهاية، وسمعت صوتاً يقول:

«قيدوه واطرحوه في أظلم ركن من الدنيا! وليبحث هناك عن النور فإذا وجده ظفر بالمجد السماوي!»

ولم ينتابني الخوف ومكثت في مكاني وقد أشرق وجهي.. انتظرت النهاية واثقاً سعيداً

ولبث المركب يغوص، وقبل أن أشعر بأني أطرح طرحاً في وهدة باردة

مقرورة لمحت الشمس، لمحت شمس الحياة وشمس الكون.. لمحت الحياة اللذيذة الفتية..

قبل أن أنطرح إلى المجهول لمحت هذه الشمس تصعد في كبد السماء، ثم لمحت عينين ساحرتين كبيرتين تنظران إلي من وراء الحجب بحزن وأسى ويأس

ومضيت.. إلى أين؟ لا أدري...

مضيت...

24 ـ الله

البحر الأزرق ـ السماء اللازوردية ـ وشعاع الشمس، أو بالأحرى شعاع السماء اللانهائية فوقهما!

واستيقظت من غيبوبتي بعد فترة طويلة من الموت الحسي، ووجدت نفسي أطفو على صفحة اليم المزبد وقد شُدَّ جسدي إلى لوح كبير من الخشب.. وكانت قيودي أغلالاً من الحديد لم أستطع منها فكاكاً، ولهذا سلمت أمري إلى الله، وجعلت أشخص على الأفق البعيد المترامي، بينما طفق نَفَس البحر يهدهدني برقّة ولطف، ويأخذني إلى الأمام وإلى الخلف وكأني طفل رضيع في حضن أمه

وحيد مع الله والطبيعة.. أنا، مخلوق ضعيف محطم معلق بين السماء والبحر على قشرة من ماء! وحيد، أهيم في هذ المحيط الذي لا تعرف له حدود أو سدود..

ضائع في هذا الخضم... ولكني منقّىً من شوائبي وأدراني لما أعترف به الآن من وجود تلك القوة السرمدية الخارقة التي أبدعت الكون والفضاء، والشمس والقمر..

ولن أعتم حتى أقضي نحبي ـ هذا أمر مفروغ منه.. ولكني أمضي وأنا منشرح الصدر واثقٌ من الخلاص، موقنٌ من رحمة الله فماذا عسى أن أصنع سوى إعلان توبتي قبل مجيء ساعتي؟

رباه! أصفح لي.. سامحني.. ارحمني.. لا تَرُدَّني.. لا تدنيّ بالهلاك!

وتساءلت: «أتردني يا ربي؟»

وتصاعدت كلماتي إلى عنان السماء.. ولكن الصمت المخيم لم يمزقه غير صوتي... وكان هذا الجواب أبلغ الأجوبة... كان الصمت المخيم هو السلام الذي نشدت، والراحة التي طلبت، والرحمة والرضوان!

وتذكرت عبارة طالما وعتْها أذناي وأنا يافع.. تذكرت:

«هذا الذي يدخل قلبي، لن أخرجه أو أطرحه، لأنه المحبة»

وتألق وجهي ببسمة من أُفْرِجَ عن مخنقه، وفي غمرة هذا الصفاء الذي تسرب إلى أعماقي، أخذت أتمتم برفق وهدوء:

«هو اللّٰه الذي يختار لي ما يشاء ـ لحياتي.. ولمماتي.. ولما بعد وفاتي..»

وأسلبت جفني مذعناً.. واستسلمت للموج الناعم؛ وما هو إلا قليل حتى أذعنت للنعاس، فنمت نوماً عميقاً وكأني راقدٌ في فراش وثير!

تنبهت ثانية وأنا أرتعش وأتاوى من الألم ـ وطرق سمعي أصوات حديث ـ كان هناك رجال كثيرون يتكلمون ويضحكون. وقد شعرت بأيدٍ قوية تعمل على فك قيودي وتحطيم أصفادي

وعلمت أني موجود على ظهر مركب، وأن الملاحين يحيطون بي يبذلون جهدهم لإنقاذي. ولما فئت إلى نفسي واسترجعت قوتي أمطروني بوابلٍ من أسئلتهم... ولكني لذت بالصمت لعجزي عن الرد بما يقنع ويرضي

وحملوني فأوقفوني على قدمي، غير أني ترنّحت في مكاني وكأني

أتداعى إلى السقوط! وأخذت أتلفت حولي في ذهول شديد وأنا أتساءل فيما بيني وبين نفسي عما إذا كان هذا المركب ملكاً للشيطان أيضاً.. ولما طرحت هذا السؤال على ملّاح يقف قريباً مني، قال ضاحكاً: «إن المركب لرجل إنكليزي، وقد شاهدك الحارس وأنت تعوم وتطفو فأرسلنا زورقاً لانتشالك وإنقاذك..»

وشخصت إليه دون أن أنبس بحرف، وتزاحمت الأفكار في رأسي وجعلت أبكي وأضحك في آن واحد

فنحن ولا غرو ذاهبون إلى إنكلترا، إلى وطني الحبيب، إلى تلك البقعة من الدنيا التي كلفت أيّما بها كلف وما هو إلا قليل حتى رجع إليّ ضعفي، فانتابني الانحلال وطاشت وغامت عيناي، وكدت أهوي هوياً، لولا إهراع هؤلاء الرجال ذوو القلوب الرحيمة الكريمة إليّ يتلقفوني بأيديهم ويعينونني بكل ما هو متيسّر لديهم

ومضت عليّ أيام كثيرة وأنا أتقلّب بين الحياة والموت، ولكن العناية العظيمة التي أضفاها عليّ رجال السفينة أنقذتني من مخالب الموت وأسبغت عليّ الحياة

ووصلنا أخيراً إلى الشاطئ، فغبّت آلامي، واستحوذ عليّ أمل جديد في حياة جديدة. ولما صافحني ربان السفينة مودّعاً سألني قائلاً:

«بودّي يا سيدي لو عرفت اسمك لأنني، أصدقك القول، مِلتُ إليك وأحببتك»

فأجبته بصوت مهموس: «اسمي؟ آه! ان اسمي جيوفري تمبست»

فاتسعت حدقتا الربان وهتف بتعجب: «جيوفري تمبست! يا لنفسي!.. المستر تمبست؟ المليونير الذي كان؟»

وحان دوري لأتعجّب وأصابَ بالذهول. وقد تساءلت بعد قليل بصوت مبهور: «الذي كان؟ وماذا تعني وماذا تعني أيها الربان؟ أوضح المقال ناشدتك الله!»

«أو لم تسمع بما جرى في غيبتك؟»

«اسمع ماذا؟ لم أسمع شيئاً منذ رحيلي عن هذا الشاطئ مع صديق.. لقد جبنا البحار في يخته الجميل.. ثم.. يا لرأسي!

ماذا أقول؟ لقد حطم اليخت، وأنقذتني أنت، لهذا تراني أجهل ما جرى في وطني»

وتردد الرجل وكأنه يشفق عليّ من أخباره، إلا أنه هز رأسه أخيراً وقدم إليّ صحيفة ما كدت ألقي عليها نظرة حتى استحوذ علي الذعر..

لقد قرأت بأحرف كبيرة ـ نهاية مليونير ـ جريمة تزوير كبرى يقترفها محامٍ مشهور ويذهب ضحيتها مليونير شاب!

قلت إن الذعر أصابني ولكني أقول الآن بل أؤكد للجميع أن خوفي تلاشى في مثل غمضة عين وفتحتها، وما اعتمدت أن أجبت بهدوء:

«لا بأس من ذلك! هذا اللص كان وكيلي المؤتمن على ثروتي وإني لا أشفق عليه وأرثي كثيراً لحاله ـ إنني لست حزيناً واللص يبقى لصاً.. إن المال الذي سرقه حمل معه النكبات وها أنت ذا تشهد بعينك ما أصابه، فهو الآن نزيل السجن، ولست في حاجة يا صاح إلى من يشرح لك أهوال السجون!»

وقال الرجل مبغوتاً «لقد خسرت مالك كله، ألم تدرك أنك غدوت فقيراً مملقاً؟»

«بلى، أدركت ذلك جيداً.. إنني رجل محطّم في نظر الدنيا، ولكني سعيد موفق لأني خسرت ثروتي!»

وهز الربان منكبيه بانفعال، فلا شك أنه حسبني مجنوناً فاقد العقل، ولكني لا أذكر قط أني شعرت بكمال عقلي في الماضي مثلما شعرت به الآن. ولا ريب أني ربحت الآخرة في هذه المصيبة! لقد نأت عني التجربة وابتعدت وما زالت تبتعد... وبرز تلقائيْ في تلك الفينة رسم جميل لحياة نقية طاهرة بعيدة عن الزيغ، رائعة مفعمة بالهناء!

برزت هذه الدنيا تلقائي بحلة باهية، فرأيت نفسي تنسكب في ثانية على مجهودها الأدبي، ورأيتني آكل بلغة من الخبز فأسعد بها وأحمد اللّه على نعمته السابغة!

وأحسست بالقوة والعزم، أحسست بالدماء الحارة تتدفق غزيرة في جسدي، وحمدت اللّه لما وهبني إياه من هذه الفرصة الذهبية.. سأعمل عملاً دائباً لأقيل عثرتي وأمضي قدماً في جادة الحق والإيمان

وودعت الرجل المشدوه وجميع الملاحين، ونزلت إلى الشاطئ الأمين، فعلمت بعد حين أن الناس كلهم سمعوا بغرق يخت الأمير وبنجاتي

واتصلت بدوائر الأمن في لندن راجياً من المسؤولين أن يوقفوا الإجراءات القانونية ضد موكّلي المختلس، بما أشاع الارتباك والبلبلة في صفوف محرري الجرائد، وبين الطبقة الراقية في لندن

وقد أطلقوا عليّ مختلف الصفات والنعوت.. قالوا إني فقدت

الحجى.. قالوا إني مخبول ذهب توازني وأصبحت أفعل ما لا يليق بي أنا أفعل وجرى ما لم أتوقع أن يجري، وانتضى ناقد ناقم عليّ قلمه في أحد الأيام، وساطني به بشدة، وحمل على كتابي حملة هائلة. ولكن تهجمه هذا جاء بعكس ما رجاه، فقد أقبل الناس على ابتياع كتابي وكأنهم فطنوا اليوم إلى ما لم يفطنوا إليه بالأمس من محاسنه ونُبل مقاصده

ودرّ عليّ إقبالهم مالاً كثيراً فاستعنت بما جمعت على تدبير شؤون حياتي، وازدهاني توفيقي فيما سعيت إليه من جديد، لأني أيقنت أن الدرهم الذي يكسبه الرجل بعرق جبينه هو خيرٌ من ألف جنيه تأتيه من باب مريب!

وعادتني ذكرى مافيز كلير، ولكني لم أجرؤ على طلب مواجهتها، وتركت الأمر للأقدار، فقد يحدث ما يجمعني بها.. قد أكحّل عيني بمرآها عندما أنشط في التأليف، وأخرج على الناس بكتاب جديد ذي قيمة ووزن

أما ويلوسمير فكانت مبعث كربي وكآبتي في كل مرة فكرت فيها وقرأت عنها.. فالمزرعة والقصر هما في رأيي واعتقادي، مكانان مسكونان بالأرواح الشريرة، ومع أن اللورد إيلتون تنازل فأرسل إليّ يدعوني إلى قضاء بضعة أيام في قصري السابق، إلا أني اشتممت من لهجته في رقعته أنه يتهمني بالجنون أسوة بغيره من الناس، كما تأكد لدي مما كمن وراء الأحرف أنه يرغب عن رؤيتي!

واقترن هذا الشيخ المتصابي بحبيبته ديانا، وكانت حفلة الزفاف حديث القوم لشهور عديدة، ولم أدهش عندما طالعت في الصحف اسم الأمير لوسيو ريمانيز كضيف الشرف الأول في الحفلة الشائقة!

واكتريت غرفة متواضعة في حي متواضع وانكببت على عملي الجديد متجنباً كل ما من شأنه أن يصرفني عنه

وعشت في معزل عن الناس مع أفكاري وذكرياتي، عشت مع هذه الذكريات وطفقت أروّض نفسي على الحياة المتواضعة بعيداً عن طبقة المترفين والموسرين

وتوالت الأيام والمعركة ناشئة بيني وبين أنانيتي السابقة.. كان علي أن أقوّم انحرافي، وأن أصلح ما فسد من طبيعتي وخلقي.. كان علي أن أكبح ذلك الجموح المخيف الذي راضتني عليه التجربة..

وكانت المهمة شاقة، ولكني كسبت وما فتئت أكسب حتى أيقنت من النجاة وخرج فجأة إلى الدنيا كتاب جديد لمافيز كلير، فأحدث دوياً شديداً، وطمس جميع الكتب الأخرى بما في ذلك كتابي أنا

بيد أني هللت طرباً لما لمسته من تلك الضجة العظيمة ـ لم أحسدها كما فعلت يوم كنت غنياً، لم أمقتها، بل تضاعف ما في قلبي من الحب والاكبار وقدست عبقرية هذه المرأة الساحرة ـ وبمجامع قلبي تعلقت بأنوثتها الطاغية! ومن خلال تلك الشهرة الذائعة الي أحرزتها مافيز، وعندما كانت الدنيا كلها تلفظ باسمها كتبت لي كتاباً صغيراً رائعاً هذا نصّه:

«عزيزي السيد تمبست،

تناهى إلي نبأ رجوعك إلى إنكلترا، لهذا أرسل إليك هذه الكلمة لأعبّر عن سروري الفائق برجوعك ونجاحك.. إن كتابك الجديد تحفة الكتب وكلما قرأت فيه صفحة كلما زدت إعجاباً بمؤلفه فهنيئاً لك. إذا ما حننت يوماً إلى هذه البقاع وإذا استطعت أن تلقي نظرة ثانية على موطن الذكريات

الممضة فتعال حتى نتجاذب أطراف الحديث ونسعد بالاجتماع سويةً في مكان بعيد عن الشرور والآثام»

صديقتك

مافيز كلير

وانسدل تلقاء ناظري ستار ما لبثت حتى رأيت في طيّاته وجود مافيز، بل رأيتها ولمستها وامتلأ صدري بأرجها الذكي

رأيت بسمتها المشرقة، رأيت سعادتها النقيّة، ومحبتها الفائقة لكل شيء طاهر.. إنها حقاً أعظم امرأة

كتبت إلي كصديقة مخلصة، وهذه مِنّةٌ لا أنساها، بل هي مَكْرُمَةٌ لا أستأهلها!

ووضعت الرقعة الحبيبة في مكان قريب من قلبي حتى تكون لي بمثابة الطلسم.. فهي، هي من دون الخلق أجمعين تعلم سر السعادة... وسيأتي اليوم... أجل... سيأتي ذلك اليوم الذي أذهب إليها...

سأذهب لرؤية مافيز التي تغرّد كالعصفور وتصدح مشببة في حديقتها وبين ورودها ورياحينها ـ في يوم آتٍ عندما أظفر بالعزم، وعندما أحوز من صفات الرجولة ما يجعلني قادراً على مجابهتها بكل ما مر بي، إلا بما يعتلج قلبي من حب ووَجْد! فهذا سر مكنون ولا يخلق بي أن أميط اللثام عنه لأحد

وعلى النفس أن تقاوم أهواء النفس، عليها ألا ترتمي متهافتة على باب الفردوس الذي تملؤه مافيز! وسأراها في يوم ما، ولكني سأراها لساعة

وجيزة وبينما أنا مستغرق في هذا الخيال، محلق في فضاء لانهائي من الفكر إذ بي أسمع صوتاً خفياً يقول:

«أيتها المدينة الجميلة احسري النقاب، احسريه يا روح المدينة! لأني سأقرأ في عينيك سر السعادة!»

وسرت في جسدي قشعريرة باردة، فوثبت واقفاً في كثير من الهلع. ثم دنوت من النافذة ففتحتها وجعلت أتأمل في الطريق والمارة. واتجه فكري إلى ما شاهدته في مصر، فأبصرت وجه الراقصة المصرية التي ظهرت إلى الوجود ثانية بعد آلاف من السنين ـ أي وجه سيبيل ـ ثم رجع إليّ ما طاف بي عندما أنامني لوسيو، من مناظر المدينة الساحرة، والوجه الذي يسقط لثامه.. وارتعشت بشدة، وأخذ احساسي السادس يصل حلقات مفقودة من حلقات الماضي والحاضر

فهل أكون مرة ثانية ضحية الشر؟ ـ هل هناك خطر آخر يتهددني؟ ـ وهل علمت دون أن أشعر وبحافز من الرغبة الجامحة على خلق تجربة أخرى تودي بي في النهاية؟

وفررت من حجرتي، وخرجت إلى العراء، وتنفست الصعداء مراراً وتكراراً

كان الوقت في هزيع متأخر، وكان القمر يرسل أشعته الفضية الباهتة فيغمر بها المعمورة

وتحسست كتاب مافيز وضغطت عليه بيدي حتى يتصل بخفقتي ـ ضغطت عليه ليكون درعاً ضد كل إثم وفجور

واسترعى انتباهي بغتة شبح مديد يمر بسرعة في الطريق، ودنا الشبح

هذا مني، وما كاد يصبح على قيد خطوة واحدة حتى عرفته ـ تبينته فحملقت فيه ـ إنه لوسيو ريمانيز!

لوسيو كما عهدته دائماً ـ الجمال والرجولة والقوة والسطوة

لوسيو نفسه بكبريائه وتهكّمه الذي يشع من عينيه في الليل والنهار

والتفت إليّ وتأمل في وجهي ملياً، ومع ذلك فقد تبينت نظرته الساخرة وكأنها شعلة لا تنطفئ

وقفز قلبي بين ضلوعي، فقبضت عليه بيدي، ثم تنفست نفساً طويلاً حاداً.. وتحسست كتاب مافيز ـ تحسست الطلسم ـ ونظرت إلى لوسيو متحدياً ثم أشحت عنه وابتعدت

وتنحى هو مفسحاً لي الطريق. ومضيت في سبيلي لا ألوي على أحد. ولما حاذيت مبنى البرلمان تريثت قليلاً لأستجمع قوتي. ومر بي ـ مر الرجل الذي لا يشبه الرجال ـ وتريث هو الآخر.. وأخذت أردد اسم الله، رددت اسم الله لأني أيقنت في تلك الهنيهة أن القدر يخط مصيري

ومر رجال آخرون وكلهم من أعضاء البرلمان. وكان أكثرهم يحيّي لوسيو ويصافحه

وانتظر لوسيو، وانتظرت أنا..

وأخيراً وعندما دقّت ساعة برج لندن الكبير دقّاتها الإحدى عشرة، لمحت عن كثب وزيراً يدلف صوب المجلس.. عند ذلك، عند ذلك فقط، تقدم المخلوق الذي عرفته كـلوسيو، فاستوقف الوزير وحيّاه بدماثة وبصوت غني موسيقي، ثم تأبّط ذراعه ومشى معه وهما يتكلمان ويشيران بيديهما

وتتبعت الرجلين حتى ذاب شبحهما في ضوء القمر..

تتبعت الرجلين ـ المديد الطويل ذا السطوة والقوة والسيادة..

وذلك المتنفع القصير الذي يمشي بخطى سريعة نحو الهلاك..

وشاهدتهما بعد قليل يعرجان على البناء الفخم حيث يجتمع نواب الأمة، ثم يختفيان

يختفيان في المكان الذي تساس منه البلاد..

في المكان الذي تحكم منه ملكة البلاد رعاياها..

الشيطان والإنسان...

سوية!..



حكاية ممتعة وعجيبة، عامرة بالأحداث، وضعت فيها المؤلفة فلسفتها في صراع الخير والشر، الملاك مقابل الشيطان.

تعد الرواية واحدة من أوائل الكتب التي حققت نجاحاً جماهيرياً كبيراً وتصدرت قوائم "الأفضل مبيعاً" في وقتها. قدّمت فيها ماري كوريللي أسلوبها في مهاجمة فساد المجتمع البريطاني أواخر العصر الفيكتوري، حيث الجشع من أجل المال والسلطة والشهوات والتنكر للإيمان يتدفق في أذهان الجميع. يضم العمل أهمية موضوعية وتتخلله روح وعظية تمجد الفضيلة بأسلوب فاوستي يقدم في النهاية درساً أخلاقياً بليغاً عبر متعة السرد.



إخراج وتصميم:



daralrafidain
dar.alrafidain
daralrafidain دار الرافدين
www.daralrafidain.com
info@daralrafidain.com
Dar ALRafidain دار الرافدين